الإنسان والتطور

سلسلة الإصدارات المكتبية العلمية

5

WINTER 2012

إصدار ثاني 2024

الإنسان والتطور إصدار فصلي

شتاء 2012

إصدارات

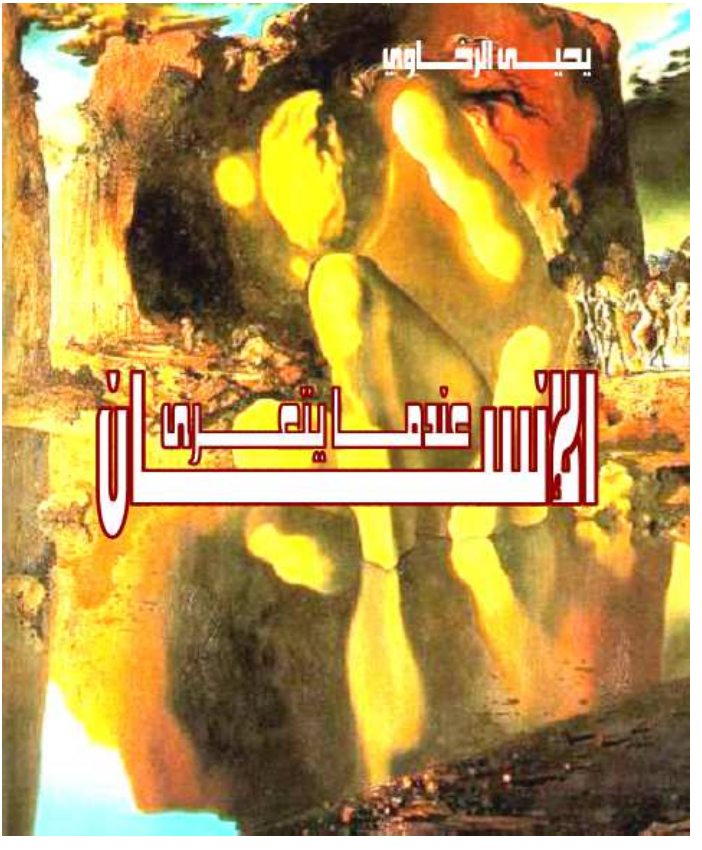

مؤسسة العلوم النفسية العربية

مؤسسة الرخاوي للتدريب والأبحاث العلمية

الإنســـــان و التطـــــــــور إصـــــــــدار فصلـــــي

شتاء 2012

يحيـــى الرخـــاوي

الإنســـان عندمـــا يتعـــرى

الفهـــــــــرس

الإثـنـيـن 2011-05-30	
1368 - يـوم إبـداعى الـشخصى	3
الـثلاثـــاء 2011-06-07	
1376 - الـفصل الأول: الـضيـاع	10
الأربـعــاء 2011-06-08	
1377 - الـفصل الـثـانى: كـرسى عجل	26
الإثـنـيـن 2011-06-13	
1382 - الـفصل الـثـالـث: فى الـقـفص	42
الـثلاثـــاء 2011-06-28	
1397- الـشعلـة و الحريـق	58
الإثـنـيـن 2011-07-04	
1403 - أبـلـة الـنـاظرة	71
الـثلاثـــاء 2011-07-12	
1411 - الـعــلامـة	85
الـثلاثـــاء 2011-07-26	
1425- كـبيرهم	104
الأربـعــاء 2011-08-10	
1440 - الـركـوب بـالـدور	126
الأربـعــاء 2011-08-24	
1454 -أكـبـادنـا	151
الأربـعــاء 2011-08-31	
1461 - (أو) قـبـل الـبدايـة قـبـل الـنهايـة...	163
الأربـعــاء 2011-09-07	
1468- أغـنيـة لـلحيـاة	170
مـلحق ردود بـريـد الجمعة	178

الإثنيـــــــــن 30-05-2011

1368-يـــــوم إبداعـــــى الشخصــــــى

المقدمة:

مع اقتراب انتهاء السنة الرابعة لصدور هذه اليومية، يبدو أن النشرة سوف توظف أكثر فأكثر لإرغامى لتحديث ما سبق كتابته، فقد اكتشفت أنه هو هو، أو لعلى أنا الذى هو هو.

مع اضطرارى للرجوع إلى ما سبق كتابته، بمناسبة كتاباتى الحالية متابعاً الجارى منذ 25 يناير فى مصر وقبلها فى تونس، اضطررت للتقليب فى أوراقى منذ 1968 وأنا تشغلنى الفكرة المتفائلة جدا عن احتمال اسهام التكنولوجيا الأحدث فالأحدث فى تكوين الوعى الإنسانى الكونى الجديد لمواجهة الانقراض الشامل الذى يتمادى نشره فانتشاره تحت مسمى "النظام العالمى الجديد" وهو ليس إلا الانقراض الجديد الذى تقوده الولايات المتحدة واسرائيل والقوى المالية الكانيبالية العالمية.

وقد اكتشفت أن كتاباتى الأقدم ليست اقل دلالة فى الإسهام فى هذا الإعداد بشكل أو بآخر،

وبما أن قلة محدودة هى التى قرأتها حين صدورها الأول، فقد قررت أن استعمل هذه النشرة اليومية لأواصل نشرها بأقل قدر من التحديث، ربما يصل من خلال ذلك أن الإعداد للثورات التطورية هو الضمان الوحيد لمسار الانتفاضات فى طريقها الصحيح لتكون ثورة فثورة فثورة إلى وجهه تعالى.

وسوف أبدا من اليوم بتخصيص يوم الأثنين للطبعة الثالثة من كتاب:

عندما يتعرى الإنسان (1 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

(الطبعة الثالثة: 2011)

وسوف أبدا بنشر هذا الكتاب الباكر سنة (1968) جنبا إلى جنب مع مقتطفات من كتاب "مقدمة فى العلاج

الجمعى" قبل كتابة الكتاب الجديد فى نفس الموضوع، دون نسيان استكمال الأساس فى الطب النفسى،

ربنا يسهل.

****

إهداء (الطبعة الأولى) (1968 - 1972)

"إلى أطفال العالم وشبابه...

من كل الأعمار... "!!!!

****

إهداء (الطبعة الثالثة) (2011)

إلى من أحَبَّ الطبعة الأولى أكثر منى،

شكراً وعرفانا

****

مقدمة الطبعة الثالثة (2011)

1979 - 2010، تأكد لى أن ما جاء بمقدمة الطبعة الثانية هو هو ما حدث خلال بضع وثلاثين عاما، لكنه ليس هو نهائيا.

أنا أتغير فأنا موجود، وأنا موجود فأنا أصير، ورزقى ورزقكم على الله.

لكل مرحلة حديثها، ولكل وقت أذانه.

وقد اضطررت بصراحة أن أعدل بعض الكلمات فى أقل نطاق، لعلنى أخفف من جرعة المباشرة والتجريد التى أزعجتنى، فمعذرة.

هذه هى الطبعة الثالثة حتى لو بدت لى مقالا طويلا فى التطبيب النفسى، وليس إبداعا، فأنتم مسئولون معى.

شكراً مرة أخرى.

ونلتقى.

المقطم فى 2010/9/12

****

ملحق مقدمة الطبعة الثالثة:

هذا، ولم أستطع أن أخرج به إليكم إلا اليوم (21 مايو 2011)،

يبدو أننى لم أنتصر على مقاومتى تماما، بل لعلها زادت،

فقد اكتشفت وأنا أراجع "البروفات" أن جرعة الحديث عن "الإنسان" و"الحب" وتلك القيم التى تبدو تجريدا أو مثالية، وبرغم أنها جرعة صادقة، إلا أنها وصلتنى أقل جدوى فى توصيل الرسالة وبيان مسيرة العلاج، وذلك قياسا بما أمارسه الآن، وخاصة فى العلاج الجمعى، الذى تعلمت منه أكثر فأكثر كيف نركز على الواقع "هنا والآن"، وعلى "الفعل"، وعلى "إعادة تشكيل أنفسنا" بما نستطيع معا، على أرض قوية بما فيها ومن فيها.

كتبت هذا الكتاب سنة 1968 وكان عمرى 34 سنة، ومدة خبرتى عشر سنوات تقريبا، والآن عمرى 78 عاما، وخبرتى 53 عاما، هل يجوز أن أعدَل فيه؟

لا، لن أفعل، اللهم إلا لتصحيح أخطاء شكلية أوتعديل صياغة بعض الجمل، أو حذف بعض التكرار، لن أفعل، فللتاريخ احترامه.

هأنذا أقدمه لأصحابه دون حماس، أمِلا أن يظل مفيدا لزملائى وزميلاتى الاصغر، وربما لأصدقائى المرضى أيضا، وقد غيرت العنوان الفرعى إلى "دروس للناس: فى الطب النفسى" للتأكيد على كل ذلك.

أتذكر قولا لأوسكار وايلد ينبه فيه أن فائدة الفن غير مرتبطة بجماله، بل إنها قد تنقص من أصالة إبداعه لا أذكر ألفاظه، ولا أذكر أين استشهدت به، لكننى عثرت له الآن على مقولة أخرى تشرح لى مقاومتى أكثر فى قوله:

"كل ما أعجب الناس خطأ"،

وقد رفضت الاستشهاد بهذا القول الأخير،

مع أننى فعلت

فعذرا مرة أخرى

يحيى الرخاوى

المقطم فى 20 مايو 2011

****

كلمة الطبعة الأولى - الثالثة:

"... من قرأ هذا الكتاب، ولم يفهم ما فيه،

ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا، لم ينتفع بما بدا له

من خطه ونقشه، كما لو أن رجلا قدر له

جوز صحيح لم ينتفع به إلا أن يكسره"

برزويه (رأس أطباء فارس)

كـلـيـلـة ودمـنـة

****

من مـقـدمـة الـطـبـعـة الـثـانـيـة (1979)

عـنـدمـا صدرت الـطـبـعـة الأولى مـن هـذا الـكـتـاب لم أكـن أتـوقـع لهـا أن تـلـقـى هـذا الـقـبـول مـن مختـلـف الاتجـاهـات، وحين سمعت عنـهـا مـا طـمـأنـنى إلى إمـكـان الـتـواصـل، قـررت أن أعـيـد طـبـع هـذا الـعـمـل الـذى لا أعـرف حـقـيـقـة مـكـانـه بين الأعـمـال الأدبـيـة والـعـلـمـيـة: أهـو قـصـة قـصـيرة، أم صـور كـلـيـنـيـكـيـة أم حـكـمـة عـصـريـة؟

....

....

فـلـيـكـن الـعـهـد بـيـنـنـا أن "نـكـون" وأن "نـصـير" بـشـراً بحق، ونحن قـادرون عـلـيـهـا....

وعـلـيـكـم الـسـلام

يحيى الـرخـاوى

الاسـكـنـدريـة فى 1979/5/11

****

مـقـدمـة الـطـبـعـة الأولى (1968 - 1972)

عـلـى لـسـان الحـيـوان تـعـلـمـنـا الحـكـمـة، وقـال بـيـدبـا الـفـلـيـسـوف لـدبـشـلـيـم المـلـك حـكـمـة الأمـس.. ، وحـكـمـة الـيـوم أبـعـد مـنـالا وأصـعـب تحـقـيـقـا.. فـهـى أشـهـد اخـتـلاطـا بـالـوهـم مـن أى وقـت مـضـى، وبـذلـك فـهـى أقـل تحـديـدا ووضـوحـا.

وهـى لا تجـرى عـلـى لـسـان الحـيـوان، ولـكـن عـلـى لـسـان الإنـسـان الـذى رفـض أن يجـارى أغـلـب الـنـاس نـوع إنـسـانـيـتـهـم الحـالى، وهـم حين قـالـوا "خـذوا الحـكـمـة مـن أفـواه المجـانين" لم يـتـعـدوا الحـقـيـقـة، ربمـا بـغـير قـصـد، أو حـتى بـقـصـد الـسـخـريـة، لأنـه ربمـا ثـبـت لمـن يـبـحـث عـن الحـقـيـقـة أن المجـانـين هـم الـعـقـلاء أو الـعـكـس، ونحن بـذلـك لا نحـبـذ الجـنـون ولـكـنـا نحـترمـه ونـبـحـث عـن الـعـدل والحـق والخير مـن خـلال دراسـة مـأسـاتـه.

وقـد حـاولـت أن أبحث عـن حـكـمـة الـيـوم فى حـديـثـى مـع أصـدقـائـى المـرضـى ووجـدتهـا فى كـل مـرة بـلا اسـتـثـنـاء، وحين كـنـت أعـجـز أن أراهـا، كـنـت أعـلـم أنى لم أفـهـم لـدرجـة كـافـيـة، أو أنـه - صـديـقـى المـريـض - لم يـعـانِ لـدرجـة كـافـيـة..

سـوف أحـاول فى هـذه الـلـقـطـات أن أعـرض بـعـض زوايـا مـن صـور الإنـسـان حين يـتـعـرى لـيـهـيـم عـلـى وجـهـه بـاحـثـاً عـن حـقـيـقـة ذاتـه، وإنى إذ أعـرض هـذه الـصـور الـتى لا تـصـف إنـسـانـا

بذاته، أرجو أن يقبل القارىء ابتداء صداقه أصدقائى، فهم أعز عندى من أن أعرض صورهم إلا على أصدقاء، رغم أنه لا توجد لقطة واحدة يمكن التعرف على صاحبها الحقيقى احتراما وعهداً.

****

قال أحد هؤلاء الأصدقاء، "الفتى" الذى اتضحت رؤيته واستقام على الطريق":

أمَا وقد انتهى بنا المطاف، فهلاّ حدثتنى عن بعض ماعلمتَ من أمور النفس وأحوالها، لعلى أتعلم منك ما لن أجده عند غيرك وربما نفعت به غيرى.

قال الحكيم:

- أما عن رأيتُه فهو كثير كثير، ليس أكثر منه إلا ما لم أره، أما ما علمته فهو أقل مما رأيت فليس كل ما رأيته علمته، كما أنه ليس كل ما علمته رأيته.. فكم يرى العالم - مهما علم - رؤيا لا يجد لها فى علمه تفسيرا، وكم يبحث عن حقيقة تصورها قانونا فلا يصادفها فيما يرى أبداً، وليس هذا نقصاً فى قدرته، ولا هو قصور فى علمه، ولكنها طبيعة العلم.. وتقلب صور الحقيقة، وما دام العلم ليس له نهاية - وخاصة فى هذه الأحوال - فالمجال يتسع لكل ما يقال.

أما أن نتعلم مما أقول: فهذا ما أراه جائزاً ولا أحسبه قاعدة يمكن إطلاقها، فأحوال النفس لا يتعلمها الإنسان من الكلام، وقوانينها لا يصدر بها أحكام، وعلينا أن نقيم الحقيقة- أو المعرفة التى نتصورها حقيقةَ "الآن" - بقدر ما تحتمل اللحظة الحاضرة من إدراك الأمور، بكل ما أتيح لنا من وسائل حالية. ولكن علينا أن نحمل أيضا تفتحا دائما لكل جديد، ولتكن التجربة هى الأصل فى كل حال.

وتجارب الإنسان الفرد لا يعدلها تجارب الغير، وإنما جُعلت معرفة تجارب الغير خيرا لجواز النفع منها لا للاقتداء بها، فالانسان هو ذاته بكل معالمها الخاصة، ولا بد أن يعرف نفسه فى هذه الصورة الفريدة.. وأن يحقق وجوده كوحدة مستقلة فى تفاعل دائم مع الدنيا الصاخبة بالناس والأشياء، ولابد أن يهتدى فى ذلك بما يتعلم ويعلـَم، ولكن عليه أن يذكر دائما أن الحقيقة الأساسية هى أنه "إنسان فرد ليس كمثله أحد آخر"، وأن وجوده جزء من وجود الآخرين، وأنه بغير تحقيق هذه الذات لن "يكون" شيئاً، ولا حتى فى نظر الآخرين.

وأما ما تسمعه منى ولا تجده عند غيرى، فأعلم - بُنَىّ - أنه ليس عندى جديد غريب، وأن الذى يستطيع أن يرى كما أرى، ويحس كما أحس فإنه قد يجد كل طبيعى غريب، وأيضا أن كل غريب طبيعى، ثم هو لابد سيجد مفتاح الحقيقة، ولعل

العثور على مفتاح الحقيقة هو الطريق الأول أو الأوحد للمعرفة، لأن الحقيقة ذاتها غير ثابتة ولا هى محدودة ولا محدّدة، وربما كان السعى إليها هو غاية تحقيقها فى نفس الوقت، فليس المهم أن ترى المنار الذى يضيء، ولكن المهم أن تمشى فى نوره، وليس ضروريا أن تصل إلى الشمس حتى تتمتع بضيائها ودفئها..، ولذلك فإنك مهما سمعت ووعيت فستجد أن ما سمعت هو القليل وأن ما ستلاقى بعد ذلك هو الكثير الذى لا تنتهى حكمته، ولا تبلى جدته.

وأما أن "ينفع حديثنا هذا غيرك" فهذا هو ما يدعونى إلى الاستجابة لمطلبك، لأن العلم الذى لا ينتفع به الناس لهو أمانة ضائعة، وخازنه كسارق الجوهرة الذى لا يستطيع بيعها، فيحبسها ويعيش فى فقره مع أوهام المطاردة، وخدعة امتلاك شىء ثمين وما هو بثمين.

على أن الكلام كالسكين ذى الحدين: قد يأتى منه الضرر من حيث ترجو به النفع، وبما أنه ليس هناك وسيلة للتفاهم أفضل من الألفاظ فى مجالنا هذا، فلابد من الحذر ونحن نرسل الكلام، ولا بد من الحرص وأنت تسمع الخبر، ولتأخذ منه ما تحس أنه وافق مكانا صالحا فى فكرك، ولا تقحم على نفسك ما لا ترتاح إليه طبيعتك، وبهذا ينتقى كل واحد من الحديث ما يصلح له أو يصلح به، لأنه ليست للتجارب قواعد ثابتة وإنما هى أمثلة تنفع أو لا تنفع، فإنك إنما تسمع منى جانباً من رؤيتى لكيان ما، فى لحظة ما.. ثم إن هذه الصور قد تصل إليك بإحساس حى يجعل إدراكها كواقع قائم أمر سهل ومفيد؛ أو هى قد تظل ملساء مسطحة لاتُدرك منها إلا بعد الصورة. وفى هذه الحالة فلا فائدة منها وما هى إلا رواية تتناقل مثل بعض القصص الجوفاء.. ، أما أن تنفع الناس بدورك، بما تسمع وتعيٍ، فإنك إنما تفعل ذلك إذا أدركت ما راق لك فعشتَه وتمثّلته؛ ثم حفظته ووعيته، ثم كان جزءا من كيانك ونفسك.. فإنه ينضح بالخير على غيرك، فإنما تنتشر الحكمة إذا كانت هى الحقيقة، وإنما تتأصل الحقيقة إذا اختلطت بالذات لتصبح إيمانا، ثم يكون الإيمان عملاً طبيعيا تلقائياً سلساً.

وأخيرا.. فإنى أحدثك اليوم لأنه كما قلت قد انتهى بنا المطاف فى تجربتك، ولو أن المطاف لم ينته لما كان لهذا الحديث مكان ولا معنى ولا فائدة، فإنما يقع الضرر من تناول القواعد العامة وكأنها الدواء الناجع لمرض بذاته، فلو أنك مازلت "الفتى المريض" لما كان لهذا الكلام جدوى، بل لكان السكوت عنه أبلغ وأجدى، فالعهد القديم بيننا قد انقطع، ولنتفق على أن يدور الحديث بين "الفتى" و"الحكيم" لا بين "المريض" و"الطبيب"، لأن هذا الموقف الأخير دور له أبعاده وظروفه وشروطه التى تختلف من فرد لآخر اختلاف بصمات اليد، بينما حديثنا هذا لا يعدوا أن يكون رؤية عامة قد يهدى من هم فى مفترق الطرق إذا رأوا فيه شيئا من أنفسهم، يشرح لهم أمسهم بتجاربه وأحداثه، ثم يحدد لهم حاضرهم، وقد يرسم لهم غدهم.

****

على أنى يا بنى لا أطمع فى الكثير، فلعلى بهذا الحديث قد ألقيتُ فى بحر الركود والظلام حجرا حاولت أن أشحنه بكل ما أحمل للانسان من حب، ومهما كان الحجر صغيرا فأملى أن تنزاح به دائرة صغيرة لتصبح دوائر متتابعة إلى غاية نأملها، دون أن نضطر لتحديدها بشكل حاسم مسبقا.

فاذا خرجتُ من هذا الحديث كله ببضع من الناس مثلك يا بنى، هزتهم الحقيقة فساروا على الطريق، أو إذا أثرتُ به بعض علامات الاستفهام أو التعجب عند بضعة عشرات آخرين يعقبها أنه "ربما"..، أو حتى إذا هيجتُ به الرفض للقديم والجديد معا عند بضعة مئات، إذا تم هذا أو شىء من هذا فقد حققت ما أردت.

كما أوصيك - بنى- ألا تتعجل الحكم على الأمور، فأنت لن تدرك أول الحديث إلا بآخره، لأنه حديث يكمل بعضه بعضا، فاسألنى يا بنى ما شئت وسأبحث لك فى جعبتى عما قد يشفى غليلك.

قال الفتى:

فاضرب لى مثل هذا الجيل - وكل جيل - حين يرفض ما هو كائن قبل أن يجد بديلا يصلح أن يكون.

قال الحكيم:

فاسمع منى بنى مأساة ذلك الشاب الذى تعثر وهو يرفض حتى كاد يتحطم وهو يبحث:

يحيى الرخاوى باريس 1968 - 1969

.

الثلاثـــــاء 07-06-2011

1376- الفـصـــــل الأول: الضيـــــــاع

اعتذار: لظروف شخصية (علمية!! أيضا) لم أستطع مواصلة كتاب "العلاج الجمعى" اليوم ولا "الأساس فى الطب النفسي" غداً، فقفز هذا الكتاب القديم الجديد ليحتل المساحة قبل أن أرجع فى كلامى، وأتوقف عن مواصلة نشره.

كتاب جديد (قديم)

عندما يتعرى الإنسان (2 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

الفصل الأول: الضياع

كان ذلك أمر غلام ولد كما يولد الناس فى هذه الأرض الطيبة: ففى ساعة متأخرة من ليلة شتاء أو قل فى ساعة مبكرة من صباح يوم تال - طبقا لموقفك من الزمن- ترددتْ بين جنبات ذلك البيت المتوسط فى كل شىء صيحات طفل أطلقت أمه سراحه إلى رحاب الدنيا، واستراحت فى هدوء عظيم، يحسبه الناس إعياء وما هو كذلك، فهى تنصت إلى هذا المخلوق الجديد بسعادة فطرية بالغة، فبرغم الجهد وبرغم كل شئ.. كان يخامرها شعور لم يصل إلى درجة الوعى بأنها أكملت عملا مجيدا

طوال أيام وليال عاشتها تسهم فى خلق وتكوين كائن حى جديد، ولعله شعور فريد تختص به المرأة الأم، ولعل هذا هو ما يميزها عن الرجل، ولعل هذا أيضا هو ما يدفع الرجل إلى محاولة المساواة بالمرأة (!) حين يحاول عملا أصيلا يعوض حرمانه من هذه القدرة الطبيعية على الخلق بمجرد الاحتواء، لعل..

قال الفتى:

- إذن فقد خرج صاحبنا إلى رحاب الدنيا مثل كل البشر.

قال الحكيم:

- نعم، ولكن رحاب الدنيا كانت أضيق من رحم أمه، فمنذ ملأ رئيته بالهواء، وملأ أذنى أمه ووجدانها بالصياح، ابتدأت عملية ملء رأسه بالأوهام، فها هو يـُفرض عليه أسلوب الحياة الجارى بتتابع وتصميم يلفانه ويعوقان حركته تماماً مثل اللفائف التى قيدت حريته بعد ولادته، فقد تم الانقضاض على كيانه بهذه الكوافيل والأوهام فى آن واحد، وكأنه ارتدى قميص الأكتاف الشهير، ويفسر الأهل هذه التلافيف "بخوفهم" عليه: من الجو مثلا، والجو.. هو الطبيعة، وهو لم يزل جزءا منها، والطبيعة هى مصدر الحياة وأصل التوازن، فكيف تحمِل هذه الطبيعة ابتداء تهديد الخطر. ولكن هل هم يخافون عليه فعلا أم يخافون منه؟ أليس فى هذا الزعم الأخير تفسير لهذا الانقضاض المزدوج بالكوافيل والأوهام جميعا؟ ولكن من أين يأتى الخطر من هذا المخلوق الضعيف الذى لم يتشكل بعد؟

ربما يكمن فى أنه "لم يتشكل بعد"، فى أنه مشروع إنسان لم يُصَغْ بعد مثلما صيغ أبواه ومجتمعه؟ أهو احتمال أن يتشكل بشكل مخالف هو الذى يبعث الخوف فى الجميع لأنه يهدد ضمنا أوهامهم التى عاشوا فى أمن سخفها - أو فى سخف أمنها- حتى ذلك الحين؟

أيكون هذا هو السبب الذى يجعلهم يسرعون بإدخاله فى نفس الجهاز ليخرج بنفس الأبعاد التى يعيشونها، وعلى نفس الهيئة؟

يبدو يا بنى أنه كل ذلك معاً.

فمن قبل أن يحس له بكيان ما، أخذوا يسارعون بإغراقه فى دوامة من التعويد، بعد التقييد، فمثلا هو يتعود على ذلك الشىء البارد الذى يلامس مقعدته فى مواعيد منظمة مع ما يصاحب ذلك أو يتناوب معه من تأنيب وهجر وهو يمارس وظيفة لا تختلف فى نظره عن الأكل والشرب، بل إن الأكل والشرب أيضا كانا يتحددان بساعة على الحائط يحترمون دقتها أكثر من احترامهم دقاته هو، فليصح أو تدق عنقه... فالساعة لم "تدق" بعد.

وتأتى سائر الأحكام على هذا النمط تماما، وهو يستسلم لكل ذلك، ويحقق بهذا رغبة والديه فى أن يكون نظيفاً ظريفاً، صالحاً "للعرض" على الزوار مع التحف التى على المناضد والصور التى على الحائط، والسجاد الذى على الأرض وسائر

المميزات التى تحدد نوع طبقتهم ومعالمها، وكانت نظافته وهدووه ضمن هذه المعالم المميزة فضلا عن أنه كان يقوم بوظيفة تبرير حياتهم التى لابد أنها لا معنى لها بدونه، و إلا لما أجابوا السائل -وربما فى ذلك أنفسهم- بأنهم إنما يعيشون من أجلهم (الأولاد)، وكأنهم بغير الأولاد ليس لهم حياة قائمة بذاتها، فلو أن لهم حياة وذوات مستقلة، لتركوا للأولاد حياتهم وذواتهم، ولكنهم يقنعون أنفسهم-ويتبادلون الإقناع مع الآخرين- أنهم يضحون فى سبيل الصغار.. فى حين أنهم يحتوونهم احتواء ليضمنوا لأنفسهم أمانا أو استمرارا.

وهكذا يتحمل صاحبنا ضياع والديه، كما يتحمل خوفهم ونقصهم، ويختلط الخوف بالوهم بالضياع ليصبح قالبا يصاغ فيه الأولاد، وهو قالب متين مضمون، يحفظ صاحبنا ويحافظ عليه.. يحافظ على حياته التى هى حياتهم التى هى "لا شيء" على قدر إدراكهم، أو قل على قدر عدم إدراكهم.

قال الفتى للحكيم:

- ولكنى أراك تصف الوالدين بلا رحمة.

قال الحكيم للفتى:

- بل أنا رحيم بهما قبل أولادهما، فإن المأساة فى أنهما "لا شيء" بإدراك أو بغيره، وهما فى خوف وحسن نية يحاولان أن يعددوا اللاشيء غير مدركين أن حاصل الضرب دائما هو لا شيء.

قال الفتى:

- ولكن الوالدين ليسا كل شيء.. فسرعان ما سيتكلم صاحبنا وينطلق ويعرف طريقه إلى العالم الأوسع.

قال الحكيم:

- نعم... ربما... وياليته فعل.

لقد كان خليقا به أن يجد القيود تخف عنه بعد أن أصبح ناطقا متحركا، فهو يستطيع التعبير عن نفسه فى المرحلة الجديدة، ولكن اللغة الجديدة فى صورة الألفاظ كانت عليه لا له، فقد سهلت سبيل تضييق الخناق، وبالتالى تحقيق الصياغة النموذجية "اجتماعيا" ولو عددت لك الأمثلة ما انتهى الحديث أبدا، ولكنى أعرض عليك بعض النماذج الرمزية لمعانى الألفاظ، فقد أصبح لفظ "الشارع" يعنى عنده "الموت تحت العجلات"، و"السلام" "قصف الرقبة"، و"الظلام" هو "الجان" و"القذارة" هى "ابن البواب"... إلى آخر ذلك القاموس الذى تعرفه، وهو يعيش كل لفظ بمعناه المفروض عليه فى استسلام من لا يملك إلا الاستسلام، ولا تزال حصيلته تزداد بمرور الأيام لينمو قاموس المعانى بسرعة فائقة ويشمل أبوابا وفصولا جديدة تزيد حبكة الصنعة الاجتماعية فلا بد بعد أن تزدحم الصفحات من أن تصنف وتقسم: ففى فصل العيب، باب الحرام -

مثلا - نجد ألفاظا تشير إلى أعضاء فى جسمه وأفكار فى رأسه، وعواطف فى صدره، وقد كانت تغلبه الحيرة، حتى وهو فى استسلام من لا يملك إلا الاستسلام، فيتساءل: لماذا خلقت هذه الأعضاء والعواطف ما دامت عيبا أو حراما؟

ويوضع فى رأسه أنها إنما خلقت لنخفيها، أو حتى لنحاربها، فيخجل وينكمش، ويستسلم أكثر.

قال الفتى للحكيم:

- ولكن هذا يحدث لكل الناس.

قال الحكيم:

- وربما كان هذا هو: مأساة كل الناس.

قال الفتى:

- ولكن يبدو أنه لا بديل لذلك.

قال الحكيم:

- ها نحن نحاول أن نجد البديل، إذ نتدارس الحكمة الملقاة على الطريق فى صورة شظايا النفوس المتفجرة بدل أن نجمعها لمجرد لصقها لنمنع الأذى عن أنفسنا.

قال الفتى:

- ولكن ماذا فى الشظايا المتناثرة من حكمة.

قال الحكيم:

- إن لبابها الفطرة.. وهى أظهر ما تكون فى الشظايا عنها فى الكيان المغلق المتكامل، والفطرة هى الحقيقة.. فالمعرفة.. فالحياة.

قال الفتى:

- ولكنه طريق صعب.

قال الحكيم:

- ولكن حياتنا تستحق كل صعب، إذا كان لنا أن نحياها، ونطورها.. وإلا فإن المصير كله ألم وضياع.. مثل ما حدث لصاحبنا.

قال الفتى:

- وكيف كان ذلك؟

قال الحكيم؟

- حمل صاحبنا قاموس الألفاظ بمعانيها الضخمة الفخمة، ومضى مكبلا بلفافات المجتمع وكوافيله يتحدث بلغة مفروضة

ليس من حقه أن يسأل عن مصدرها، ومضى فى سعيه على طريق أكثره ممهد رغم ما به من قلاقل، كان ممهداً لأنه قد سار عليه خلق كثيرون، ولا يعنى أنه مُمهِّدٌ أو أنه طريق الكثرة.. أنه طريق الصواب..، ولعل أسهل الطرق هى أسرعها توصيلا إلى الضلال.

قال الفتى:

- ولكن أى قلاقل فى الطريق ما دام ممهدا.

قال الحكيم:

- خُذْ مثلا، حين ثارت وظائفه الحيوية فى سن المراهقة أدخلت فى القاموس الثقيل فى "باب العيب فصل الحرام": وذلك أن غدده الصماء فى فورة إفرازها لهذه الهرمونات "العيب" لم يكن عندها خبر مسبق بما أحدثه الوالدان والأقربون فى مشاعره، فتقوم معركة عنيفة فيها آلام وتأنيب وتهديد وتكتم، ومن عجب أنه فى هذه المعركة كان يتبنى المعانى المحشورة فى رأسه، ويستعملها ضد الثورة العضوية الهرمونية، وكان بالنسبة لأعضائه مثلما كان الوالدان بالنسبة له سابقا، وتهدأ المعركة ظاهريا وتزداد السلاسل ثقلا والهدوء ظهوراً، ويصبح مثالا رائعاً "يُحتذى".

ولا زال الأهل وغيرهم يعتبرونه من أجمل التحف التى يمتلكونها وأثمنها، ويعزون صفاته الممتازة: إما إلى طبعهم الذى أورثوه إياه، وإما إلى طرقهم "الحديثة" فى التربية والتوجيه، والجميع يتحدثون عنه - لا ... معه-، وهم يتمنون، بين أنفسهم أو علانية، اقتناء مثله، أو صناعة تحفة على شاكلته.

****

وفى وسط هذا النجاح، والهدوء، والتباهى، تبدأ التجربة.

قال الفتى:

- فهو المرض.

قال الحكيم:

- أو هو بداية محاولة طرق باب طريق آخر للمعرفة

قال الفتى:

- فهى الصحة

قال الحكيم:

- لو أكمل الطريق...

ففى ذات يوم، أو قل ذات صباح بعد ليلة طويلة سوداء مثل ليال كثيرة فى الفترة الأخيرة، قام صاحبنا وفى رأسه دوار

وفى عينيه زيغ، وفى أذنيه طنين، وكان للطنين وقع خاص، وحين ركز صاحبنا انتباهه سمع شيئا كالهمس آت من بعيد، وسرعان ما أخذ يقترب ويعلو ويتميز، حتى كأنه يقول شيئا ما.. نعم: إنه يكاد يتميز وسط الضجة الصاخبة، نعم إنه يسمعه يزداد وضوحا.. إن الهمس أصبح كلاما.... أصبح لفظا واضحا، إنه يقول **"لا"** وتلفت حوله فى ذعر ليقع نظره على الحائط فيراها مكتوبة بين النقوش **"لا"**، ويقوم مذهولا يطرد عن نفسه آثار النوم ليجد نعليه وقد تقاصا بجوار السرير على هيئة **"لا"**، ويحاول أن يقول إنه الحلم، أو ما بعد الحلم، ويحاول أن يغمض عينيه وأذنيه وفكره جميعاً، ولكنها كانت "لا" ثابتة واضحة أكيدة لم تكن مجرد اعتراض أو احتجاج عابر، كانت رفضا راسخا عنيدا، ليس مثل عصيان الطفولة أو عناد الصبية، ولا هى مثل معركة المراهقة حيث المعارضة والتطويع يسيران معا فى نفس الوقت، ولكنها كانت شيئا جديدا واثقا أكيدا، وأخذ يتحسس صدره يحاول أن يخفف ضيقه وضجره، فإذا به يعثر على ذلك السفر الضخم رازحا عليه كالهم الثقيل، إنه قاموس الألفاظ... حصيلة العمر... مفسر المعانى العظيم "المرشد الاجتماعى... فى حسن المساعى".

وهو الذى قال لنفسه هذه المرة: "لا"... لابد من تمزيقه إلى غير رجعة، وحين أخذ يمزقه صفحة صفحة وهو يعجب كيف تحمله كل هذا الزمن، أحس بالثقل ينزاح ليترك راحة شاملة، وعاد يتحسس موضعه ليطمئن إلى اختفائه فوجد فراغا هائلا، واطمأن... فالفراغ يعنى أنه زال فعلا، ولكن ما باله يحس بالفراغ يمتد إلى سائر أجزاء نفسه؟ بل جسده، ثم ما هذا التمزق؟ لماذا يحس هو ذاته بألم التمزق مع فراغ كيانه؟ وتساءل: هل مزق قاموس الألفاظ أم مزق ذاته؟ هل أزاح الثقل المعوق أم أزاح كيانه؟ أين هو وسط الحطام؟

لقد كان يريد أن يتخلص من الألفاظ فقط، فلماذا ذهبت المعانى معها؟ هل معنى ذلك أنه لم يعد هناك معنى لأى شىء؟ إنه يكره الألفاظ ولكنه لا غنى له عن المعانى، كيف يعيش بلا معنى ولكن كيف يحتفظ بالمعانى دون الألفاظ؟ هل لا بد أن تصاغ المعانى فى ألفاظ؟ ولكن الألفاظ ارتبطت بأشياء مفروضه فكيف تبقى- إن كان لا بد لها أن تبقى- دون ما يصاحبها من فرض وقهر وخوف وأوهام؟ هل يحتفظ بالألفاظ دون مصاحباتها؟ ولكن مصاحباتها هى التى جعلت لها معان بذاتها، إن اللفظ هو فى نفس اللحظة معناه، هل يمكن تفريغه ثم ملؤه من جديد؟

ووجد أنه لا يستطيع أن يحتفظ بالمعانى دون ألفاظ.

ولا يستطيع أن يحتفظ بالألفاظ دون معناها المفروض.

ووجد أنه لابد أن تبقى الألفاظ حتى يبحث لها عن معان جديدة، ولكن إلى أن تأتى المعانى الجديدة... ماذا يفعل؟ وكيف تأتى المعانى الجديدة؟

كيف يتلاشى وهو يبحث عن الوضوح؟

كيف تضيع معالمه وهو يحاول تحديد ذاته؟ أو تجديد ذاته؟

ووجد نفسه حلقة وسط حلقات متشابهة تلف بسرعة فائقه فى تداخل عجيب، ووجد الأشياء تختلط ببعضها... ودخل التجربة ليعيش الألم والضياع.

قال الفتى:

- وهل قال الناس عنه أنه مريض حينذاك.

وقال الحكيم:

- ليس بعد، الناس لا يهمهم ما فى صدور الناس بقدر ما يهمهم ما يظهر منهم فى مجالات احتكاكاتهم معهم، فلو أن كل الأفكار التى يقولون عنها أنها أفكار شاذة أو حتى مجنونة ظلت فى عقل صاحبها فإنهم لا يهتمون بها، ولا يعتبرونها خللا حتى ولوتأكدوا من وجودها، ولكن حين يطلقها صاحبها عليهم، حين تهددهم بكشف زيفهم، حين يشعرون فيها إغراء مواجهة حقيقتهم التى هربوا منها وراء جدران قيم تحميهم بقدر ما تحجب عنهم الرؤية، حينئذ فقط يبدأون فى الاعتراض والامتعاض، ثم التجمع والتحفز، ثم الهجوم والعدوان، وتنطلق صفات المرض، ونعوت الخبل على مصدر التهديد ذاك، وتخرج من القاموس ألفاظ التخريف والشذوذ والهوس والجنون.

ولم يكن صاحبنا حتى هذه اللحظة قد أعلن شيئا يخافون منه، كان مازال يناجى نفسه:

"إذا كان هذا زيف كله... فأين الصواب؟".

وبنفس متمزقة مع قاموس الألفاظ حاول أن يلم أجزاءه ليدبر أمره، فلم يستطعْ، وسكت، وطال سكوته، ولم يكن هذا غريبا عليهم منه، ألم يكن من طبعه الهدوء، فلابد أنه زاد بالسن هدوءاً... وعقلا (!)، والهدوء عند واضعى القاموس ومؤرخى الصفات من علامات العقل الكامل. ثم جاء النذير:

انصرف صاحبنا عن الدرس والاجتهاد المعهود فيه، فابتدأ الانزعاج مع الدهشة، وتصوروا أنها عين حسود حاقد. ألم يكن تحفة غالية تعرض دون إذنها على الحبيب وغير الحبيب، ألم يكن وجهه يخطف الأبصار فى صالة العرض الاجتماعى؟ لماذا خفت البريق؟

حاولوا أن يزيحوا التراب حتى تزهو التحفة مرة ثانية أمامهم وأمام الضيوف، ولكنهم وجدوا أن الانطفاء ليس نتيجة تراب يزاح، لقد ذهب البريق فعلا من الجوهرة، هل يعقل أن تكون جوهرة مزيفة وقد خدعوا فيها؟ وحاولوا أن يعزوا ما كان لسبب من الأسباب غير الأسباب التى كانت مدعاة فخرهم حين كان موضع فخرهم، فهم السبب فى الوهج والأصالة والجمال... طالما هناك وهج وأصالة وجمال، وغيرهم هو السبب فى غير ذلك، وهم لن يعدموا أن يجدوا سببا يفسر استبدال نظرات

الإعجاب بمصمصة الشفاه، فبعد الحسد يمكن اتهام المدرسة، أو إخوان السوء أو حتى العادة السرية - قالوها فى همس وتردد.

قال الفتى:

- وهل قالوا عنه حينئذ أنه مريض؟

قال الحكيم:

- لم يكن الأمر سهلا عليهم كما تظن، فلو أن حمى أصابته لأعلنوا النبأ بلا توان لأن السبب معروف، وهو خارج عن إرادتهم قد يجلب الشفقة أكثر مما يجلب اللوم، ولكنه بالنسبة لهذه الأمراض شئ آخر. فإن خشية اللوم - ولو حتى لوم أنفسهم - يجعلهم يترددون ويتلكأون فى إعلان ما يلاحظون، أو هم ينكرونه حتى يفرض نفسه عليهم فرضا.

قال الفتى:

- وكيف فرض نفسه عليهم حتى اعترفوا به.

قال الحكيم:

- تجمد صاحبنا عند **"لا"** وأصبحت تلاحقه فى أفكاره ومشاعره جميعاً، ووقف عندها كل شيء... أو قل ذهبت هى بكل شيء حتى ما يعتبره الناس بديهيا.

وذات يوم جمع صاحبنا شتات نفسه وذهب إلى والده، وكان هذا ممسكا بمجلة دورية، وقد تمدد على مقعد طويل عريض فى شمس يوم دافئ من أيام شتاءٍ ما، وكان يجتر الكلمات بعينيه فى ذات الوقت التى تحاول معدته أن تقوم بالواجب إزاء الحمل الثقيل الذى ألقاه إليها من وقت قصير، وحين خف العمل الهضمى قليلا وصعدت بعض الدماء إلى الرأس، أحس أنه يستطيع التفكير بدرجة تسمح له بالانتقال إلى الصفحة الأخيرة من المجلة، حيث تكمن مسألة من مسائل الكلمات المتقاطعة، وانهمك يبحث عن كلمة تصلح للعمود الرأسى والأفقى فى آن واحد، وفى اللحظة التى شعر فيها أنه "وجدها" كان أنف صاحبنا فوق رأسه، وحين تنهد الولد تنهيدة عظيمة... فوجيء ببقية الرأس تطل عليه من أعلى كتفيه، وجهٌ ثابت النظرات جامد التعبير، وخرجت منه **"لا"** وكأنها خرجت من جوفه مباشرة، فقد كانت شفتاه لا تزالان شبه مضمومتين؛ وقال الوالد فى تحد وانتصار:

- بل "نعم"، وأكمل: لأن الكلمة هى "الرباط"، وهى تكمل العامود الرأسى فهى اسم البلد العربى، وتتناسق مع العمود الأفقى حيث "رأس الحكمة" اسم الشاطئ بمرسى مطروح، وما إن سمع صاحبنا ألفاظ "الرباط" و"رأس الحكمة" حتى أحس بالرفض يتملك كل خلية من خلاياه؛ الرباط هو القيد الذى يكاد يخنقه، أما الحكمة التى علماه إياها فهى الخوف بلا حدود ولا سبب.

وقال وكأنه يتكلم من بطنه ثانيا: **لا.**

وأخذ الوالد يعيد دفاعه متحمسا أشد الحماس وأبلغه، ولكنه لم يجد استجابة لكل هذا الدفاع والحماس و سأل ابنه فى تحد:

- إذن ماذا؟ إذا لم تكن هى "الرباط" فما رأيك؟

قال صاحبنا:

- رأيي أنى لست أنا.

ورد الوالد بأن هذا ليس وقت المزاح، ولكنه لم يكن مطمئنا لما يدور.. فهو لم يتعود من ابنه هذا العبث الجامد، ونظر إلى الوجه ملياً يداخله شعور بالتوجس، لقد كان وجها ممسوحا أملس لم يتبين فيه ملامحه العادية، ففيما عدا النظرة العميقة الثابتة التى تطل من العينين لم يعد يميز الأنف من الصدغين من الشفتين من غيرها، لقد كان أمامه عينان تطلان من شيء مسطح أملس من اللحم الشاحب كالموت، وحين عاود المحاولة لتخليق الوجه أمامه من هذه الكتلة الملساء كاد يرى الموت نفسه يزحف إليه، وانصرف صاحبنا وهو ينتفض ظاهراً وباطناً.

وبدا للوالد أن الأمر جد خطير.

****

قال الطبيب الباطنى:

- لا حمى ولا يحزنون لعله إرهاق الاستذكار أو قلة النوم، أنا لا أجد مبررا لكل هذا الانزعاج.

قال الوالد:

- ولكنه يقول:

ولم يكمل.

قال الطبيب:

- يقول ماذا؟.. ماذا يقول؟

قال الوالد:

- يقول **"لا"**

ولكن الوالد أدرك لتوه أنه تخطى الحدود التى اتفق عليها مع زوجته، وكما توقع... فقد كانت سهام نظراتها فى حلقه، وبطريقة ما انحرف الحديث عن مجراه.

وبعد مناقشة "ثلاثية" فى الأسعار والسياسة والقسمة والنصيب، انتهى فنجان القهوة.

وانصرف الطبيب.

****

قال الفتى:

- فهو المرض.

قال الحكيم:

- هو الفراغ بديلا عن الحشو الفارغ، وهو الرفض الكامل بديلا عن القبول الكامل. ثم امتلأ الفراغ بكتلة هائلة من المعانى الفطرية غير المميزة. كتلة لزجة ليس فيها تمييز وليس لها معالم، وبدا فى تصرفاته وديعا كالطفل.. حين يفرغ رأسه من كل شىء إلا الطبيعة المتصلة بأصل الوجود، ثم شابا يائسا حين يضيق عليه الخناق ويطالب بالسير فى الموكب القديم، ثم ثورا هائجا حين يتصارع مع ذاته.. أو مع الظلال التى تملؤها، الشىء الذى لم يتغير هو القوة الداخلية الدافعة له كى يحاول أن يجد شيئا.. وحتى يجد "شيئا" لا بد أن يكون هو شىء أولا، كانت هذه القوة -زمان- موجهة إلى الدرس والتحصيل، وأصبح ليجدها موجهة إلى الحقيقة داخل نفسه، ونفسه تكاد تتمزق تحت وطأة الضياع والضغط معا، فتكاد القوة تصبح عامل تحطيم لا دافع توجيه.

وحاول فى أوقات تصالحه مع أجزائه وتجميعه لها بجهد حاول أن يجد ألفاظا جديدة للمعانى القديمة، وأيضا: راح يبحث عن المعانى الحقيقية للألفاظ القديمة..

وحين بدأ يتحدث عن ذلك قالوا هم هذه المرة أنْ، **"لا"** وجاؤوا به إلىّ.

وهكذا رأيت صاحبنا لأول مرة.

****

جاء متردداً خائفاً من كل جديد أو قل من كل قديم، فما دمتُ من الطاقم الانسانى الاجتماعى التقليدى، فليس هناك فى الأمر جديد، فأنا أحمل نفس الخطر الذى يحمله الآخرون "فرض المعانى فى قالب ألفاظ فارغة لتصنع عقولا جوفاء" وأنا مثل الآخرين لأنى أعيش لهم ومعهم وبهم، ألستُ أرتزق من مسايرة أوهامهم؟ هكذا كان يفكر.

وبعد رواية الوالد المنزعج المسكين، والأم الولهى المشتتة عن "الحال"، وما كان مما "لا يصح" "ولا ينبغي"، ولا "يجوز" دخل هو زانغاً ذاهلا، محصنا باللامبالاة، شاهراً حوله أسلحة الشك المضادة للواقع الذى رفضه.

وفجأة سألنى عما ألبس حول عنقى.

قلت:

- رباط عنق

فضحك.

فضحكت.

وأحس أنى فهمتُ لماذا ضحك.

وأحسست أنه فهمَ أنى فهمتُ، إذن: فمازال هناك احتمال أن يوجد من يفهم ما فيه.. ولكن سرعان ما ثارت الأسلحة المضادة وأطلق نظرة حذرة طمست الطريق الذى انفتح بيننا، وتوقف الاتصال الذى ظل لحظة من زمان.

والتفت إلى والده الذى بدا عليه الحرج فجعل يعتذر بأن لابنه أسئلة لا معنى لها، ورفضت الاعتذار علانية وأعلنت أنه **ربما**: "نحن الذين لا نفهمها".

واستأذنت أن يدَعونا معاً، وخرجا وهما مترددان، وزاد تحوصل صاحبنا فى قوقعة الشك واللامبالاة،

قلت:

- وبعد؟
- إذن ماذا؟
- نعم ماذا؟
- أنت تتصور أنك تعلم.. كل شىء
- بل أحاول أن أ تعلـَّم.. أى شىء
- تتعلم فىّ؟
- بل أتعلم منك
- ماذا ستجد فى الفراغ؟
- الفطرة التى تملأ الفراغ... أصل كل شىء
- لا بد أن يكون هناك شىء ليكون هناك أصل
- ولابد أن يكون هناك "أصل" ليكون هناك "شىء"

سكتَ قليلا، ثم قال:

- وهل تبقّى شىء بعد أن تحطم كل شىء
- لابد أن نصنع من القديم جديدا...هذا هو الطريق
- وهل هناك جديد
- كل قديم جديد... ما دامت الحياة تسير
- ولكنها عندى لم تعد تسير
- بل أنت فى "محطة" تتأهب فيها للمسير
- يبدو أنك تحاول أن تفهم

- لنبدأ من الصفر

- ولكنى أنا الصفر ذاته، حين يصبح لا معنى لأى شىء، حين تفقد الألفاظ دلالاتها، حين تصبح العواطف فجة فجاجة الجبال والمحيط.... يضيع الطريق.. ويختلط كل شىء بكل شىء.

- فلنحاول أن نرى من حيث نحن، ونعرف من أين، حتى نعرف إلى أين.

استمر فى نظرته وكاد يصمت ولكنه قال فجأة:

- إذا كان الظلام... كان الخوف، وإذا كان الخوف كانت الطاعة... وإذا كانت الطاعة فى ظلام كان الضياع، وإذا كان الضياع كانت النهاية، وآه لو صحوتَ قبل نهاية النهاية... آه لو رأيت الموت وهو يزحف إليك.

- المهم أن يوجد من يفهم ويحس، أن يوجد طريق... ورفيق

- فأنت تدعى الفهم

- بل أحاوله

- ولكنك مثل الآخرين

- لا أختلف كثيرا ولكن...

- ولكن ماذا؟

- ألا تحس بهذه الـــ "لكن"

- أنا لا أحس بشىء ولا أفهم شيئا ولا أريد شيئا غير حريتى، أنا سجين الألفاظ. لن أستعملها بعد ذلك... سوف ألزم الصمت. فلننه الحديث.

- فلننته منه أولاً.

- وماذا تعنى هذه الـــ.. "لكن"؟

- إننا نحس بنبض الألفاظ دون حاجة إلى تعريفها بألفاظ أخرى ربما زادتها غموضا، بل إننا قد لا نحتاج إلى ألفاظ كثيرة إذا شعرنا بنبض القليل منها.

- وهل للألفاظ نبض؟

- هو نبض الحياة... إذا صدقت.

- وهل للحياة نبض؟

- هو نبض الحقيقة.

- وهل هناك حقيقة؟

- هناك طريق إلى الحقيقة

- وهل نصل؟

- لا أعرف، ولكنى آمل... المهم ألا نخاف السير.. إنما علينا أن نخاف الوقوف

- فما الداعى.. أصلا

- ما أنت فيه: هذه القوة غير المُوجهة لابد أن تـُوجه

- كفى تـُوجيها

- ولكنك أنت الذى ستوجهها وإلا انفجرت فيك.

- ولكن أين أنا الذى سيوجـِّـه، فلتقم القيامة.

- ولكنها لا تقوم الآن... ولابد أن نصنع شيئا لما أنت فيه.

- وما الذى أنا فيه؟ أنا صفر داخل كرة من الفراغ لا جدار لها.

- ولكنك تحس بهذا.

- أنا كتلة من التداخل، أنا الفراغ مليء بالضياع، أنا هو أنا الذى هو لست أنا.

- فلابد من إعادة التوازن

عادت إلى وجهه نظرة التوجس مترددة وقال:

- آه...دخلنا فى الاتزان والتوازن، والتعقل والأصول و الكافولة فالسلاسل. "والذى يصح والذى لا يصح" أنت لا تفترق عنهم

- لا أختلف كثيرا "ولكن"

- فما هذا الذى حول عنقك؟

- أنت تعرف

- ولماذا لا تضعه حول رأسك؟

فضحكت

فضحك

وعاد الطريق الذى كاد ينطمس للظهور، وقبل أن يختفى وراء دخان الشك مرة أخرى... قلت:

- هل نتفق؟

- على ماذا؟

- على رفقة الطريق

- لن أخسر شيئا.. فليس عندى شىء أخسره

- لكن عندك شيئا تكسب

- مـاذا يـا تُـرى ؟

- هذه الـقـوة المـهـددة.. لـو تجمعت هى كل شئ

- كـنـت دائـمـا أحس بها أقـوى مما يظنون، كـانـوا يـوجـهـونها دون إرادتـى كـان هدفـهـم أن يـعـلـمـونى لـيـتـبـاهـوا بى أمـام أصدقـائـهـم وأعدائـهـم على حد سـواء كـانـت قـوة أرقـام ومسابـقـات كـانـت طريـقـهـم لـلـزيـادة بـغـير هدف. زيـادة المجموع فى الـدراسة، زيـادة الـنـقـود، زيـادة الـزيـادة، كـنـت كـالـسجادة - فى حجرة المقابـلـة - يـزيـد قـدرهـا بـزيـادة عدد عقدهـا، وتـزيـد قـيـمـتـهـا بـزيـادة الـدهس عليـهـا، وهى فى الـنـهـايـة رمـز لـطـبـقـتـهـم ودلـيـل ذكـائـهـم - هذه الـقـوة كـانـت لـتـجـعـلـنى تـلـمـيـذا مجتهدا، ومـوظـفـا نجـيـبـا ورئـيـسـا مـهـيـبـا، ثم شـيـخـا محطما وجثـه مـنـسـيـة، ولـكـن هـذه الـقـوة كـانـت أكبر مما يحسبـون، ومـن شـدتهـا دخـلـتُ المـنـطـقـة المحظورة، وأكـلـت الـفـاكـهـة المحرمـة، وحين قـلـت "لا" قـامـت الـقـيـامـة.

قـلـت:

- لـيـس بـعـد

- هى الآن قـوة مشـتـتـة ضـائـعـة بـلا فـاعـلـيـة، لـقـد اسـتـهـلـكـتْـهـا عـمـلـيـة الـرفـض والـتـحطيم.. حين رفـضـت واقـعـى حطمت فـيـمـا حطمت ذاتـى، وحين عـدت أبحث عنـهـا وجـدت حلـقـات الـفـراغ وأكـوام الـتـكـاثـف، قـد أشعر بهزة هـنـا ورعـشـة هـنـاك ولـكـنـهـا تـنـزلـق فى تـشـتـت عجيب

- ولـكـنـهـا مـتـجـددة دائـمـا... هذه طبيعتـهـا

- أنـا لم أعد أحس بـشـئ غير الـضـيـاع

- ولـكـن هـذا لا يـعـنى أنـه لـيـس هـنـاك شئ

- إذا كـان هـنـاك شـئ آخر فـلـمـاذا لا أحس بـه

- سوف يـتـجـمـع. ثم تحس بـه ثم تـنـطـلـق... فـقـط لابـد أن نـعـرف من أيـن وإلى أيـن.

- مـاذا يـنـطـلـق؟

- أنـت

- ولـكـنى لـسـت أنـا، لـقـد كـنـت كـمـا أرادوا، وكـان الـدفـع فى عكس اتجاه الـطـبـيـعـة، وحين وقـع الـصـدام تحطم كـل شـئ وأصيب الجميع بـشـظـايـاى.

- ولـكـنـك "مـازلـت"

- لم يـبـقـى إلا المسخ المـزيـّـف

- وراء الـزيـف: أصالـتـك "أنـت"

- كـان مـشـروع إنـسـان لم "يـصـبـح" بـعـد

- بل "يصبح"

- وكيف أُصبح بعد ما تمزقت

- بأن تحس أنك أنت، وأنك لست وحدك

قال ولكنى وحدى، بل يا ليتهم تركونى وحدى.. فلا تخدعنى أنت أيضا

- فلنحاول

- ولكنى خائف

- من ماذا؟

- من أن تعلمنى ألفاظا جديدة لا معنى لها

- بعد هذه التجربة لا يستطيع أحد أن يعلمك إلا ما تريد

- ولكنى لا أعرف ماذا أريد

- تريد أن "تكون" ثم "تصبح"

- ما أقسى التمزق والضياع

- ليس لطريق المراجعة والبناء بديل

- لماذا لا تدعنى فى هذا الفراغ بلا حدود

- لأنه "ما أقسى التمزق والضياع"

وهنا صاح بأعلى صوته:

- آه... آه

وحين دخل والده على صياحه ارتدى الشاب قناع اللامبالاة وعاد وجهه كتلة ملساء من اللحم البارد تطل منها نظرة فيها شعاع خافت قد يلمع من بعيد أحيانا، ثم ينطفئ.

وانصرف الجميع على موعد

ولكنه قبل أن يخرج التفت إلىّ فجأة ليقول:

"لا تكن واثقا من نفسك هكذا".

****

قال الفتى للحكيم:

- لقد كان على حافة الهاوية

قال الحكيم:

- أو كان على حافة الانطلاق، فهما حافتان متقاربتان على كل حال وكثيراً ما يحدث الانطلاق حتى بعد التردى فى الهاوية، فالقوة الدافعة قادرة متجددة ابدا

قال الفتى:

- ولكن ما هذه القوة التى تتحدث عنها وكأنها كل شىء فى الإنسان: الخير والشر، الانطلاق والتحطيم، الخلق والجنون

قال الحكيم:

- إنها قوة الإنسان الفطرية التى يطور بها ذاته وجنسه جميعاً

قال الفتى:

- ولكنها كثيرا ما تنزلق بنا إلى دائرة مغلقة أو طريق خطر.

قال الحكيم:

- ولهذا لا بد أن نفهم طبيعتها واحتمالات مسارها، وتوجهات مداراتها.

قال الفتى:

- فما هى طبيعتها واحتمالات توجهها

قال الحكيم:

- أما طبيعتها فهى قوة كل كائن حى. وهى متطورة وبناءة ما وجدت إلى ذلك سبيلا. وهى فى الإنسان أكثر قوة وتميزا، أما احتمال مساراتها فهذا يتوقف على أشياء وأشياء.

قال الفتى:

- مثل ماذا؟

قال الحكيم:

- مثل لزوجة المجتمع أو زيف الهدف

قال الفتى:

- فحدثنى عن شىء من هذا أو ذاك أو عنهما معا.

- قال الحكيم:

- أما حديث الحياة اللزجة فهو حديث "المحترم" الذى التصق بكل شئ فالتصق به كل شئ فعاش كـ"لاشىء".

قال الفتى:

وكيف كان ذلك؟

الإربعـــــاء 08-06-2011

1377-الفصـــل الثانـــــى: كرســـى علـــى عجـــل

اعتذار: مرة أخرى لنفس الظروف الشخصية (العلمية!! أيضا) لم أستطع مواصلة كتاب "الأساس فى الطب النفسى" كما ذكرت أمس.

فنواصل الكتاب القديم الجديد ليحتل المساحة قبل أن أرجع فى كلامى، وأتوقف عن مواصلة نشره.

كتاب جديد (قديم)

عندما يتعرى الإنسان (3 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

الفصل الثانى : كرسى على عجل

قال الحكيم:

- لا يولد حضرة المحترم على هذه الأرض هكذا تماما، فالفطرة لا تعرف هذا الاحترام، الفطرة هى الجمال ومخالفتها قبح، والجمال هو الإنسان كما هو دون تشويه، والقبح هو مسخ الطبيعة السهلة، أما ما عدا ذلك من مقاييس فنحن الذين وضعناها ثم ألصقناها على أقفيتنا، وعلى وجوه الآخرين مثل أرقام العربات. فقد ولد هذا الرجل مثله مثل كل الناس عاريا إلا من سوائل أمه، ولكنه حين شب عن الطوق وأصبح شابا يافعا يحمل شهادة متواضعة ويأخذ مرتبا ضئيلا تغير الحال، ودخل مرحلة جديدة تماماً.

تركه أهله حيث استطاعوا أن يوصلوه، أو لعله هو الذى تركهم حين قدر على ذلك، وعجزوا هم عن أكثر من ذلك، وما كانوا يستطيعون إلا ذلك، يكفيهم أنه أحسن منهم "اجتماعيا": يلبس حلة ورباط عنق وينادى "بالأستاذ"، كل هذا جديد على الوالدين- الأسطى وزوجه- وهما به راضيان.

وجد الشاب نفسه فى وضع جديد، أصعب ما فيه هو الاختيار، وتساءل كيف يصنع ذاته انطلاقا من هذه البداية الجافة، كان عليه أن يكمل الطريق ولكن.. إلى أين؟

نظر فى الناس وفى نفسه فوجد أنه يمكنه أن يصنف البشر بمقياس شديد الأهمية مقياس "الاحترام" (الظاهر)، وهو مقياس فرضته عليه بيئته منذ رأى التغيير الذى طرأ عليهم نحوه حين ارتدى حلة ورباط عنق.. حتى "قهوة المعلم زلط" التى كان يجلس عليها طالبا بجلباب أو "قبقاب"،" أو بهما معاً، وناسها هم ذات الناس، تغيرت نظرتهم له، وبذا أيقن ان "الأستاذ" ذا الحلة. غير "الواد" ابن الأسطى وقال: من هنا... أبدأ.

فالمقياس الأول الذى يقاس به الناس- فى تجربته- هو هذا الاحترام، وهو مقياس صعب، لأنه تختلف قراءته باختلاف اتجاه العينين، هل تنظران إلى الداخل أم إلى الخارج.

قال الفتى للحكيم:

- ولكن كيف تختلف المعايير والصفة واحدة.

قال الحكيم:

- فاعلم يابنى أن الناس فى هذا السبيل أحد أربعة.

محترم فى نظر نفسه غير محترم فى نظر الناس، وهذا قد يقولون عنه شاذ أو عبقرى أو ثائر أو حتى مجنون.

ومحترم فى نظر الناس وكأنه كذلك فى نظر نفسه وهذا هو الذى يسمونه "الواصل الناجح" وهو يسمى نفسه "الناصح الفالح".

ومحترم فى نظر الناس وليس فى نظر نفسه، وهذا هو الناجح الذى لم يخدعه النجاح أو الوصول فهو ما زال باحثا عن شيء آخر يبرر به حياته ووجوده واستمراره.

وغير محترم لا فى نظر نفسه ولا فى نظر الناس، وهذا هو المتشرد أو المهرج أو هما معاً.

قال الفتى:

- ولكنى أراها صورة محددة أكثر من اللازم، قاتمة أكثر من الواقع، فما هو الصواب، وسط كل هذه التصانيف.

قال الحكيم:

- نحن لا نتحدث بنّى عن الصواب والخطأ بقدر ما نتحدث عن

الحياة كما هى حتى لو كانت كلها خطأ، كما أن هذا التحديد لا يعنى واقعاً مرسوماً بالحساب الدقيق، بقدر ما يعنى نماذج يتراوح الناس بينها جميعاً وإن لم يتصفوا بأحدها وصفاً يطابق كل التفاصيل، ثم إننا نتكلم عن صفة واحدة من الصفات لا يتحدد بقيمتها الإنسان، فهى بـــُعد واحد تكمله أبعاد، وقد تأخذ صفة من الصفات أكثر من حقها وتأثيرها عند أحد الناس وتأخذ أخرى نفس المكانة عند آخر، فنحن إذ نركز على "الاحترام" هنا إنما نحكى حيرة إنسان بين رأيه الخاص فى نفسه ورأى الآخرين فيه، حينما يعتنى بالمظهر دون الجوهر.

قال الفتى:

- وكيف كان كذلك؟

قال الحكيم:

- تحير صديقنا أشد الحيرة بين هذه الأصناف جميعاً رغم أنه لم ير أبعادها تماماً، فقد كان فى أول الطريق، وراجع نفسه ونظر فى أمره وأمرهم، مرة ومرة، فأحس أن هذه الصفة تبدأ منهم "هم"، هم الذين اخترعوها، ووضعوا أبعادها، وحبكوا أطرافها، ثم ألبسوها من شاءوا، وخلعوها عمن أرادوا، هم الذين غيروا معاملتهم له حين تغير مظهره، هم الذين فرضوا عليه تغيير تصرفاته لمجرد أنه ارتدى الحلة ولبس اللقب.. فطبيعى أن يفكر فى أن يضعهم فى الاعتبار الأول.. أن يكسب احترامهم.. ثم يكون احترامه لنفسه مستمدا من ذلك ماداموا هم أصل هذه الصفة وأصحاب السبق فى صنعها، وأصحاب الحق فى منحها أو منعها.

قال الفتى:

- إذن فقد قرر أن يكتسب احترام الناس أولا، ليحترم نفسه كذلك، وكأنه أراد الاثنين معا.

قال الحكيم:

- نعم، ولكنه لم يجد الطريق سهلا كما تصور، فلكى يحترمه الناس كما ينبغى لابد أن يرضيهم أو يُرهبهم، ولكى يحترم نفسه - بينه وبين نفسه- لا بد أن يفعل ما يقتنع به وهو لا يمكن أن يفعل ما يقتنع به، وفى نفس الوقت يرضى الناس ويُرهبهم فى آن واحد، **قال لنفسه:** لعل الاحترام يأتى على مراحل، ما دام فى الأمر تناقض أو تعارض، وقال: فلأحصل على احترام الناس، ثم أرى ماذا يكون من أمرى بعد ذلك.

وتساءل: كيف يحترم الناسُ الناسَ؟

إنه فى تجربته القريبة تبين أن الاحترام جاءه أول ما جاءه حين ارتدى الحلة ولبس اللقب، فالاحترام يأتى - أوعلى الأقل يبدأ- بالمظاهر، سواء كانت فيما يرتدى الإنسان من أشياء، أو فيما يقتنى من صفات تلمع كما تلمع الأشياء، وقال فلأسلك هذا السبيل لأنه يبدو أن "الوصول" نهايته.

وبدأ يجمع الأشياء - والصفات التى هى كالأشياء- حول نفسه، بدأ يلتصق بكل ما حوله من دواعى الاحترام ليصبغه بذاته أو يصبغ ذاته بمتطلباته، بدأ يلمّع صفاته مثلما يلمع حذاءه سواء بسواء.

وصعد الدرج بجهد عظيم.

فمن بعد الوظيفة المتوسطة بالشهادة المتوسطة، حصل على شهادة أكثر زركشة هيأت له وظيفة أكثر احتراما.

ووجد نفسه لا يعترض على أحد أكبر منه أبدا حتى يكمل طريقا رسمه، ولا يخالف أحدا أصغر منه أبدا إلا إذا أعاق طريقه الذى رسمه، وعاش ملتصقا بكل الناس وكل الأشياء حتى وصل إلى ما أراد وحقق خططه كما سعى إليها، فاقتنى فيما يقتنى من أربطة العنق والأحذية المميزة، كرشا صغيرا وضعه أمام بطنه فى وقار هادىء، واختبأت عضلاته فى ثنايا طبقات الشحم دليل الراحة والعز... و... والاحترام، وأصبح مكتبه يقاس بالأمتار، ولابد أن حجرته تقاس بخمسات الأمتار لتسع هذا المكتب ذى الكرسى العجيب، وكانت "النظارة" علامة أخرى تكمل الصورة المهيبة، وترجح احتمال أن الرأس الذى وراءها قد مر به شىء مقروء من الكتب الكثيرة التى تزين الحائط، وليس مهما بعد ذلك أن يتبقى شىء فى ذلك الرأس أو أن يخرج منه شىء.

ولما تأكد له أنه أصبح "محترما" فعلا، اكتشف أنه قد قارب نهاية العقد الخامس من عمره؛ وكان قد بدأ الطريق ولما يدخل بعد فى العقد الثالث؛ وعجب كيف مرت كل هذه السنين فى "مرحلة" واحدة من مراحل الاحترام؛ ألم يعاهد نفسه أن يكسب احترام نفسه فى النهاية؟ وكان يتصور أنه لابد أن يحترم نفسه التى حصلت على كل هذه المكاسب، وبذلت كل هذا الجهد.

إنه عصامى ناجح.

فلابد أن نفسه لذلك تستأهل الاحترام، لانها لو لم تبذل كل هذا الجهد الذى بذل، وتصعد هذا السلم الشاق لأصبح الآن على أحسن تقدير مدرساً أولا فى مدرسة ابتدائية أو مدرسا عاديا فى مدرسة إعدادية.. ولكنه الآن مدير عام.. يجلس أمام مكتب يقاس بالأمتار على كرسى متميز تماما، وإذْ بهذه الفكرة تمر برأسه دفع كرسية فتحرك فى نعومة على عجلاته دون أن يصدر صوتا ذا بال... ولكن خرج منه همس خفيف ناعم ينساب دون أن يشعر به أحد، ولكن حياته أصبحت تتحرك بهذه الطريقه تماما، لقد تعوّد حركة الأيام وهو "مطمئن إليها" مثلما تعود حركة هذا الكرسى الضخم الفخم، ولكن هل هو مطمئن فعلا أو أنه فى سباق خفى مع لص لا يعرفه؟ هل حقق فعلا ما أراد؟

وحين انتبه إلى شىء عادى جدا.. انتبه لكل شىء.

ونظر فى كل شىء فلم يجد فيه نفسه لقد وجده ملتصقا به وليس جزءا من ذاته.

ولـكن أيـن ذاتـه وراء هذه الـواجهات الـكبيرة؟

مـا هذا الـشعور الجديـد الـذى قـلب كل شىء عـادى إلى مـوضوع غير عـادى يـشغلـه ويـؤرقه، حتى الملابـس الـتى يـرتـديـهـا أحس بـاحـتكاكـهـا بجلده، هل يحس كل الـنـاس احـتكاك ملابـسهم بجلـدهم هكذا؟ وكـيف يـعيشون ويـتمتعون لـو تـتبعوا حركـة ملابـسهم على جلـودهم؟ ولمـاذا تـتحرك ملابـسه هذه الحركـة الـبطيئة؟ ولمـاذا تـبدو وكـأنهـا مبطنـة بمادة لـزجة، لا هى شديـدة الـقـوة حتى يـصبح الخارج جزءا من الـداخل، ولا هى شديـدة الـضعف حتى يحصل انـفصال وتحديـد، إن هذا الـشعور بـالـلزوجة لهو شعور لـعين خانـق.

ولـكن هل يحس الـنـاس بهذه الـلزوجة مثلـه؟ مستحيل.. لـو أحسوا بها مـثلـما يحس هو لمـا استطاعوا أن يـسيروا أو يـتحركـوا، هو يحس بـالأشيـاء مـلـتصقـة بـه ولـيست جزءا منه، كل هذه الأشيـاء الـتى اشترى بها الاحترام لم تـدخل نـفسه، هذا الـكرسى والمـكتب والـشهادة والـوظيفة، كل هؤلاء الـنـاس وهذه الأشيـاء مـلـتصقـة بـه ولـيست فى داخلـه.

كيف لم يـلاحظ ذلـك أثـنـاء سعيـه نحو الاحترام؟

لـقد كـان صادقـا مع نـفسه حين بـدأ الـطريـق، لـقد اخـتار أن يـسعى إلى احترام الـنـاس لـيحقق احترام ذاتـه، لمـاذا؟ هل أخطأ الـطريـق؟ وحاول أن يـصل إلى ذاتـه فحالـت دونـه هذه الـطبقات الملـتصقة بـسطحها؟

وقـال:

- فـليـتخلص ممـا لم يـعد فى حاجة إلـيه من كل هذه الملصقـات، وقـام يـنزع الـشهادة المزركـشة من على الحائـط، فـكل الـنـاس تـعرف أنـه يحملها ولا داعى لمزيـد من الإعلان.

ولـكن مـا بـالها لا تخرج معه وكـأنها مـلتصقة بـالحائـط؟ وكـأن حائـط الحجرة سيـنزع معها إذا هو نـزعها، وشدها بـعنف حتى كـاد يـنطرح على ظهره ووضعها داخل الـصوان، ولـكنه أحس أن الحائـط يـتبعها فـيدخل مع الـشهادة إلى الـصوان، وأصبحت الحجرة بـثلاثـة حوائـط، واكـتشف انـفتاحه على الخارج وتـعريـته بمجرد نـزع غطاء من أغطيـته الـلزجة، وتـأكـد أن كل شىء مـلتصق بـكل شىء، ولـكنه الـتصاق مـائـع لا قـوام لـه، وكـلما حاول أن يـزيح شيـئًا آخر من نـاحيـة أخرى انـزاحت معه سائـر الأشيـاء.

ولم يـنم لـيلـته.

ولا الـلـيلة الـتى تـليـها... ولـيـال أخرى كـثيرة، قضاها يحاول الـوصول إلى نـفسه وراء هذه الأغطيـة المحترمة وهو لا يـستطيع، فـهى إمـا أن تـنزاح جميعا ثم هو لا يجد نـفسه وراءها حيث لا يـتبقى إلا الـفـراغ غير المحدود، وإمـا أن تـبقى كـلهـا فى الـتصاق رهيب مقـيت، ولم يـستطع أن يـصارح أحداً بـشىء، واشترى مـنـومـا يـتخلص بـه من أفـكـار الـلـيل، آملا أن الانـغمـاس فى الـعمل سوف يخلصه من أفـكـار الـنهـار، وكـانـت الأفـكـار كـلهـا تـدور حول سؤال واحد.

هل هو محترم "فعلا"؟

ولكن يبدو أن النوم يحدث مفعوله بأن يزيد الأشياء به التصاقا فتجثم على نفسه فينام، ولكنه لايكاد يستيقظ حتى يحس باللزوجة المضنية المرهقة، وتثاقلت حركته وهو يحس بكل هذه الملصقات تروح وتجيء معه فى كتلة متشابكة تحول بينه وبين نفسه، ورغم أنه كان يحاول إخفاء كل ما يدور، إلا.. "أنهم" بدأوا يلاحظون عليه تغيرا فى التصرفات، وشرودا فى الرد، وإهمالا فى المظهر.

وانشغلت زوجته عليه - وكانت من أسباب الاحترام.. وعلاماته كذلك- فقد كانت من عائلة لها اسم، والاسم له رنين، وتاريخ متين.

قالت له:

- مالك؟

قال:

- ماذا فىّ؟

قالت:

- لستَ كعادتك

قال:

-كل شيء كما هو (وأكمل فى نفسه: "من الظاهر".. وهذا ما يهمكم).

قالت:

- ولكن هناك شيئا يشغلك.

قال:

- لا شيء.. لاشيء البتة: المكتب هو المكتب، والمقعد لا يزال يتحرك على عجل ناعم ليس له صرير، والمنزل كما تحبين والمائدة أضيف لها قطعة جديدة لتتسع عدد الضيوف المتزايد، والعلاوات فى مواعيدها، والشركة حصلت على "كأس الإنتاج".. كل شيء على ما يرام.

قالت:

- فهناك "أخرى"

قال:

- أهذا ما يشغلك؟ وماذا أفعل بالأخرى؟ إنها ستلتصق بسائر الأشياء فتصبح من ذات الكتلة اللزجة.

قالت:

- ماذا تقول؟ أى التصاق وأى أشياء.

قـال:

- مـا عليك.. كل شىء "تمام". ولـيس هنـاك أخرى ولا يحزنـون.

وكـاد يقـول: بـل إنـه لـيس هنـاك شىء الـبتة، كل شىء على السطح يحـول يـبنى و بـين نـفسى، كل شىء ممسك بـكل شىء آخر، وأنـا عاجز، لا أستطيع أن أزيـح شيئـا واحدا إنها سلسلة مـتكاملة من دواعى الاحترام الـذى يـكتم أنـفاسى ويـكاد يـزهق روحى، لـيس هنـاك أخرى، ولا حتى أولى الـتى هى أنـتِ، ولـكن من الـذى يـفـهم حتى أقـول لـه مـا بى، لـو كـانـت زوجتى لـيست "محترمـة" ولـو لم يـكن اسم عائـلـتها بهذا الـبريـق، ربمـا حدثـتـهـا فى أشيـاء صادقـة لـيست محترمـة، ولـكن لمـاذا أفترض مسبقـاً أنها لـن تـفـهم؟ فـلأ حـاول.

وسألها:

- هل أنـا محترم؟

وقـالـت:

- لـيس هذا وقـت المزاح.

قـال:

- ولـكنى لا أمـزح.

قـالـت:

- لا تمـزح؟ إذن مـاذا تـقـول؟

قـال: أنـا أسألـك:

- هل أنـا محترم؟

ولمـا رأت الجد فى عينـيه.. امـتقـع وجههـا وقـالـت:

قـالـت:

- ومـاذا تـعنى؟

فـأعـاد:

- هل أنـا محترم؟

ثم ضحك.

وتـأكـدت أنـه يمـزح.

وعـادت إلـيهـا ابـتسامـتها واستمـرت تجدل خيـوط الـصوف بـين يـديـهـا،

قـالـت:

- أنـت سيـد الـنـاس.

إذن.. فـهذا هو الاحترام، هو سيـد الـنـاس، هل لابـد أن يـسود الـنـاس لـيصبح محترمـا، وهل هو سيـد الـنـاس؟ أى نـاس؟ إنـه لا

يعرفهم، ليس فى حياته ناس أصلاً، الناس فى حياته وسائل لما هو فيه.. إن أى تعامل له معهم، له هدف آخر غير "التعامل معهم.. هم"، هو لا يعامل الناس لأنهم ناس، ولكن لأنهم وسائل للحصول على شىء يجلب احترامه.

أى خدعة عاش فيها عشرات السنين يحاول أن يكسب احترام ناس ليسوا فى حياته، إذن ما الذى بقى فى حياته؟ المكتب الضخم والكرسى على عجل، والشهادة المزركشة، والاسم، والمركز، والإنتاج... أى إنتاج؟ أهو مقتنع بأى شىء أم هو يسعى إلى إرضاء الكبار وإرهاب الصغار، لقد كان وهو فى أول الطريق يعتقد أن اكتساب احترام الآخرين يأتى بالرضا والرهبة فى آن، وقد خصصت الأيام الرضا للكبار والرهبة للصغار.

ولكن... ما ثمن كل هذا؟ ما ثمن هذه الهيئة والاسم وكل شىء؟ وحتى بمقياس الاحترام هل أمكنه أن يعلم رأى الناس فيه فعلا؟ هل يحترمونه أم يحترمون مركزه؟ وهل هناك فرق بينه وبين مركزه؟

فليحاول.

دق الجرس وحضر السكرتير يحكم رباط حلته، وطلب "سيادة المدير" منه قائمة بأسماء المستخدمين، وحسب السكرتير أن فى الأمر علاوات، فتهلل وجهه وهو راجع بالقائمة، وقال له "صاحبنا"

- افتح أى صفحة.

وتساءل السكرتير.

- أى صفحة

- نعم أى صفحة.

وحاول السكرتير أن يحول دون حاجبيه أن يرتفعا، وحين لم يستطع دار حول المكتب ليحول دون المواجهة الكاشفة، وفتح أية صفحة وبها قائمة طويلة من الأسماء، وقال له المحترم.

- إبسطها أمامى.

فبسطها السكرتير.

فأغمض صاحبنا عينيه ومد سبابته كيفما اتفق ليضعها على أى اسم فى أى مكان، وقال لسكرتيره.

- استدع هذا الموظف.

وبجهد بالغ تماسك السكرتير حتى لا تفلت أعصابه ويقول ما يعتقده وكان عقله مازال مشغولا بالعلاوات، فتصور أن كل هذا ما هو إلا تحقيق حلم رآه سيادة المدير فى منامه، وقال فى نفسه "ربما وزع سيادته جائزة الإنتاج هذا العام بهذه الطريقة، فتحل البركة فى إنتاج العام القادم؟"

وجاء الموظف الصغير، وانصرف السكرتير.

وطلب صاحبنا من الموظف-الذى كان حائرا بين الرهبة والأمل أن يجلس، وسأل "المحترم" الموظف:

- ما رأيك فىّ؟

وقال الموظف:

-عفواً

وقال المحترم:

- ما رأيك فىّ؟

- أنا؟

- نعم

- رأيي فى سعادتك "أنت"؟

- نعم

وقال الموظف فى نفسه "اللهم اجعله خيرا" وأكمل.

- رأيي أن سعادتك... سعادتك... "المدير"

- رأيك فىّ.... أنى "المدير"؟

قال الموظف وقد أحس أنه ربما أخطأ.

- بل "سيادة المدير العام"

قال الرجل بعد صمت مريب:

- شكراً.. وآسف لإزعاجك

وقام يوصل الموظف الصغير - لأول مرة - حتى باب المكتب، وهو يطيب خاطره.

وانصرف الموظف..

وبدأ الهمس.

ومازال هو يفكر.

أين أنا؟ هل أنا "سيادة المدير العام أم أنى أنا الذى هو أنا"؟ هل هذا هو الذى سعيت إليه منذ التاسعة عشرة من عمرى حتى قاربت الخمسين؟ كيف نسيت نفسى، وكيف الخلاص؟

ولم ينم ليلته.

ولا الليالى التى بعدها

ولم يعد يؤثر فيه المنوم.

قال الفتى للحكيم:

- ولكن هكذا يعيش كل الناس... بل هذا ما يتمناه أغلب

الناس... فما الذى أزعجه هذا المدير أن يعيش مثل الناس؟

قال الحكيم:

- وربما هذه هى المأساة. أن يعيش الناس مثل الناس، وبالضبط، فلا تصبح الجماعة مجموعة أفراد ولكن نسخا مكررة من كائن خرافّى ماسخ.. ثم..(وسكت الحكيم)

قال الفتى:

- ثم ماذا..؟

قال الحكيم:

- ثم يصحو الإنسان ليهاجم ذاته، فتتشوه منه.. فيفقد احترام الآخرين

قال الفتى:

- ولكن إذا فقد الإنسان احترام الآخرين ماذا يتبقى له.

قال الحكيم:

- ومن قال إن على الإنسان أن يفقد احترام الآخرين حتى يعيش حياته فى صدق.

قال الفتى:

- ولكن أليس الصدق فى الحياة هو فعلا مشكلة الحياة.

قال الحكيم:

-ولذلك يعيش أغلب الناس مغمضى العينين تسرقهم الأيام، وهم يحسبون أنهم يسرقون الأيام، وتنتهى حياتهم فى لحظة لم يضعوها فى الحساب.

قال الفتي:

- ولكن لو رأى الناس كلهم الحقيقة.... لا ضطربت المعايير واختفت علامات الرضا ومظاهر السعادة.

قال الحكيم:

- ولكنك تقول "مظاهر السعادة" وليست السعادة، وربما لو رأى الناس الحقيقة لبحثوا عن معايير جديدة، وربما وجدوها، لأن الإنسان إذا رأى الحقيقة وحده وسط هذه المعايير الشائعة حدث له مثل ما حدث لصاحبنا.

قال الفتى:

فماذا حدث له؟

قال الحكيم:

- لم يعد ينام ليله، ولم يعد يؤثر فيه المنوم وتبين أن

رؤيته لواقع الأمر كانت أقسى مما حسب لأنها تأجلت سنين طويلة وأخذ يراجع مواقف حياته، ويسأل نفسه لماذا لم ينتبه عند كل "مفترق طريق"؟ ولماذا لم يضع لنفسه محطات من بادئ الأمر يقف عندها ويعيد فيها تقييم تجربته: ينظر فيما كان ويستطلع ما يكون، إنه كان فى شبابه أكثر وعيا وأدق حسابا، وهو حين بدأ الطريق بدأه وهو فى كامل وعيه، وقد كان مقدرا أن يكون احترام الناس خطوة نحو احترام نفسه، ولكن هذه الخطوة طالت حتى التهمت ثلاثين عاما بالتمام.

وتساءل ألا يمكن أن يكتفى باحترام الناس وتمضى أيامه الباقية مثلما مضت أيامه السابقة؟ راح يراجع كيف مضت أيامه السابقة: إنه لا يدرى، لقد انزلقت به الأيام وكأنها كانت تتحرك على كرسيه ذى العجلات، وما نهاية هذه المرحلة التى يخوضها مع الناس والأشياء الذين يمثلون كتلة واحدة تحول بينه وبين نفسه، أين الصديق؟ أين الانسان الذى يستطيع أن يحدثه فى كل شئ بلا "احترام" ولا حساب، وأخذ يبحث عنه وسط الناس، وتأكد أن حياته ليس بها ناس مع أنها مليئة بشخوص تستعمله أو يستعملها، ليحقق كل واحد للآخر خدعة تلتهم بعض أيامه، وكأن الخدع قد صُفَّت فى تسلسل تصاعدى، وجعلت وظيفتها الأولى هى التهام الأيام، وكلما كبرت الخدع وتضخمت زاد عدد الأيام التى يمكن أن تلتهمها بلا حساب.

وتساءل: هل وجدت هذه الحياة لقتلها بالزيف، وهل جعلت الأيام لتلتهمها الخدع، ولماذا نضع الأهداف - ونحن لا ندرك لها قيمة حقيقية - ثم نستعجل الوصول إليها وكأننا نستعجل نهايتنا؟

ولم ينم.

وبدا عليه شحوب..، ثم ذبول...، ثم ذهول...

****

وبعد برنامج تلفزيونى سخيف، كنتُ أحد شخوصه، رأيته لأول مرة.

****

جاء وحده ليستكشف، ليتأكد من سخف هذا الطريق، فهو فى نظره مثل كل الطرق، سوف يلتهم بعض أيامه.. ويتركه أكثر ضلالا، وضياعا.

قال بعد أن جلس فى غير اكتراث

- هذا هو أنا

- أهلا

- إسأل

- بل أسمع

- ماذا تريد أن تسمع؟

- ما تحب

- ولكنى لا أحب شيئا

- بماذا تشعر؟

- أشعر بالغرق الوشيك فى مستنقع اللزوجة... والركود

- فهو وشيك.. وليس واقعا بعد..

- ولكنه أكيد الوقوع لا محالة

- هل هناك شىء أكيد.. بهذا الجزم.

- النهاية أكيدة

- ولكن النهاية توقيت، ووقتها غير معروف، فيصبح تأكيدها مغالطة.

- ولكنها حتم

- هى نهاية طريق ما، على أية حال تعال نرى الطريق حتى نتعرف على النهاية.

- لقد ضللتُ الطريق... لقد غصت إلى حيث لا قرار.. ولا أعرف السباحة.

- ولكنك تحاول

- وهذه هى المصيبة الكبرى، ياليتنى ما حاولت.. وما صحوت، فما أجمل أن تتمدد فوق سطح طرى ناعم.. على شرط ألا تفتح عينيك ولا تحرك أطرافك ولا تسمع ولا تشم ولا تحس ولا تدرك، إذن فستمضى من النوم إلى الغيبوبة إلى النهاية دون أن تحس بشىء، ولا أن يحس بك أحد، ولكن الويل لك لو استيقظت قبل أن تنتهي: ستجد السرير الطرى الناعم ليس إلا مستنقع الدهن والعرق، وسوف تجزع كما يحق لك الجزع، وتبدأ المحاولة التى تقول عنها، وآه من محاولة العوم فى مستنقع الدهن والعرق، وخاصة بعد أن تستيقظ حواسك، ماذا تسمع غير حفيف اللزوجة وهمس عجلات الكرسى، ماذا تشم غير ثقل الهواء بلا رائحة، ماذا تحس غير قشعريرة الميوعة وخدر الهلامية، هذا هو الحال، ولن ينفعنى مجيئى أو ذهابى، فكل شىء قد التصق بكل شىء، ولا تزيدنى حركتى إلا إنهاكا وشعورا بالثقل، أحاول أن أغمض عينى لأتصور البحر سريرا ناعماً فلا أستطيع، حتى النوم لا أستطيعه ماذا تستطيع أن تفعل لى؟ هل تستطيع أن تغمض عينىّ وبصيرتى ثانية، لقد حاولت بالحبوب المنومة.. ولكن حركتى ثقلت أكثر وأصبحت أسبح فى هذا البحر وأنا مقيد بأثقال وأثقال.. فلا أنا نمت، ولا أنا توقفت عن المحاولة، وبعد ذلك البرنامج السخيف الذى شاهدتك فيه، قلت لنفسى فلنكمل الخدع، وحضرت فماذا تستطيع أن تفعله لى أنت، وأنا هكذا؟

- أنا لا أستطيع شيئاً إلا من خلالك.

- هأنذا.

- هل تريد أن تبدأ.

- فى الحقيقة أريد أن أنتهى.

- ولكن النهاية كثيرا ما تكون بداية.

- كفى لقد خدعت كثيرا بهذه الحيل، لقد قررت فى أول الأمر أن أكسب احترام الناس، ومن ثم أكسب احترام نفسى وحين بدأت الطريق الثانى استيقظت كل حواسى فجأة، واكتشفت بشاعة حياتى وخدعة السرير الناعم الطرى، وحين حاولت أن أنهض منه علمت ماهية بحر اللزوجة، وكلما حاولت أن أنفذ إلى نفسى وجدت طبقات من أشباه الناس وبقايا الأشياء تحول بينى وبينها.. وحاولت أن أبعدها واحدة واحدة... ولكنى وجدت أن كل شيء ملتصق بكل شيء.. لقد عجزت تماما.. ضاع عمرى دون أن أشعر، وهأنذا صريع النجاح واليقظة معا، ربما استيقظت لو أنى فشلت فى أول الطريق.. وعرفت معنى حقيقيا لكيانى، ربما جاءت النهاية وأنا أغط فى سبات الاحترام.. لو أنى لم أصْحُ فجأة، ولكنهما النجاح واليقظة معاً: اليقظة جعلت النجاح بشعاً، والنجاح أخـّـر اليقظة حتى لم تعد فرصة للتراجع.

- ولكن هناك فرصة لا ستكمال الطريق بعد تعديل التوجّه.

- لا، لن أكمل لقد شبعت احتراما، أريد نفسى أريد ذاتى الحقيقية أريدنى "أنا".. "أنا" الذى لم أعرفه أبدا، بينى وبين نفسى أكوام من هياكل الناس، أنا لا أرى نفسى إلا فى عيون الناس، ولكنى حين أتأملها هناك لا أجدها "هى" التى أتصورها وأتمناها لأنهم يرون قشرتى دون حقيقتى، يرون شخصا محترما ذا لقب ومركز، ولكن أين "أنا"؟

- ولكنى لا أعنى طريق الاحترام هذا، وإنما أقصد طريق الحياة.

- أية حياة وأى طريق؟ ليس هناك إلا طريق الموت، وياليته قريب وياليتنى شجاع.

- ولكن للأمر وجها آخر.

- نعم... لكل شيء وجه ووجه، ولكن أين وجهى أنا بين الوجوه، لقد لاحظت زوجتى تأملى مرآتى وأنا أحلق ذقنى كل صباح، وخشيت أن تظن بى الظنون، كنت أشد جلد وجهى لعلى أجد تحته وجها آخر أتعرف عليه، ولكن هيهات، بينى وبين نفسى يقف الناس حائلا بينى وبينى، فكرت أن آخذ مرآة معى فى المكتب، وخلوت بنفسى، ولكن أحسست أن خيال زوجتى يقبع معى فى ركن الحجرة تنظر إلىّ بنظراتها الهادئة الواثقة الضاغطة، تطل على من صفحة المرآة.. حتى فى المكتب، وخشيت إن أنا أخرجت المرآة أن ينادى خيالها الموظفين ليشاهدوا مديرهم وهو يبحث عن نفسه تحت جلد وجهه، ماذا بقى بينى وبين الجنون؟ لقد

كنت أشاهدها أحيانا وهى تخرج لى لسانها؟ هكذا خيل إلى، بل إنى أحيانا أخرج لسانى لنفسى لأن كل ما عملته لا شىء... لا شىء، لقد صنعت نفسى من لا شىء فوجدت أننى ما صنعت إلا اللاشىء.

- ولكن هذا الألم كله، كل ما انت فيه الآن: ... هل يخرج من لا شىء.

- الألم؟!!! إن الألم هو علامة وجودى.. إن ما بقى لى هو الألم، ولكنه ألم من نوع خاص.. إنه مأساة الحياة، إنه ثمن الخداع.. أريد أن أسير فى الشوارع أنادى الناس أن يصحوا قبل فوات الأوان.. أن يراجعوا الطريق.. أن يرفعوا العصابة، ولكن لابد أن أعرف أولا ماذا بعد رفع العصابة من على العيون، لابد أن أعرف بديلا، لا بد أن أعرف الطريق حتى تكون صيحتى نداء هادفاً، وليست صفعة حاقدة تعرى الحقيقة ثم... لا شئ.

- فأنت تبحث عن طريق آخر.

- ولكنى يائس من العثورعليه.

- لأنك وحدك.

- ولكنى حاولت أن أجد أحداً فوجدت حياتى ليس بها أحد، وجدت الناس أشياء أستعملها وتستعملنى كما ذكرت لك.

- ربما جئت هنا.. لنمضى معا.

- نعم.. معاً، هذه وظيفتك، تستمر مع أى أحد إلى أى مدى، ماذا ستخسر أنت؟ أنت هو أنت، تستمر مع من تشاء كما "أنت" ثم تخرج من صحبته "أنت" "أنت"، أما أنا... فلستُ شيئا، أنت تقول "معا"؟ أليس كذلك؟ سوف تجد بجوارك صفرا عظيما، ستجد نفسك تسير وحدك، لا تُضيّع وقتك وقل لى لافائدة.. ربما واتتنى الشجاعة وعملتها.

- ولكن، ربماهناك فائدة... أية فائدة

- فائدة لك.. لقد قلت لك إن هذه هى وظيفتك أكل عيشك.. ومع ذلك فأنت هو أنت. وأنا لا شىء، أليست هذه هى الحقيقة.

- أنا لست "أنا" إلا بك، بصحبتك على الطريق.

- أى طريق؟

- طريق أن ترى نفسك كما تستحق... كما أنت أهل له.

- أنا أهل لماذا؟ ماذا أريد؟ لقد تصورت أنى أريد الاحترام، وهأنذا حصلت عليه.. فماذا كانت النتيجة؟

- ولكنك تتحدث عن تجربة، وعن زيف، وعن رغبة فى أن تجنب غيرك هذا الزيف، لو عرفت البديل

- لـو عرفت الـبديـل!

- فـأنـت تـفـكـر فى الآخريـن فى قـمـة أزمـتك.

- ولـكـن الآخريـن هم الـذيـن ضيعونى، لأنى حسبت حسابهم أكـثـر مما حسبت حساب نـفـسى.

- ولـكـنك الآن تـفـكـر بـطـريـقـة أخرى، تـريـد أن "تـعطى" تجربـة، لا أن "تـأخـذ" احـترامـا.

- صحيـح.. ولـكـن لابـد أن تـكـمل الـتجربـة.. أولا.

- ولـذلـك أنـت هـنـا.

- لا.. أنـا لـست هـنـا لـذلـك، أنـا جئت هـنـا لأحـرق هـذه الـورقـة الأخيرة، ثم أجـد مبرراً لـلاستمرار فى الـسخط والـتحطيم، ولـكـن.. لـكـن يـبـدو أنـه مـازال هـنـاك بـاب لم أطرقـه.

- هـو بـاب إنـسانـيـتـك.

- إنـسانـيـتى؟ مـاذا تـعـنى؟ هل هـنـاك عـقـار اسمه "إنـسانـيـتـكـو"؟ أنـا بـدأت بـالـبحث عن الاحترام فـهـل كـان علـىّ أن أبحث عن إنـسانـيـتى؟ يـعـنى مـاذا؟

- أنـت لم تـبـدأ بـالـبحث عن الاحترام، هم الـذيـن وضعوك فى أول الـطـريـق، فـسرت.

- وهـل كـان ممـكـنـا ألا أسير؟

- كـان صعبـا جـدا..، ولـكـن الممـكـن الآن أن تجنب غيرك هـذه المسيرة..

- مـا لى أنـا وغيرى الآن؟

- أنـت بـغيرك وغيرك بـك.

- لـست فـاهمـا.

- إنمـا يـكـون الإنـسان إنـسانـا إذا مـارس إنـسانـيـتـه مع إنـسان آخر.

- مـا أسهـل ذلـك، وأصعبـه!!.

- ومـا ألـزم ذلـك، وأوجبـه.

- الـكـلام سهـل، لا تخدعنى مـن فـضلـك.

- حين يـزداد عدد "الـنـاس الـنـاس"، ويـقـل عدد " الـنـاس الأشيـاء" ، سوف تـزيـد الـفـرص لـلجمـيـع

- نـعـم؟ نـعـم؟ تـلـوّح لى بمـا أتجنب تـصديـقـه.

- لـسنـا فى عجـلـة، ونحن مـعـا.

- وهـل تـصبر عـلـىّ؟

- وهل تصبر أنت علىّ؟

****

قال الفتى للحكيم:

- ولكن كل هذا الألم.. هل تتركه يعانيه حتى يعثر على الناس الناس؟.

قال الحكيم:

- لقد استعان العلم على مثل هذا الألم بالكيمياء والطبيعة، ولكن هذا ينبغى ألا ينسينا حقيقة المأساة الانسانية، علينا ألا نرضى بتخفيف الألم دون اليقظة الشاملة.. لتحقيق الانسان الإنسان.

- ولكن ما هى ماهية هذه الإنسانية التى وعدتَ بها المحترم؟ إني أخشى، أن يكون الأمر كلاما، أو أوهاما.

قال الحكيم:

- إن خوفك له ما يبرره، فالسعى وراء "ألفاظ" عامة، لا يقل خطره عن السعى وراء قيم زائفة، ولفظ "الإنسان" إن لم تتحدد أبعاده على أرض الواقع... أصبح هو الآخر وهما كما تقول.

قال الفتى:

- وهل يمكن تحديد أبعاده؟

قال الحكيم:

- لكى يكون الإنسان إنسانا لابد أن يكون وحدة قائمة مستقلة، ولكنها تأخذ وتعطى بلا خوف ولا قهر، حتى يحس بحرية الاختيار النابع من كونه هو: ذاته

قال الفتى:

- ولكننا نخرج من تعميم إلى تعميم، فما أكثر الوهم الذى أحيطت به هذه الألفاظ وأولها.. الاختيار والحرية

قال الحكيم:

- وكأنى بك أصبحت الحكيم الحذر المراوغ، ولستَ الفتى طالب المعرفة المتسائل، وهذا يزيدنى إقبالا عليك وحماسا للحديث معك فما أكثر ما ظـُمت الحرية.. وما أكثر ما ظـَلمت، وما أكثر ما عاش الانسان حياته يجرى وراء سرابها.. حتى اختلطت عليه الأمور وكاد يتردى فى غياهب الظلام مثل ذلك الفتى الثائر الذى قضى حياته يسعى وراءها وهولم يذق طعما لها أبدا.

قال الفتى وكيف كان ذلك؟

الإثنيـــــــن 13-06-2011

1382- الفصـــــل الثالـــــث: فــــــى القفـــــص

كتاب جديد (قديم)

عندما يتعرى الإنسان (4 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

الفصل الثالث: فى القفص

قال الحكيم:

- هى حكاية فتى ضاق بسجن التقاليد والنظم، فآمن بكل ما اقتنع به وترك ما دون ذلك، والتزم بتنفيذ ما آمن به، وعاش يتنقل من نظام إلى نظام ومن مبدأ إلى مبدأ، ينبهر بكلٍّ فترة من حياته، ثم يكتشف عند التطبيق أن المسافة بين ما هو مكتوب وما هو واقع أكبر من كل ما يمكن أن يتصوره، فأخذ ينتقل من النقيض إلى النقيض حتى كفر بنفسه، وفقد أمله فى المستقبل بل وفى تطور الإنسان، وجاءنى يتساءل عن كل هذا بعد أن فقد عقله أو كاد، بالرغم من أنه كان يتصور أنه اهتدى إلى العقل الكامل، ما دام هو الذى اختاره بالكامل، لكنه اكتشف أنه ربما ضل الطريق وهو لا يدرى.

قال الفتى:

- وكيف كان ذلك؟

قـال الحكيم:

- حين تهتز القيم، وتصبح مواصلة الحياة عملية صعبة بل خطيرة، تحمل من التهديد أكثر مما تحقق من الراحة والارتواء، قد يختار الإنسان الهرب، بل إنى قابلت بعض الأصدقاء المرضى الذين حاولوا أن يختاروا طريق الجنون فلم يستطيعوا إليه سبيلا.. وكأنه هدف بعيد المنال، وقد تعجب لقصة ذلك "السارق" الذى دخل "سجن مصر" بعد أن عجز عن دخول ساحة الجنون.

قـال الـفتى:

- لقد بدأ كل هذا الحديث يثيرنى حتى أنى احترت أيهما أسمع أولا، فلتقص على حكاية ذلك الفتى الذى فشل أن يجن، فما أروع أن يفشل الإنسان أن يضل...

قـال الحكيم:

- ... إن هذا كله نابع من مشكلة الاختيار، وفى خبرتى وجدت أن الإنسان يمكن أن يختار متى كان سليما، متى كان واحداً صحيحاً، له كيان مستقل، ولكى يكون هناك "كيان" لابد أن يتخلص من صراعات عظيمة تتحكم فيه دون علمه، ليس مجرد صراعات الخير والشر، ولكن صراعات أن "يكون" أولا "يكون"، ثم أن يكون أو يصير، وهو بالتالى يختار كيف يكون، ولابد لتحقيق ذلك أن يتخلص من حب ذليل ومن حب مسيطر، وأن يحافظ على حب قوى مستمر يعطى بلا خوف ويأخذ بلا حذر، ولابد أن ينتصر على أطماع صغيرة وأهداف زائفة، ثم بعد ذلك يستطيع أن يقول "أنا أختار" ثم هو قد يصيب وقد يخطيء.

قـال الـفتى:

- ولكن التخلص من كل هذا أمر عسير جداً، بل هو فى نظرى مستحيل.

قـال الحكيم:

- هو كذلك، إذا أردت الكمال، ولكنه ليس كذلك إذ كانت الأهداف المطلقة لا تلزمنا بضرورة تحقيقها فى صورتها المثالية فورا، ولكنها تنير طريقا إليها، وبالتالى يكون السير تجاهها هو هو تحقيقها ولو لم نصل إليها، مهما طالت المسافة بعد ذلك، نعم: لا يهم "الوصول" بقدر ما يهم السير فى الطريق مجتهدين طول الوقت.

قـال الـفتى:

- "الوصول"؟ كم كرهت فى تجربتى الصغيرة كلمة "الوصول" هذه، أنا لم أصادف فى حياتى إنسانا ممن يطلقون عليه (وللأمانة: على شرط أن يعتبر نفسه أيضاً) "واصلا" إلا وجدته لزجا لا قوام له، وما نظرت فى أهداف وصل إليها، أو أشخاص وصل بهم أو إليهم إلا وجدت داخلهم أجوفا كعيدان البوص، قد يصفر فيها الهواء ولكن ضغط الأصابع يكسرها.

قـال الحكيم:

- ألم أقل لك إنك تتعلم الحكمة بأسرع مما حسبت، حتى أكاد أراك سبقتنى إلى معرفة جوهر الأشياء، إذ أراك تقترب من حقيقة الإنسان بأمانة سوف تجلى بصيرتك، وأكاد أتصورك بعد تجربة مرضك تساهم فى مسيرة الإنسان على طريق تطوره.

قـال الفتى:

- ولذلك حرصت أن أسمع منك أكثر وأكثر، فلنبدأ بحكاية "السارق" الذى فشل أن يجن، ثم تحكى لى بعد ذلك حكاية "الثائر" الذى اختلت موازينه.

قـال الحكيم:

- أما حكاية السارق الذى فشل أن يجن فهى حكاية ذلك الفتى الذى عاش مختنقا فى قفص نفسه، وحين حاول الهرب منه إلى حرية الجنون وجده حلا سخيفاً لأنه يوصل إلى حرية ضعيفة مشكوك فى أمرها، فلم يستطيع، ثم بمحاولة غريبة أراد تجسيد الواقع بالدخول إلى قفص من حديد.

قـال الفتى:

- وكيف كان ذلك؟

قـال الحكيم:

- هو شاب عاش مع الإهمال غير المقصود، حتى وجد نفسه فى "سجن مصر" متهما بجريمة "سرقة بالإكراه" حاول أن يحقق بها تجسيد واقعه المر. ولكن يبدو أنه لم يحقق شيئاً، وحين حوّله المحامى الذى عينته الدولة بعد أن رفض تفويض محام خاص للدفاع عنه جاء إلىّ ساخراً ساخطا ثائرا، لأنى لم أكن فى خطته، بل لعل من أهداف خطته الأولى أن يتجنب هذا اللقاء.

****

دخل علىّ قصير الخطى محدد القسمات ثابت النظرات يضغط على أسنانه فتظهر عضلات فكه تحت جلد صدغيه فى انتظام رتيب... كان أقرب إلى القِصَر مليء الجسم عضلى التكوين، وجلس دون أن ينطق، وكأنه ما جاء إلا ليجلس، ومر الوقت ببطء سخيف قبل أن يقول:

- ماذا تنتظر

- أنتظرك.

- ولكنى هنا منذ فترة

- ليس تماما.

- هل تشككنى فى نفسى؟... أنت أيضا؟... ألست وكيل نيابة آخر بدرجة طبيب... سوف أضحك ما شاء لى الضحك.. افتح محضرك الطبى لتستكمل الصورة أبعادها.. افتح المحضر من فضلك

- أى محضر؟

- أليست تهمة جديدة.. تضاف إلى صحيفة سوابقى... أليست أمراضكم هذه تهمة... بل هى أشنع من السرقة والتهديد التى أحاكم من أجلها... المرض ضعف وأنا لست ضعيفاً.. أنا قوى، أنا لص، أسرق فى وضح النهار وبالإكراه، لست ضعيفا ولست مريضا مهما قلتم.. هذا المحامى المعتوه الذى عينته الحكومة هو الذى أصر على استشارتك... وهأنذا، لن تعرف منى شيئا... فأنا لست مريضا، لست ضعيفا ولن أكون، ولم أكن كذلك أبداً.

هيا افتح المحضر.. ولا تضع وقتى فكم سأتمتع بجوارك، ولن تدخلنى أبدا هذا السجن الجديد سجن الضعف والشفقة، لن أعترف بالمرض أبدا، بل لن أمرض أبداً، وعلى كل حال ليس لازما أن أعترف حتى أدخل السجن... هذه كذبة قديمة... ليس هناك علاقة بين السجن والجريمة، ولا بين الإعتراف والعقوبة، هذه أشياء وضعتموها لتبرروا بها ما تفعلون دون اقتناع، تبررون بها هذه القضبان وهذا الظلام وهذا البرد..

- أى برد تعنى؟

- برد الوحدة والقسوة.. فى زنزانة إنسان جف وسط مجتمع لا يفهم، لا تنتظر منى شيئا، لن أتكلم... لن أعترف بهذه التهمة الجديدة، سوف أخرج من هنا لأقول إنك مثلهم تماماً ألست منهم، واحدا منهم.

- ممن؟

- من وكلاء النيابة والمحامين والآباء المحترمين.

- نعم.. تقريبا.. ولكن..

- اتفقنا، هكذا أستطيع أن أستريح، لقد جئت نتيجة لتصميم ذلك المحامى الأبله. وتحققت مما ظننت، وجدت أنك منهم لا أكثر ولا أقل، وعليه فلن أمكنك من بقية نفسى، لن يبقى لى إلا هذه الأسرار التى أجترها فى خيالى لأشعر بخصوصيتى، لأشعر بأنى أعرف شيئا لا يعرفه أحد، لأشعر بأنى أتمتع بحرية التفكير فى السر، ولكن هل هذه حرية تلك التى تمارس فى السر؟... قل لى بربك هل يمكن أن تمارس الحرية سراً.

- لا أظن.

- ومع ذلك لن أطلعك على سرى، بل لعلى أخدعك إذا قلت لك إن عندى أسرارا، بل إن حيرتك تعجبنى، هل عندى أسرار أم لا؟ عندى؟ ليس عندى؟ لابد أنى عندى؟ لا ليس عندى؟ إنك تظن أنه عندى؟ وربما ليس عندى؟ ما أحلى حيرتك فى نظرى، هكذا أتنفس أعمق، أنا الآن الذى أسأل وعليك أنت أن تجيب، أنا الذى أمتلك زمام الموقف... أنا الآن حر... مسيطر... قوى، هيّا: بماذا تجيب؟ هل عندى أسرار حقيقية أم لا؟

- لا يوجد إنسان بلا أسرار.

- ولكنى اعترفت بالجريمة وكنت أستطيع أن أحتفظ بها سرا ولكن هل تعلم لماذا لا يوجد إنسان بلا أسرار.

- لماذا؟

- لأن الناس لا يؤتمنون على الأسرار، ولو كان الناس شرفاء لما احتفظ أحد بسر يضنيه أو يضلله، ولعاش كل الناس فى النور وعشت أنا حرا لا يعوق حركتى أحد ولا شىء.

- وما الذى يعوق حركتك؟

- الناس... البوليس... المخبرون.. الحكومة.. المبادئ. الحق.. الواجب... أنت وأنا.. أنا أعوق حركة نفسى... إن نفسى سجينة داخل جسمى. أريد أن أتحرر من هذا الجسد دون أن أموت، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أودع جسدى داخل سجن حقيقى من أربعة جدران، وأطلق نفسى حرة وراء الأسوار، هذه الطريقة العجيبة من اختراعى وحدى:

لكى تكون حرا يستحسن أن تدخل السجن، ربما هذا المنطق هو الذى دعا محامىّ أن يرسلنى إليك، لم يفهمنى ولم يفهم تمسكى بدخولى السجن وطلبى أقصى أنواع العقوبة.. إنى لا أمارس حريتى بالخارج لذلك لجأت إلى السجن لعلى أمارسها فى الداخل، ولذلك تعجب القاضى وتعجب المحامى وحولونى إليك.

- ولكن من الذى يمنعك من ممارسة حريتك.

- ما الذى يمنعنى؟ ولكن ما الذى يمنعك أنت؟ هل تمارس أنت حريتك؟ هل يمارس أحد حريته، إن كل إنسان يعيش داخل قفص وجد نفسه فيه، وراء قضبان يعتقد أنها تحميه... وهى فى الحقيقة تمنعه وتقيده وتعوقه، ثم هو يمارس حريته المزعومة داخل هذه القضبان التى تعود عليها حتى لا يكاد يراها... والفرق بينك وبينى أنى رأيت القضبان، ورفضت خداعها وقررت ألا أعيش فى هذا الوهم... وهم الحرية والاختيار... ثم قررت أن أجسِّد هذه القضبان من حولى، فلأقلبها إلى قضبان مادية ملموسة، وبذلك أكون أكثر شجاعة... وأطلق نفسى خارجها. وأثبت أنى أبعد نظرا من كثيرين.

- أحيانا يقوم وهم الاختيار بوظيفة الاختيار ذاتها؟

- أى اختيار وأية وظيفة.. إنك تستطيع أن تختار السير داخل القضبان... أو الجرى داخلها.، تستطيع أن تختار أن تطليها باللون الأخضر أو باللون الأحمر، أما أن تختار أن تخرج منهما فهذه هى المصيبة الكبرى، يسميها البوليس مؤامرة، ويسميها الجيش خيانة، ويسميها الحزب انحرافا، ويسميها القاضى جريمة، وتسميها أنت جنونا، لقد مارستُ كل هذا وأنا أحاول أن أخرج منها، ويبدو أنى سأمارس النوع الأخير معك فى هذا القفص الجديد...، إلا أنى بدأت أتمتع بهذا

القفص لأن الحارس لا يكثر من الأسئلة، أنت وكيل نيابة فاشل... ليس عندك "سين".. ولا "جيم"، ولكن ربما هذه طريقه جديدة للاستجواب... للحصول على الاعتراف بغير جهد كبير.. لكنك لا تستطيع أى شىء إزاء إنسان اختار تحقيق حريته بأن يكون سجينا.

- عندك حق، أنا لا أستطيع إلا بك... ومن خلالك.

- ماذا تريد منى أنت... ما هى تهمتى التى أتت بى إلى هنا؟ إن كان على السرقة فقد سرقت وهددت، وطلبت دخول السجن بنفسى، وهذا هو ما لم يعجب المحامى ولا القاضى ولا أحدا، هذا المحامى الذى عيَّنته الحكومة ضد إرادتى، يريد إثبات أنى غير مكتمل العقل، إنه لا يتصور أن إنساناً يفضل قضبانا حديدية محددة المعالم على حواجز وهمية تحطم ذاته، أنت لا تستطيع فعل شىءٍ ولو كنت تستطيع لكنت فعلت، هكذا كل الناس. الذى يستطيع يفعل والذى لا يستطيع يبحث عن مبررات، الحرية هى القدرة على الفعل.. هى القوة ... هى السيطرة ولكن حتى السيطرة لن تحقق لى شيئا، فقد كنت أستطيع أشياء كثيرة، ولكنى كنت مقيداً بأشياء أكثر، هل تريد أن تعرف كيف؟ هل تحب أن تسمع أكثر.

- أحب أن أسمع كل ما تريد أن تقوله

- ولكنى لا أعرف ما أريد أن أقوله، هل تعرف أنت؟ ربما أخطأ هذا المحامى الأبله العنوان، وكان ينبغى عليه أن يحولنى إلى ضاربة للودع أو قارئة للكف، لماذا لا تستعين بهؤلاء الزملاء يادكتور، لماذا لا تخصص هذه الحجرة المجاورة لهؤلاء المختصين الأذكى ربما أفادونى أكثر وأرشدونى إلى ما أريد، ربما كان ذلك أجدى من جلوسك هكذا بالساعات تحاول أن تفهم ما لا تعرف، لأنه إذا كنت أنا نفسى لا أعرف، فمن أين لك أن تعرف أنت.

- نعرف سوياً.

- ولماذا تعرف أنت؟ إن ما أريد أن أعرفه غير ما تريد أن تعرفه أنت، أنت تريد أن تعرف إن كنتُ مجنونا أم عاقلا، إن كنت مسئولا أم معتوهاً، أما أنا فأريد أن أعرف أشياء أخرى، أريد أن أعرف من أنا؟.. كيف أنا؟ لماذا أنا؟.. كم أنا؟.. أريد أن أعرف نفسى بكل أبعادها، فكيف نعرف "سويا" أشياء مختلفة أشد الاختلاف.

- ولكننا نلتقى بشكل ما، فكل ما يهمك يهمنى.

- أنا؟.. يهمني؟...أنا لا يهمنى شىء البتة، أى شىء يمكن أن يهمني؟... أنا لا أريد شيئا ولا أستطيع شيئا، أنا لست أى شىء حتى يهمنى أو لا يهمنى، حتى تهتم لابد أن "تكون" وأنا لا شئ، ماذا عندك، هل عندك جديد.

- ربما وجدت شيئا.

- أى شىء تتصورونه أنت أو المحامى أو غيركما، هل قضبان القفص عندك من ذهب بدلا من الحديد الصدئ، هل مستشفى الأمراض العقلية أرحم من سجن مصر؟ أنا خبرت كل الطرق ولم يعد هناك شىء أنتظره، لأنه لم يكن هناك أحد ينتظرنى.. أبداً، لماذا تحاول استدراجى وأنا لا أثق فيك، إن وسائل التفاهم بيننا مقطوعة من قبل أن أجيئك، أنا أعيش فى سجن الحذر والتوجس ولهذا فضلت "سجن مصر".. إن تجسيد الأمور فى صورة حقيقية ملموسة أسهل على النفس وأقرب إلى الواقع... يعنى أقرب إلى الصحة، أليست الصحة فى نظركم هى احترام الواقع... إذن فأنا احترم الواقع... لقد عشت سجينا بكل معنى الكلمة، وقد قررت احترام الواقع؟ لهذا أنا دبرت أمورى حتى أدخل السجن الحقيقى حيث أستطيع أن أمسك بالقضبان بين يدى بدلا من أن أتحدث عن قضبان وهمية تنتهى بى إلى حضرتك يا سيادة الطبيب النفسى.. بل دعنى أقول لك الحقيقة: لقد هربت، لقد اخترت الطريق الآخر، اخترت أن أكون مجرماً هرباً منك، من أن أكون مجنونا، أليس ذلك أسهل على النفس؟ إن تكسير الحواجز الاجتماعية أسهل من أن تكسر ذاتك وأنت تحاول إثباتها..؟ ولكن ما باليد حيلة... هربتُ إلى السجن لأقع فى قبضتك أخيرا. كان ينبغى أن أخدع وكيل النيابة أكثر، فحين قلت له أنا هارب "إلى" السجن، صحح قولى، حسب أنى أعنى الهرب "من" السجن، وحين أكدت له أنى لم أخطيء وأنى هارب "إلى" السجن فعلا، لم يفهم أننى أعنى أن سجن مصر أرحم من السجن الكبير الذى نعيش فيه جميعا، أرحم من القيد الذى كبَّلونى به صغيرا...، ونظر إلَّى المحامى- محامى الحكومة، وبرغم ذلك يحاول الحصول لى على البراءة، ولكن الثمن غال، البراءة مقابل أن يلصق بى تهمة المرض، أيهما أفضل يادكتور أن تكون لصا أم أن تكون مجنونا.. ماذا تفضل أنت؟... لا ترد! وبعد ذلك تقول لى... لابد أن أثق فيك. حتى تساعدنى، تساعدنى فى ماذا؟.. أثق بمن؟...ولماذا؟ هل تعرف ثمن الثقة يادكتور؟ هل تعرف ماذا يحدث حين تثق بأحد الناس ثم يخيب ظنك؟ ثم يتخلى عنك؟ هل تعرف أن الثقة هى أغلى ما فى الوجود؟ وأخطره فى ذات الوقت؟ ماذا عندك يدعونى للثقة بك.

- ربما لأنه ليس عندى شىء معين.. أو فكرة مسبقة.. أستحق ثقتك، ربما لأنه ليس معلقا وراء رأسى ميزان العدالة، تستطيع أن تشعر أن الميزان بيدك أنت، وأن ما حدث هو نوع من اضطراب التوازن... ربما تكون المشكلة فى أن تجد أحدا... يسمع... حتى تعيد أنت وزن الأمور، تعيد رؤية الأشياء من زاوية أخرى، حتى بقصد تقويم ذاتك.

- ربما.. ربما.. كل شىء جائز... حتى ما فعلتُـه أنا هكذا يجوز أن يكون صواباً، ربما، ما دامت هناك "ربما" فليس هناك حقيقة ثابتة، إذن لماذا لا تدعونى أدخل بنفسى حيثما أردت، حثيما وضعنى القانون... أو حيثما ينبغى أن يضعنى."ربما" يكون ذلك أفضل، لماذا يحاولون حرمانى من تحقيق أفكارى. "ربما" وجدت حماية فى الداخل أضمن وأوقع من حماية الخارج... ربما.

- ولكن هذا الذى تفعله لا يطمس عليك حقيقة أنك هارب، لقد اخترت الابتعاد عن العالم الخارجى والمسئولية وراء أسوار حقيقية... متصورا أنك بذلك تتحدى العالم... وفى الحقيقة أنت تهرب منه.

- ربما كنت أهرب... بل إنى فعلا أهرب، الناس "فى الخارج" صعب، حين تحتاجهم لا يعطونك، وحين يعطونك تكون قد استغنيت عنهم ولا يعود لعطائهم معنى ولا فائدة، الناس" فى الخارج" صعب، ولذلك فقد قررت أن أدخل برجلىّ إلى الداخل... داخل السجن، هل تعلم يا سيدى لماذا دخلت السجن؟ برغم أنى لا أثق فيك ورغم أنك قد تعتبرنى مجنونا وتحاول تبرئتى إلا أنى ألاحظ أنك تحاول أن تفهم، هذه ميزة فى حد ذاتها: أن تحاول، لذلك سأقول لك.... ربما تفهم، ربما أجد فى النهاية من يفهم وحتى لو لم تفهم فإنى لا أهتم بك... ولماذا أهتم بك... إسمع... ولكن: هل تريدنى أن أقول فعلا؟

وحين هممت بالرد عليه... أكمل دون أن ينتظر ما كنت سأقوله.

- على كل حال فإن ما سأقوله سوف يقلب خططك، فأنت تحاول أن تثبت أنى مجنون... وربما ستعجب حين تعرف أننى حاولت فعلا أنى أكون مجنونا... ولما فشلت - نعم فشلت - سعيت إلى تقرير الواقع لأجلس وراء أسوار الحديد، فعلا، ما أجمل أن تكون القضبان ملموسة... واقعاً محسوساً، بدلا من وهم الحرية فى الخارج، هذا تصرف ربما تعتبرونه غريبا، ولكنه ليس جنونا على كل حال... فقد فشلت أن أجن: هذه مأساتى.

- مأساتك أنك لم تجن؟!

- نعم أليس الجنون فى تعريفكم بعد عن الواقع وعدم احترامه؟ أليس هو تحطيم الأسوار العادية فى دنياكم التقليدية؟... أليس هو تغيير كامل فى الشخصية؟ لقد فشلت فى كل هذا، فأنا مازلت أحترم الواقع بدليل أنى لجأت إلى السرقة حتى أوضع بحكم القانون فى السجن بعد أن فشلت فى الخروج عن الواقع بالجنون، بعد أن فشلت فى تغيير شخصيتى تغييرا جذريا يسمح لكم بلصق تهمة الجنون بى، هل تعلم ما الذى جعلنى أعدل عن قرار الجنون؟

- ....؟

- الشفقة.. وأسوار الألفاظ، لقد أبيت أن يشفق الناس علىّ، لقد أبيت - أو قل لم أستطع- أن أبدو ضعيفا أمام أحد، لم أرضَ أن أُسجن وراء تشخيص من تشخيصاتكم التى لا معنى لها... الجنون الحقيقى هو الحرية الكاملة، ولا توجد حرية كاملة حتى وراء أسوار مستشفى الأمراض العقلية، لذلك فقد رفضت الشفقة والضعف ووشم التشخيص الذى سوف تلصقونه بى، وفضّلت أن أكون مجرما بمحض إرادتى، فضلت تجسيم الواقع بالعيش وراء أسوار السجن على تزييف الحرية بتحطيم أسوار الواقع بالجنون، اكتشفت ببعد نظرى أن تشخيصاتكم ومستشفى

الأمراض العقلية واقع أمرّ من واقع الحياة التى رفضتها، هل تذكر أنى قلت لك فى أول الحديث لقد اخترت أن أكون مجرما هربا منك.. هرباً من أن أكون مجنونا؟ فى الحقيقة أنا لم أهرب من الجنون ذاته ولكنى لم أستطع أن أقبل الضعف ولا الشفقة، ولا الصورة التى ترسمونها فى أذهانكم للجنون، وجدت أن الجنون ذاته له أسوار، وأن مأساتى ستنقلب إلى ألفاظ لاتينية تتشدق بها أنت وزملاؤك، فرفضت كل ذلك، رفضت أن أصبح سجينك أنت بعد أن عشت سجين الناس والمجتمع، لذلك فأنا أنصحك لوجه الله أن توفر جهدك، فأنت تحاول أن تثبت ما لم أستطع أن أحققه، تحاول أن تثبت أنى غير مسئول، وأنا أحكى لك مسئوليتى كاملة، مسئوليتى عن الجريمة، عن الحياة، بل عن فشلى فى أن أجن لأصبح كما يزعمون.

- أنا لا أحاول شيئا الآن... لابد أن تدرك أنى أحاول مساعدتك ليس إلا، أحاول أن نناقش اختيارك الجديد، هل سيفي بغرضك أم لا؟ وأنا أطرح سؤالا عليك: هل اختيارك هذا حل لمشكلة وجودك؟

- اختيارى؟ وجودى؟ هل أنا اخترت، وهل يمكن أن أختار؟ يبدو ذلك ممكنا فى الظاهر، ولكن عندك حق... أين وضعنى اختيارى هذا؟ هل السجن الحديدى أفضل من السجن النفسى؟ لم أعد أدرى، هذه هى مشكلتى فعلا، أريد أن أختار "أنا" بنفسى، وهذا ما لم أحققه أبدا رغم أنى قضيت حياتى كلها أصارع من أجله.

- وكيف ذلك؟

- ولكنها قصة قديمة مكررة، لابد أنك سمعت مئات مثلها لأنها قصة كل يوم، أو هى خدعة كل يوم: "أن تختار"!.. ماذا تختار؟ منذ كنت طفلا وأنا أحاول أن أختار أحاول أن أثبت لنفسى أنى أنا الذى اختار، كنت اختار عكس ما يختار أخى الأكبر...، إذا اختار الأحمر اخترت الأبيض، وإذا قال "أخرج" قلت "أبقى" أنت تعرف هذه القصة العادية فليس فيها جديد فهى فى كل بيت وكل أسرة، ولكن أنا.، لماذا كنت أشعر بها وكأنها مأساة العالم؟ حين كنت طفلا لم يكن يعنينى ما يحدث عند الجيران أو حتى ربما ما يحدث لك أنت، كنت فى محاولات دائبة لإعلان وجودى، ولم أنجح فى ذلك أبدا لأنى كنت خامس "ذكر" فى عائلة تريد أن تقتنى من كل صنف عددا ما. عندها الذكور فكانت تريد أن تكمل "المجموعة" ببنت ظريفة تكون "حبيبة أمها". ما ذنبى أنى كنت شيئا مكررا فى المجموعة التى يقتنونها، لقد جئت على غير رغبتهم، ولكنها على كل حال لم تكن رغبتى، وحين جاءت "حبيبة أمها" أختى الوحيدة، جاءت بعدى وبعد حمل متعسر، كانوا ينتظرونها، ولكنها تأخرت إلى القطار التالى، كل هذا يفسر موقفى فمنذ أن وصلتُ خطأ قوبلتُ بالسخط بل بالرفض. لم يكونوا "ينقصوننى" على حد تعبيرهم، ومازلت أذكر هذه الجملة ترددها والدتى وترن فى أذنى حتى الآن "إحنا كنا ناقصينك"؟ وبعد أن وصلت أختى فى القطار التالى خف السخط

على لأنهم نسونى تماما، هل تعلم ياسيدى أنى كنت أتمتع بالسخط لأنه كان يشعرنى بكيانى "المسخوط عليه"... ولكن ذلك الإهمال... هو الموت البارد ذاته... لم يعد لى وجود فعلا رغم أنهم لم يتأخروا فى "واجباتهم" تجاهى مثلى مثل الآخرين، وحين كبرت وبدأت أناقش وضعى كانوا دائما يحتجون بأنه لا ينقصنى شىء... وكان هذا كله يثيرنى حتى أفقدنى معنى كل شىء، كان كل ما يعنيهم هو "الواجب"، كنت أحس بلفح العواطف تحوم حولى ولكنها لا تصل لكيانى أبدا، إن الذى يشعرك بالبرودة أكثر هو أن يقترب منك الدفء ولكن لا يصل إليك. هنا تصيح كل خلية فى عقلك وجسمك صيحة الحاجة. وكأنها قطط صغيرة ترتجف من البرد والجوع وتفتح أفواهها تموء طلباً للدفء. والحياة، ثم لا تجد شيئا، كانت العواطف توجه لمن جاء قبلى - بحكم العادة - ومن جاءت بعدى- بحكم الصنف الجديد - "حبيبة أمها". أما أنا.. فأنا الذى جئت خطأ، كنت أحس دائما أنى رقم.. مجرد رقم، ولكنه رقم بعد العلامة العشرية ليس له إلا قيمة الكسور، كنت أحس أنى جئت بعد ما استكفوا، فوضعوا علامة بعد أخوتى الأربعة، فجئت بعد هذه العلامة، هذا حين كنت "مسخوطا علىّ مرفوضا" أما بعد أن أصبحت مُهْملا... أصبحت صفراً عظيما على يمين العلامة أيضا. وأنت تعلم ما قيمة الصفر بعد العلامة العشرية... هل تستطيع أن تتابعنى يا دكتور.

- بكل تأكيد.

- "برافو"... شاطر أنت فى الحساب، كنت رقم "خمسة" "أنا"، بل بالأحرى كنت "الرابع مكرر" حيث كان المنتظر من أخى الرابع أن يكون أيضا بنتا، ولكنهم أكرموا وفادته لأن الدنيا لم تكن قد ازدحمت بعد، لم يكونوا قد وضعوا العلامة العشرية بعد، أما أنا... ما ذنبى أنا؟ هل خيرونى فى المجيء. لماذا لا يؤخذ رأى الأولاد قبل أن تصنعهم نشوة ليلة دافئة بهيجة، أو تصنعهم رغبة فى النوم عن طريق التخلص من توتر فسيولوجى بعد يوم قلق؟ فلتركزوا يا دكتور على ذلك فهذا أجدى من إلصاق تهم المرض بالناس... وأجدى من أبحاث العد والضرب والطرح والقسمة فى مشاعر الناس... أنت معى يا دكتور؟

- طبعا.

- وما رأيك؟

- فى ماذا؟

- فى هذا الاقتراح...، أن يؤخذ رأى الجنين فى تحديد نوعه، أليس هذا مشروع بحث علمى يمكن أن تترقى به فى سلك وظيفتك... أليست الأبحاث العلمية عندكم وسيلة للترقي أم أن هذه أصبحت موضة قديمة بعد أن زادت الأبحاث المضروبة؟

- يعنى..!!

- دع اختيار النوع جانبا، ما رأيك أن يؤخذ رأى الجنين، فى قدومه أصلا، ثم هم: ماداموا لا يريدونه، إلا بشروطهم لماذا يعرضونه لكل هذا الضياع. ماذا كان سيحدث لو نقص العالم واحدا مثلي؟ ولماذا لم يئدونى كما كانوا يفعلون مع البنات فى الجاهلية؟ لعلك تسأل الآن بدورك: ولماذا لا أذهب أنا؟ لقد فكرت فى ذلك ووجدته سخيفاً سخف الجنون ذاته. لماذا أنهى حياتى وأنا لم أصنعها، بل لم أعشها، إن الانتحار هو التخلص من الحياة، ولكنى لست حياً بهذه الصورة فممَّ أتخلص؟ لذلك قررت أن أحسم واقع الحياة بالهرب وراء تلك القضبان، لقد كنت مجرد رقم وفى السجن سيصبح لى رقم، فعلا، وسأعلق رقمي على ذراعى أو فوق صدرى سوف أحقق الواقع الذى عشته. هل تحب أن تعرف كيف كنت رقماً؟ هل أضرب لك مثلا؟ حتى تفهم إن كنتَ تريد أن تفهم

- نعم.

- كنا فى العيد... وقال أبى لأمى أنه سيشترى أربعة أحذية... وقالت أمى: اجعلهم خمسة، ورن الرقم فى ذهنى، لماذا نسينى أبى، ولم تذكرنى أمى بالاسم؟ أنا "حذاء خامس"... نمرة خمسة. هذا هو كل ما هنالك.

وحين تقدمت فى العمر، علا صوتى وتعلمت ما هو الاحتجاج وأصبحت صداع الأسرة المزمن، رفضت أن أكون رقما مكررا... فماذا صرت؟ صرت رقما معكوساً، كنت أختار عكس ما يختارون لى، وباستمرار كنت أحاول أن أشعرهم أن المسألة أكثر من زيادة حساب الملابس والأحذية، بل كثيرا ما فكرت أنه حتى هذه الزيادة لم تشعرهم بى لأنهم ربما اشتروا الأشياء أرخص "بسعر الجملة"، وكثيرا ما كنت أتأخر عن ميعاد الطعام فلا يسأل عنى أحد، بل إنى كنت اختبيء بالساعات فى ركن مظلم بارد لمجرد أن أكتشف هل افتقدنى أحد أم لا، وحين يقرصنى الجوع أخرج من مخبئى... ولكن لا أحد ينتظرنى.. لا أحد يفتقدنى. وكأن شيئا لم يكن، ثم وجدت أنه لا داعى لأن أختبيء حتى أعرف من أنا، يكفى أن أجلس ساكنا بلا حراك حتى أضيع وسط الزحام.. ولا يشعر أحد بوجودى.. كنت أحيانا أشعر أن أى أحد يمكن أن يتعثر فىّ وهو يسير كما يتعثر فى الكرسى أو فى أى شيء ملقى على الأرض، وحين انتبهت لكل ذلك حاولت أن احتج فبدل أن كنت "زائد واحد" أصبحت "ناقص واحد" لأنى أخذت اختار العكس على طول الخط، حتى أصبح مفهوما مسبقا ما سأقول، وبذا فقد الاختيار معناه. كنت أخالف حتى أُعرف، لكنى خالفت حتى لم أعد أُعرف، ألا يكفى هذا، هل يمكن أن نقفل المحضر الآن؟ ألم تتم أقوالى بعد؟

- ولكن لماذا تصر على موقف المتهم؟

- لأنى متهم فعلا... ألم أسرق بالإكراه؟ ألم يحولونى إليك لتقرير سلامة عقلي؟ ألا يكفى هذا لأكون متهما؟

- ولكنك أنت الذى اخترت هذا السبيل بنفسك، أنت المدعى الذى قررت أن تكون متهما.

- لقد سعيت إلى السجن، ولكنى لم أسع إليك، وعلى كل حال.. يبدو أن مقابلتك مصادفة لم تكن فى حسبانى، يبدو أن عندك شيئاً آخر.

- فهل نراجع اختيارك

- أنا موافق أنه يستحق المراجعة.. لا من حيث المبدأ، ولكن التفاصيل كانت مفاجأة.. لأنى وجدت أن بالداخل ناساً، يسمونهم مجرمين وهم كذلك ، ولكنى لا أخافهم لأنهم مجرمون بل أخافهم لأنهم ناس، مجرد ناس، الناس يخيفون أكثر من المجرمين! المجرم يفعل فعلته فى وضح النهار.. فالحذر منه سهل، والقانون له بالمرصاد... أما الناس حين يغتالون كيانك، حين يسجنونك فى آرائهم التى لا يعرفون لها قيمة حقيقية، حين يكرهونك إذا اختلفت عنهم... ليس لهم قانون يردعهم... بل أحيانا يكون القانون عليك.

- ولكن لا بد من احترام ما هو قائم حتى يتم تغييره إلى ما هو أحسن.

- تغييره؟... نعم!! ربما يكون هذا هو السبيل، لقد فوجئت فى الداخل بقيودى تسير معى، وكانت مفاجأة حين انتهكوا وحدتى وأنا جالس وراء القضبان، كنت رقما جديدا... فلم تتحدد لى معالم جديدة لم ينفع الرقم بديلا عن اسمى... الذى نسيته أنا ذاتى... ولكن كيف؟ هل تتصور أن إنسانا ينسى اسمه أحيانا.

- أحيانا.

- لقد نسوه دائما فلماذا أذكره، إن للاسم رنينا إذا كان لصاحبه كيان، ولكنه صدى أجوف إذا كنت لا شيء... لا شيء.

- وحين فعلت ما فعلت ماذا أحسستَ لحظتها؟

- لحظتها؟ كانت سيدة عجوز لم أحاول إيذاءها ولكنى تعمدت أن آخذ الحلى أمامها، بل أقول لك الحقيقة، لقد أرغمتها أن تناولها لى بيدها من داخل الصوان، لماذا لم آخذها أنا بنفسى، لا أدرى، ولكنى ساعتها كنت أريد أن تعطينى هى أغلى ما لديها، أن تعطينى جزءاً من نفسها وبالإكراه، أنت تعلم كيف تكون الحلى قريبة إلى نفس عجوز، وحيدة، إنها تصبح جزءاً منها، وقد أخذت هذا الجزء، بل للدقة لقد اضطررتها أن تعطينيه، ولكنى حين استوليت عليه وخرجت، لم أحاول أن أبيعه... فقد العمل كله معناه، لم يعد له قيمة، شعرت أنى احمل ثقلا من النحاس والزجاج، وذهبت إلى اقرب قسم بوليس، وأبلغت عن نفسى وانا ممتلىء بشعور التفاهه: ما فائدة أن أرغم إمراة عجوزاً وحيدة أن تعطينى، ما فائدة كل هذا، ما فائدة ان ترغم أحدا أن يعطيك؟ العطاء لا يكون عطاء إلا إذا خرج من نفس إنسان لآخر تلقائيا، برضى، باختيار، بحب، نعم بحب... هذا هو الموضوع.

- نعم... هذا هو الموضوع "العطاء... والأخذ... بحب"

وسكت قليلا وتغيرت نظرته وأخذ يتأمل وجهى مليا ثم قال:

- ولكن كيف عرفت أن "هذا هو الموضوع؟"

قلت:

- لأن هذا - فعلا- هو الموضوع... ليست السرقة ولا التهمة، ولا الجنون ولا شىء يهم سوى هذا الموضوع.

- نعم.. ولكن لابد أن تعيش مأساتى حتى تشعر أن هذا هو الموضوع.

- أو أن أعيش مشاعرك وأنت معى... أن أنبض مع ألفاظك.. أن أصدّقك، هذا هو الطريق إلى فهم مأساتك

- إذن هى ليست مناقشة عقلية أو تمرين هندسة تحاول أن تحله لتأخذ عشرة على عشرة.

- بل هى مأساة إنسان أحاول أن أعيشها معه ولو لحظات.. لأشعر بخفق مشاعره فأفهم. فأحس... فأحب. فأساعد، فيتقبل.. إن استطعنا

- وهل نستطيع

- نحاول.

- ولكن إذا كانت والدتى التى أنجبتنى لم تستطع.. فكيف تستطيع أنت.

- والدتك لم تقصد.

- ولكن الأطفال حين يقذفون الضفادع بالحجارة لا يقصدون قتلها، وحين تموت الضفادع تموت جدا لا هزلا، أليس هذا مثلا صينيا على ما أذكر؟

- هو كذلك... ولكنا نعيش لحظة "الآن" و"أنت"

- فهل تعيشها معى. وهل تستطيع فعلا.

- ما رأيك؟

- أراك تحاول.

- فهل نتفاهم؟

- ربما... ولكن

- ولكن ماذا؟

- أنا بردان.

-...

- اريد الدفء... لقد ولدت فى شهر ديسمبر وما زالت الحياة كلها ليلا طويلا باردا... انا ارتجف احيانا واحس بالبرد فى عز الصيف، الستَ طبيباً مثل الأطباء؟. ربما كان عندى "ملاريا" وهى اسهل فى التشخيص مما تحاولون إثباته. عينة من الدم... شريحة من الزجاج و"ميكروسكوب" وسلامتك وتعيش، أما ما تفعله أنت... كان الله فى عونك، ولكن قل لى يا دكتور: ما الذى دفعك لاختيار هذه المهنة؟.. هل تتمتع بالفرجة على مأساة البشرية، وإلا فلماذا أنت تتعب كل هذا التعب؟ وانت تستطيع ان تكسب أضعافا مضاعفة من مهنتك الأصلية.

- ولكن هذه هى مهنتى الأصلية.

- ماذا؟

- أن اكون إنسانا بالقرب من إنسان يحتاجنى.

- طبيب يترك مهنة الطب ليكون إنسانا.. هل هذه وظيفة؟

- حين يفتقر الناس لإنسان يفهم... من خلال مشاركتهم مأساتهم... لا لمجرد أنه يحفظ الكتب، تصبح - للأسف - صفة الإنسان مهنة.

- ما أعجب كل هذا... ومن هو الإنسان.

- هو الشخص الذى يستطيع أن يمنح الحب الدائم الدافيء... ويستقبل المشاعر بصدق وأمانة حتى يذوب الجليد الذى نعيش فيه، برغم كل شىء

- وهل يذوب؟

- لا بديل لذلك.

- وبعد أن يذوب... ماذا أفعل بالخوف من الناس لو تكررت المأساة: حين أحتاجهم لا أجدهم، وحين استغنى عنهم بالبرود العاطفى، لا أجد لأى شىء معنى ولا جدوى، حتى إذا عادوا فأعطونى، يكون قد فات الأوان، وأرجع إلى بلادتى.

- إذا ذاب الجليد فعلا... دبت فيك الحياة... وأصبحت أنت مصدرا للحرارة... والحرارة ستذيب الجليد الذى يفصلك عن الآخرين حتى ولو كان يحيط بهم هم، لأنك تستطيع أن تمنح الحب فى قوة وثقة وأمان، ولن تنتظر الكثير بل أنت ستتأكد من الاستجابة المخلصة مهما طال الزمن.

- لا تعدنى بما لا يكون، بما لن يكون.

- ولكنك تشعر الآن بشىء جديد.

- قد تستطيع أن تحكم على نفسك، ولكن الناس شىء آخر.

- أنا من الناس.

- ولكنك تمتهن مهنة "إنسان" ربما أثناء تواجدك فى العيادة، وربما تعود بعد ذلك مثل الناس.

- ولكنى مثل الناس فعلا... كل ما فى الأمر أن قسوة الحياة جعلتك لا ترى فى الناس إلا الشر والخيانة.

- ولكنهم كذلك.

- ليس تماما.

- كيف؟

- حين تحب... تمنح دون حساب ودون رجاء... وحين لا تنتظر الكثير... يتجمع القليل ليصبح كثيرا، الناس جميعا رغم قسوتهم الظاهرة "مساكين" لا يدركون ما يفعلون ببعضهم البعض، وفى نفس الوقت لا يكفون عن أن يعطوت بعضهم بعضا حتى وهم لا يقصدون.

- أنت بتصورك هذا أجن منى، لعلك تتصور أنك أنت الذى سوف تصلح الكون؟

- بل أنت.

- أنا؟

- نعم أنت... حين تحب وتعطى ستشعر بالقدرة التى لا حدود لها... وسيصبح لكل شىء معنى.

- كيف أعطى وأنا لم آخذ... وحين سرقت وسموها "سرقة بالإكراه" كان الدافع أن أجعلها -هذه السيدة المسكينة- تعطينى حليها... أنا أريد أن يعطونى. أريد أحدا يعطينى ذاتى.

- إن أحداً لن يعطيك ذاتك... إنك أنت الذى ستخلقها من جديد...

- كيف؟

- لو استوعبنا معا ما تحسه الآن هنا... سوف ترى رؤية جديدة وتتعلم أشياء جديدة، ثم تمارس مشاعر جديدة... ثم تنطلق إلى رحاب الناس بما هم، كيف هم، فيصلك القليل كثيرا، فتجدك أنت الكسبان

- ما أبعد ذلك.

- وأروعه.

- لعل... لعل للأمر وجه آخر

- دعنا نحاول

****

قال الفتى للحكيم:

- آه لو تم كل هذا، إذن لتغير وجه الحياة. ولكن حديثنا

عن ذلك الفتى الهارب إلى السجن، الذى فشل فى أن يجن، لم يُنْسِنِى حديثنا الأول عن ذلك الفتى الثائر الذى آمن بكل شىء، بحثا عن الشىء الحقيقى، وحين لم يجده فقد نفسه... واضطربت عليه الأمور... فحدثنى عنه، فقد طال بى الشوق إليه.

الثلاثـــــاء 28-06-2011

1397-الشعلــــــة والحريـــــق

كتاب جديد (قديم)

عندما يتعرى الإنسان (5 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

الشعلة والحريق

قال الحكيم:

- حكاية ذلك الفتى الثائر هى حكاية هذا العصر، بل وكل عصر، وقد شغلنا الاستطراد فى حديث "القفص والسجن" عن صديقنا هذا الذى آمن حتى كفر، وعاش الكلمات التى قرأها بكل عمق وإحساس نقى، وحين أراد تحقيقها وجد كل شىء مختلفاً... ، أراد أن يضيء فاحترق... أو كاد.

قال الفتى:

- وكيف كان ذلك؟

قال الحكيم:

- هو فتى من أرض هذا البلد الطيب، حمل فى نفسه تراث حضارة قديمة أصيلة، وفى جوفه طمى نيلها القوى الجبار، وانصهرت كل خلية من خلاياه بشمسها المشرقة الدافئة، وكان يؤلمه أشد الألم أن ينبض وجدانه بكل هذا الصدق والأمل، ثم هو لا يجد حوله إلا هذا التراخى والشلل، واتجه إلى الكتاب فعشق الكلمات من صغره، فمنذ العاشرة وهو يقرأ كل ما تقع عليه عيناه، آسف... لم يكن يقرأ الكلمات بل كان يعيشها، لم تكن الصفحات أمام عينيه مسطحة ملساء بل كانت دنيا زاخرة بالأشخاص، تنبض بالحياة، لم يفرق أبدا بين اللفظ والمعنى، كان اللفظ هو معناه فى نفس الوقت... بل هو حقيقته.. كانت الألفاظ حقائق قائمة تسير فى الحياة. بل هى الحياة. وكان من أول ما عرف من ألفاظ هو كلام الله سبحانه وتعالى، ومثل أهل هذه الأرض الطيبة المنبسطة كان الإيمان عنده أمرا بديهياً لا يحتاج إلى منطق أو تفكير، فلأمر ما يدخل الإيمان هنا- إلى

القلوب مباشرة دون تفسير ودون جهد ودون مراجعة، أهى دعة الطبيعة تثير هذا الشىء بداخل أنفسنا؟ الشىء النابض بالجوع إلى الاتصال بأصل الوجود؟ لماذا ظهرت الديانات السماوية كلها فى هذه الأرض أو قريبا من هذه الأرض؟ وكيف لا؟ كيف يمكن وسط هذه الطبيعة السهلة ألا يتحرر الانسان من قشرته الزائفة فإذا به جزء من كل ما حوله، يحس بالأمن والخير، يحس بالقوة والحق، يحس بالصدق والأمل، إذن هو الدين فى صورته الأصيلة، وقد كان نبض الدين فى عروق صاحبنا أصيل وعميق، ولكنه حين دخل حظيرة الدين دخلها فى صدر شبابه من باب جانبى، وإذا به فى متاهات وسراديب... وابتدأت تجربته.

جاء إلىّ شبه مختار... وجلس..

وقال:

- لقد كفرتُ بكل شئ.

قلت:

- بماذا؟

قال:

- كفرت بكل ما يقال.. وكل ما كان.. وكل ما هو كائن، وكل ما سيكون، بكل ما كتبوه، وما لم يكتبوه، بكل شئ وكل أحد.

قلت:

- وأنت؟

قال:

- كفرت بنفسى أولا وقبل كل شىء.. كفرت بالأصل والفرع، بالسبب والنتيجة، بالحق والباطل، كفرت بالشىء وضده.

قلت:

- والانسان.. والغد؟

فقال:

- وبالذات كفرت بالإنسان... وبالذات كفرت بالغد.. لقد خُـدعت بما فيه الكفاية، وما بقى منى هو العفن الطافى فوق الجسد المتآكل، اشتعلتُ حتى احترقت، وحتى الحريق لم يكمل مهمته فيتركنى ترابا مقدسا، بل تركنى جسدا مشوها منتفخا سرعان ما فاحت رائحته... لست رمادا بعد.. لم أمت.. بل جننت. أو هكذا تسمون أمثالى، الموت ينتهى إلى رماد نقى جاف، أما الجنون فهو موت عفن كريه، لم أستطع حتى الموت.. لأنى كفرت بكل شىء حتى الموت.

قلت:

- ولكنك مازلت.. هنا

قــال:

- أنـا هنـا لأتـفرج عليك، كنت قـد قـرأت عنكم معشر الـدجالين والمشعوذيـن والـفلاسفة وعلماء الـنفس وأطبائـها ما شغلنى وبهرنى لـفترة من الـزمان، ولـكن مثل كل ما قـرأت كان يُشعل فىّ شمعة لها ضوء نـورانى بـديع، وما إن أقـترب منه وأحاول أن أرى من خلالـه الـطريـق حتى أحترق، يحترق إصبعى ثم تـلفح الـنار وجهى، ثم تحترق نـفسى ثم مـبادئـى ومُـثُلى وفكرى، ويـالـيـتهم تـركونى حتى الـنهايـة... إذن لأصبحت رمـادا نقـيا، ولـكن مَـنْ حولى أطفأونى فـلم يـبق إلا جسد ممزق لا حيـاة فـيه، ألا تـعرف يـا سيادة الـطبيب تـلك الـرائحة المميزة فى من تـسمونهم المجانين، نحن، أنـتم تـقـولـون إنها رائحة الـعرق لأنهم لا يـستحمّون، هذا وهم سخيف، إنها رائحة عالمية تجدها تـفـوح من كل من تـودعونه مصحاتـكم، إنها رائحة الحى الميت، مـا علـينـا لا أريـد أن أجهّلك قـبل أن أعرفك..، أقـول كـنت قـد قـرأت عنكم معشر الـدجالين وأطبـاء الـنفس مـا بهرنى وأضاء فىَّ شمعة من الـشمعات الـتى أحرقـتنى، ثم طفت جولـتى بـين الـكلمات والأشخاص، بـين الـنظريـة والـتطبيق، بـين المبـادئ والـواقـع، وانـتهيت إلى مـا تـرى، وجـاء ذكـرك شخصيـا فى نهايـة المطاف قـلت أتم الجولـة بـك.

قـلت:

- قـل مـا شئت.، ولـكن تـذكـر دائـما أن هـنـاك احتمـالا آخر.

قــال:

- أى احـتمـال آخـر.. لـقـد جربـت كل الاحتمـالات.. هل أحكى لـك مـن الأول.. أم تختـار أنـت.. لـقـد جربـت كل الاحتمـالات.

قـلت:

- قـل مـا تـشاء.

قــال:

- كـان الـطريـق الأول هو طريـق الـديـن.. وكـنت مـثل سكـان هذه الأرض الـطيـبة - الـتى لم أعد أعرف لمـاذا هى رغم كل شىء مـا زالـت طيـبة - كـنت أحب الحق، الحق، كـان هذ هـو الـديـن الـذى دخل إلى وجدانى دون تـفكير، ولـكنى أيـضا كـنت أحب الـنـاس، كـل الـنـاس، ومـن أى ديـن، وسمعت حيـنـذاك دعـوة تـقـول إن الـديـن هـو دستـور الـدنـيـا والآخـرة، هـو الأول والآخـر، هـو الـسيـاسة والأخلاق، هـو الـتـجـارة والـصنـاعـة، هـو الـعـدالـة الاجتمـاعيـة والاشتراكيـة وكل شىء، هـو الحل لـكل معضل.. لـكل مشكل، وكـنت - وقـبـل أن أقـرأ أى شىء أشعر بـأنـه لابـد أن يـكـون الـديـن فعلا هـو كل هـذا، وبمـا أن الـديـن هـو اتـصال الانـسان بـأصل الـوجـود، وبمـا أن الـديـن هـو الـفطـرة الـسليـمة، والـفطـرة هـى الجمـال والـسهـولـة والحريـة والحق والـقـوة والحب فى آن، إذن: فـلا بـد أن الـديـن هـو كل شىء. ودخلت مع تـلك الـزمـرة الـتى كـانـت تـنـادى بهتـافـات نهتـز لهـا صدقـا وحمـاساً.. وجلـسنـا نـتـدارس الـديـن فى

حلقات كانوا يسمونها "أسر"، ما أحلى أن يجتمع الشباب حول كتاب الله يشرق بالنور والهداية، وتفقهنا - ولكن كان ممنوعا علينا أن نتفقه أكثر مما ينبغى، استبدلوا كتاب الله بكتيبات صغيرة تدخل إلى العقل من الباب الجانبى للوجدان، ثم تتربع فوق العقل، ثم تشل حركته، وحين تشل حركة الإنسان حيث تضيع منه ذاته، وتقوم الكلمات حواجز بينه وبين ربه، بدلا من أن تكون كلمات المفتاح إليه، تضيع كل المعالم كنت أحاول أن أرى نور الكلمات على الوجوه.. وكنت أجده أحياناً، ولكننى فى أغلب الأحيان كنت أصدم بالتزمت والقسوة، كنت أحاول أن أتلمس نبض الوجدان فأجد أن صفعات الألفاظ تنهى وتأمر، وأخذت أختنق رويدا رويدا.. وملأنى الغيظ والحنق وأنا أرى الألفاظ المضيئة وهى تُستعمل لتنير دهاليز لا أعرفها، توصــــل إلى حجرات تحت الأرض كلها ظلام فى ظلام، هى حجرات الأسر السرية قلت فى نفسى: كيف؟ كيف يكون طريق النور هو حجرات مظلمة تحت الأرض؟ وكيف يتجنبون كلام الله بشموله ورحمته، ولا نتدارس إلا الحرب والضرب والجهاد الموصى عليه... لقد كان الجهاد وسيلة لتعميق وتثبيت الإيمان.. ولكنه لم يكن بديلا عنه..، وصعدت السلم درجة درجة، وكلما صعدت درجة فجعت فجيعة، فأسرة الشبيبة غير أسرة الشباب العلنى، وهى أنقى وأطهر من أسرة الشباب السرى التى كانت بدورها أصدق وأشرف من مستويات المسئولين عن الإرشاد.. آه من "المسئولين".. كلما اقتربت من مسئول كانت فجيعتى أكبر، هل أنت مسئول يا دكتور؟

- نعم.. أنا مسئول عن صحة الناس.. هذه مهنتى.

- إذن. فأنت لا تعرف معنى كلمة "مسئول" لو عرفتها ما وصفت نفسك بها، أو لعلك مثلهم تافه وسطحى ومتسرع، كنت وأنا صغير أعتبر المسئول مسئولا، فإذا بى أكتشف أنه كلما كان الإنسان مسئولا كانت قراراته أكثر سطحية وتصرفاته اكثر انفعالية، وشخصيته من الداخل أكثر اهتزازا، لماذا هذا التناقض يا دكتور؟

- التناقض هو من قوانين الحياة وهو المحرّك الأول فى تطور الانسان واستمرار الحياة

- آه.. تطور الإنسان؟ أنت تحلم كما كنت أحلم وأنا صغير، يبدو أنك لم تنضج بعد يا دكتور، كيف تقف هذا الموقف وقد شاب المتبقى من شعرك على صلعتك؟ سأعلمك أنا معنى التناقض والنضج: التناقض الجارى هو أن تؤمن حتى تكفر، أن تحب حتى تكره، أن تتحمس حتى تتبلد، أن تصرخ حتى ينحبس صوتك، أن تكبر حتى تموت.. هذا هو التناقض.. أما النضج المعروض فهو أن تتشكل وتتلون لتتكيف مع كل زيف حولك، ما علينا، دخلت باب الدين متسلحا بالإيمان، وتُهت فى سراديب الرسائل الصغيرة واختنقت برائحة الحجرات الرطبة المظلمة تحت الأرض، وأخذت الشموع تخبو فى نفسى، وأظلم عقلى ولكننى مددت يدى أتحسس وجدانى فلسعتنى النار، وفرحت فقد علمت أن الشعلة ما زالت

هناك، لم تخمد بعد، استمتعت بلسع النار لأنه أيقظنى قبل أن يفوت الأوان، قبل أن يعطونى مسدسا أقتل به إنسانا لا أعرفه، قالوا إنه عدو الله، لسعتنى نار وجدانى فأنقذتنى قبل أن يطمسوا عقلى بالترانيم والأقانيم والتعاويذ والتسابيح، وحفاظاً على نفسى كفرت بما يفعلون، ولم أكفر بجوهر الأشياء، احتفظت بالإيمان وكفرت بالكهنوت، حافظت على صلة الإنسان بأصل الوجود ورفضت أوامر القيادات الفارغة الجوفاء، رفضت اهتزاز اللحى وهى تعزف مقطوعة القتل بعد التكفير، رفضت أن يشوه الإنسان الخير. كيف يصبح الدين االنابض بالحب والتسامح هو هو طاقة الحقد والقسوة والتزمت؟ لماذا يفعل الناس بأنفسهم وبمعتقداتهم هكذا؟

****

وانتهت فترة نابضة قاسية من صدر شبابى. وانطفأت إحدى الشموع، ولكن ضوءا خافتاً آخر بدأ فى الظهور، هل تريد أن تعرف بماذا آمنت بعد ذلك؟ ولكن قل لى يا دكتور هل تؤمن أنت بشىء، أم أنك ترتزق مثل سائر الكهنة المرتزقة من احتراف مهنة ما.. طبعا أنت مرتزق، هذا واضح، ولكن هذا لا يمنع من السؤال: هل تؤمن بشىء؟

- أنا لا أصلح لهذا العمل إن لم أومن.

- وبماذا تؤمن؟

- أؤمن بالحياة تتحرك نحو غايتها، أؤمن بالإنسان وسلامة توجهه،.. أومن بقدرته على التطور إلى ما بعده وعلى التجديد فيما عنده،

- يا سبحان الله.. يظهر أنه لابد أن تسير طريقى كله حتى تكفر بكل هذا.. أنت تتفرج على الناس من فوق كرسيك هذا وتتشدق بالألفاظ، ولكنك لا تعايشها مثلما فعلت، ولكن قل لى بالله عليك كيف تحتفظ بإيمانك هذا وأنت ترى الفشل تلو الفشل فى صورتنا نحن المرضى.. ألا نيئسك فى حياتك وآمالك حين نفشل ونستسلم؟ هل مازلت ترى نبض الإنسان وراء حطام مثل هذا الجسد الحى الميت: أنا

- إن ما حافظ على إيمانى هذا هو قدرة الإنسان الخارقة على أن يجمع شتات نفسه رغم كل شىء وبعد كل شىء... إن مازاد إيمانى بالإنسان هو رؤيتى له عاريا يصارع الزيف بالألم، نعم بل حتى بالمرض.. "أنت" الذى حافظت على إيمانى هذا.

- أنا.. الله أكبر!.. أنا الذى كفرت بكل شىء أجعلك تحافظ على إيمانك، ما أعجب هذا: نبى كافر يؤمن من خلاله الناس.. أليس هذا هو الجنون بعينه.

- انت ضقت بكل شئ.. ولكنك لم تكفر بعد.. وإلا لما كنت هنا.

- أنا هنا حتى أكفر بك أنت أيضا.. أكفر بالطب وبالعلم. نعم العلم الطبى بعد أن كفرت بالعلم السياسى والاجتماعى.. هل تريد ان تسمع بقية حكاية الإيمان حتى الكفر؟

- ....

- **اسمع يا سيدى:** حين تهت فى سراديب الكهنوت، وانتهى الإيمان إلى غيابات التنظيم السرى، وانقلب نور كلام الله إلى إرهاب كلام القادة والمرشدين، حين تصورت ما بين دفتى المصحف حلا لكل شىء فإذا بهم يستعملونى وسيلة للقهر والقتل والإرهاب الفكرى وجدت نفسى أرتمى فى أحضان النقيض، وذهبت إلى حيث وجهتنى قراءاتى الاشتراكية العلمية، فقد كنت مازلت أتلمس الطريق بما أقرأ من كلمات توجهنى، وهناك فى أروقة المادية الجدلية رأيت الإنسان ينتصر على شهواته، قرأت عن التطور والعدل، عن الرحمة وحسن التوزيع، عن العمل والإنتاج قرأت وطربت ورقصت الكلمات فى وجدانى رغم أنى تململت من بعض التفاسير المادية البحتة، ورغم أن داخلى رفض الإلحاد والهجوم على الدين، رغم كل هذا فقد ارتقيت فى أحضان المادة والعلم المادى بعد أن كفرت بالكهنوت، بالمظاهر الدينية، ولكن داخلى ظل متمسكا بالنبض الإيمانى الذى يحس بالله سبحانه برغم كل شىء، وبلا أية وسيلة، ولا حتى غاية، ولكنى تجاهلت داخلى واندفعت إلى التفسير المادى للتاريخ، وبما أن الكلمات عندى هى المعنى الملزم بالفعل: قررت التنفيذ، ولم أدخل هذا السبيل من الباب الجانبى، بل بدأت الطريق فى الظلام، ومن أول لحظة، فقد كان النشاط سريا منذ البداية، وكنت قد تمرست على الرؤية فى الظلام من أيام الأخوة إياها، فلم يكن غريبا على أن أقبل السير فى الظلام وصعدت السلم من أوله: خلية صغيرة، ثم مسئولية كبيرة، وكلما صعدت درجة أحسست بالغرابة والانزعاج، فقد كانت الكلمات المضيئة تتوارى وراء الإجراءات والأوامر والترتيبات، وبدأ فكرى الحر يحتج، وقالوا أنت تحلم بغير الواقع.

قالوا: إن الحرية خطر على الناس، إنهم يستعملونها فى جمع المال وإذلال الآخرين، إن الحرية بهذا الشكل هى العدو اللدود للبشر، للطبقة العاملة، ونحن نمثل الطبقة التى تمثل الأغلبية، ونحن أحرار، إذن فالأغلبية أحرار، وهذا يكفى لقيام الحرية، ويبدو أن عقلى المثالى لم يقبل إلا الأحلام، وبعثونى فى مؤتمرات السلام، وما أبهج الكلمات حين تدور حول حلم الإنسان عن العدل والسلام.

ولكن..، يا سبحان الله: ما هذه الأسوار العالية حول الفكر؟ ما هذه القيود حول الجديد؟ ما هذا الخوف من الرأى؟ إن الأفكار الجميلة حين تخرج إلى التطبيق لابد أن تتبناها حكومة، وللحكومة "بوليس" "وللبوليس" رئيس، وللرئيس صولجان وهيلمان، وللحزب "مفتى" وللفتوى تفسير، وللتفسير تأويل... إننا حين نمارس الفكر المشرق فى واقع الحياة نصاب

بخيبة أمل لا حدود لها، وكانت خيبة أملى شديدة حين سافرت إلى بلاد اليسار الأحمر، حين رأيت الأمل يختنق فى الصدور، حين رأيت الكلمات تنحبس فى الحلوق، حين اكتشفت أن أفكارى أنا شخصيا تتردد فى الورود إلى ذهنى، إلى هذا الحد وصل القهر إلى داخِلِنا: أنا أمنع نفسى أن أفكر خشية أن يجرنى فكرى إلى مناطق محظورة تضر بالطبقة الحاكمة - أعنى الطبقة العاملة - فى كفاحها المجيد ضد الاستغلال، الطبقة العاملة هى السيد والباقون طماعون سفاحون خبثاء، ولكن لماذا نفكر نحن رجال الحزب للطبقة العاملة، أليست لهم عقول يفكرون بها، ولكن أين هى الطبقة العاملة؟ إنها بين دفتى الكتب العقائدية، يبدو أن وجودها غير حقيقى، إذ أننا نتكلم باسمها، وهم يحكمون باسمها، ثم هى فى واقع الأمر.. أين هى؟. ويبدو أن تفكيرى كان مثاليا عجز عن استيعاب الذى يجرى "كمرحلة" فاستعجل الوصول.

وتوقفت فجأة.

وأخذ إيمانى يهتز بالمادية كما يحددونها، ورفضت أن تحجز أفكارى على أفكارى، رفضت أن تكون الكلمات الجامدة هى السجن الذى نسجن فيه الإنسان لصالح طبقه ما.. رفضت أن تكون هناك وصاية مذهبية على الفكر والتفكير.. أو وصاية طبقية على الحكم أو على الشعب: طبقة الحزب وصية على الحكام، والحكام أوصياء على الشعب، والشعب مسموح له أن يفكر فى الطريقة التى يحقق بها المادية الجدلية ذاتها.. ممنوع الجدل فى الجدل..لقد حلت النظرية كل شىء، الانسان يستغل الانسان منذ الأزل، وقد آن الأوان لتوقف كل هذا، وإذا بالانسان يستغل الإنسان من أجل أن يتوقف الانسان عن استغلال الانسان.

وكفرت، كفرت...

ذبلت شمعة جديدة..ويئست وأنا أتحسس طريقى وسط الظلام على ضوء خافت يتراقص، وحين مددت يدى نحو الضوء احترقت وأفقت، ووجدت أن جذوة النار لم تهدأ.

وانحرفت.. هكذا قالوا!!

وصمونى بالانحراف وبالنكسة وبالتردى فى هاوية المرتدين الجبناء، أرهبونى وحطمونى أمام نفسى، وكان جزء من نفسى يحاول أن يطفئ داخلى حتى استمر فى طريق الفكر المجرد، والعمل المنظم لتحقيق هذا الفكر العظيم، كنت أحاول أن أتصور أن الفشل فى التطبيق ليس إلا مرحلة لابد أن نتخطاها، ولكن القائمين على الأمر كانوا واثقين من أنفسهم ومن النظرية أكثر مما ينبغى، أكثر مما أطيق، لم يكن فى هذه الحياة إلا مذهب واحد.. وللمشاكل إلا حل واحد وللأمراض إلا تشخيص واحد، لم يكن عندهم إلا تفكير واحد وحرية واحدة وطبقة واحدة فكل شىء ورد فى أقوال الزعيم، كل شىء وضع له حل، اليوم وغدا وبعد ألف عام، ورفضت ورفضت.. وكلما اقتربت

أطفى الجذوة بأن ألقى عليها حجارة من الكلمات المرصوصة، كانت نفسى تتلقف الحجارة وتوقدها بالوهج حتى تحمر الحجارة وتنصهر، وأصبحت الكلمات الجامدة وقودا للثورة على نفسى، ولم أستطع يا سيادة الطبيب، لم أستطع...

أنا إنسان خيالٌّى فاشل برغم محاولاتى المتكررة أن أعيش واقعى... أن أواقع الكلمات، أنا لا أقرأ الكلمات.. أنا أعيشها، أنا أعاشرها، أناغيها، أرافقها، الكلمات تدخل خلاياى وتسرى فى دمى وتنبض فى عروقى، تصبح هى أنا، وأنا هى، فإذا حاولت أن أسير بها وجدت الفرق شاسعاً بين ما فى أوراق الكتب وما فى واقع التطبيق، وخاصة حين أشاهد مصير الكلمات فى تصرفات الرؤساء. ألم أقل لك أننى كنت كلما صعدت الدرج ازددت جزعا. كان المسئولون يتراشقون بالكلمات دون معانيها، كانوا يستعملون المبادىء لتحقيق أشياء أخرى غير المبادىء.

هل هو الطمع؟

هل هى السلطة؟

هل؟... ماذا؟.. لماذا؟. قل لى ياسيادة الطبيب النجيب ما هو ذلك الشىء الذى يُنسى الإنسان نفسه؟

- الخوف

- هو ذاك.. الخوف.. لقد خفت كل شىء، إنك إذ تخاف تفعل أى شىء وكل شىء حتى تنجو من الرعب الذى يتملكك، لقد خافوا على الانسان حتى قضوا على الإنسان، خافوا على العمال حتى خنقوا الحرية، خافوا على أنفسهم حتى نسوا أنفسهم وخفت أنا أيضا، كما أن من حقهم أن يخافوا، فمن حقى أيضا أن أفر بجلدى وفررت... ولكن إلى أين؟ ياوحشة الطريق.. إليك، إلى الأمان المطلق إلى الجنون المطبق.. آه.. يا إنسان يا غريب الأطوار.. تبا لك من حشرة جبانة تهرب إلى الجحر بمجرد سماع وقع الأقدام.

- إن تجربتك مرة، ولكن لا تمتهن الإنسان، فقد عاش حتى الآن يصارع نفسه وهو يصارع الخوف.. وهو مازال دائم التقدم بالرغم من كل شئ.

- نعم بالرغم من كل شئ. بدليل أنك جالس خلف كرسيك ترتزق من أشلائه المتناثرة

- أنا أعيش وأفعل ما أستطيع

- وماذا تستطيع حين يكفر إنسان بنفسه.. ماذا تستطيع أن تفعل له أنت؟

- أستطيع أن أحبه رغم كل شىء، أحبه جزءاً جزءا حتى يجمع شتات نفسه، أثق فيه وهو فى قمة تصدعه.. أصاحبه حتى يستمر كما ينبغى.

- ينبغى؟ وماذا ينبغى ياسيادة الطبيب؟ ينبغى أن أغمض عينى وأكتفى بأن أذهب إلى وظيفتى وأقبض راتبى آخر الشهر؟ أن أقتنى امرأة حضّانة تنتفخ بطنها بين الحين و الحين ببعض ما ألقيه فيها من فضلات اللذة، حتى تزيد عدد الأحياء التعساء، مذا ينبغى يا سيادة الطبيب؟. قل لى بربك ماذا تفعل بالناس من على كرسيك هذا؟ أنت تساعد فى"ميكنة" الإنسان وقتل مشاعره.

- بل أنا أحاول أن أساهم فى الحفاظ عليه حتى يكمل طريق الثورة والتطور. إن المرض رفض، والرفض لا يثمر إلا بقيام الثورة وأنا أقف بجوارك لنكمل الطريق.. فالثورة لا تكون ثورة إلا بعد تحقيقها. وإلا فهى محاولات مجهضة فى الظلام. لا يخرج منها إلا مسخ ناقص النمو.

- عليك نور.. أنا المسخ ناقص النمو أنا المسخ المشوه.

- ولكن هذا التشوه الذى يظهر عليك مرحلى وسطحى، أما جوهرك فهو هو، وإلا ما مرضت، المرض يصبح نعمة حين تخرج منه أصلب عودا، وأقدر على الاستمرار.

- الاستمرار؟!! لقد حاولت الاستمرار، وباستمرار. هل تعلم ماذا فعلت بعد أن ضللت فى دهاليز الكهنوت الدينى وضعت فى سراديب مادية التاريخ؟ اسمع يا سيدى:

ظهر فى هذا البلد الطيب تحالف لأبنائه، تحالف قوى الشعب العاملة، كلام جميل للغاية: الشعب. التحالف، القوى العاملة. ما أروع كل هذا.. الميثاق الغد المشرق، الأرض الطيبة.. مصر.. العمل.. العدل.. الحرية..، وقلت إذا كانت دهاليز الكهنوت قد ساقتك إلى الإرهاب الدينى، وكانت مادية التاريخ قد حجرت على فكرك وحريتك، فها هى الشمس تشرق بهذه التعادلية الجديدة. تحالف قوى الشعب العاملة. وتوكلت على الله - فإن فشل تطبيق مادية التاريخ لم تستطيع أن تنتزعه من قلبى ووجدانى - وذهبت إلى التنظيم، وتحمست، فأنا طول عمرى متحمس، وفى هذه المرة كانت الرؤية واضحة، الأرض طيبة.. والحياة طيبة.. والناس طيبون والنيل يجرى سهلا.. والوادى منبسط، والله مازال فى قلبى. كل شىء طيب، ولابد من تحقيق العدل.. ولابد من إقرار السلام، ولابد من الحرية، ولابد للناس كل الناس أن يعيشوا وأن يأكلوا، أن يفكروا، أن يتطوروا، وتحالفتُ مع قوى الشعب العاملة ولكن..

ما هذا الذى يحدث؟ كلما حاولت تحديد شىء ساح كل شىء فى كل شىء، فأنت هناك بلا قوام، ميوعة ولزوجة وألفاظ مرصوصة مرصوصة مرصوصة، مثل علب الأحذية الفارغة فى محل تاجر أوشك على الإفلاس، والشعارات الرنانة تطوف حول الرؤوس ولا تدخلها، وأحاول أن أصيح أن هذا الشىء جديد، ولذلك ينبغى أن يكون جديدا فعلا وأصيلا، ولكنى اكتشفت هناك أن اليمين يريد أن يخدع به اليسار، وأن اليسار يريد أن يحتوى من خلاله اليمين، وبدل أن يكون هو مجموع إيجابيات اليمين،

واليسار، أصبح حاصل سلبيات اليمين واليسار، فبدل أن تجمع خمسة زائد خمسة ليصبح التحالف عشرة، كنت تطرح خمسة من خمسة فإذا بالناتج صفر، وهأنذا.. أنا هو الصفر.. أنا اللاشئ أنا المؤمن الذى كفر بكل شىء وحين انهار البناء فوق رؤوس الكهنة المتشدقين بالألفاظ الجوفاء كنت أنا قد انهرت من زمان.. سوف تقول لى إنهم يعيدون البناء..ولكنى مريض لم أعد أومن بشئ. ولا أثق إلا فىّ أنا شخصيا، وأنا لا شىء.. حاولت كل طريق ولم أحصل إلا على التمزق فالجنون، آمنت بكل لفظ حتى سقط هرم الألفاظ فوق مبادئى، أنا الآن عار من المبادئ، ومن الألفاظ، ومن المعانى، ومن الحياة، فما حيلتك فىّ؟!.

قلت له:

- ولكنك مازلت ثائراً.

- لا ..لا..، كله إلا هذا.. كفانى ثورة

- بل أنت ثائر على تصور فشل الثورة، لذلك فأنت ترتدى مظهر الاستسلام.. ومازالت الجمرة فيك وبك.

- لا تحاول أن تبعث فيها الحياة.. لقد انطفأت الشموع جميعا وعم الظلام.

- الشموع قد تنطفىء، والجمرة قد يعلوها الرماد، ولكنها متقدة فى داخلك.

- لا ترسل نسيم ألفاظك إلى حيث لا تعلم، فإنها لو أشعلت الجمرة من جديد فلا أحد يعرف كيف سأنفجر، سأحطم تماما وقد أحطمك معى.. ألا تسمع عن المرضى الذين يقتلون.. أنا أشعر الآن بالطريق إلى ذلك، إن هذا يحدث من إعادة اشعال هذه الجمرة، إياك أن تقترب منها داخل أى منا، دعه يكتوى بنارها المتسحبة تحت الرماد حولها حتى يحترق ويموت.

- إذن فهناك جمرة.

- تحترق.. فهيا ساعدها بعقاقيرك المهدئة العظيمة لتنطفىء إلى رماد،.. أرجوك لا تهيجها بألفاظك المثيرة.

- بل العقاقير تهدئها مرحليا حتى تصبح طاقة قادرة على الاستمرار.

- وماذا بقى منى حتى أستمر؟

- كل هذه الخبرات لابد أن تتجمع.. وتعود إلى حياتك العادية، لتجعل العالم كله غير عادى.. بالتطور والعمل والاستمرار.

- ولكنى فشلت.. فلماذا التطور ، هذه كلمة خبيثة خادعة، يبدو أن التطور هو خدعة تاريخية

- ليس تماما، وبالذات بعد خبرتك هذه.

- ولماذا أنا بالذات؟

- لأنك مرضت، إذن فقوتك الداخلية أكبر من سائر البشر، إذن فأنت تحمل رسالة التطور.

- وهذه الرسالات التى آمنت بها حتى كفرت، ألم تكن وسيلة للتطور.

- وهى هى دليل التطور.

- إذن لماذا احترقتُ بنارها وشككت فى كل شئ.. على فكرة أنا أشك فيك.

- هذا بديهى.

- وأرى خيالات وصورا وأشياء كثيرة من حولى.

- مثل ماذ؟

- أرى أفلاطون وأرسطو وبعض الأنبياء، أى والله أحيانا أعيش فى جمهورية أفلاطون، وأحيانا أنام فى غار حراء.. ما أجمل كل هذا رغم كل شئ...، أن تعيش مع هؤلاء الذين استمروا ليغيروا العالم دون أن يمرضوا، ولا أن ينهاروا، ولكن من يدرى؟ لعله لو كان هناك أيامها طب نفسى كنتم قلتم أنهم مرضى.. كل شئ جائز، فالعلم الخبيث خليق أن يشوه كل شىء، أن يعطى رقما رمزيا أو إسما تشخيصيا لكل نبض إنسانى، حتى لو كان نبيا، على فكرة.. ما اسم مرضى؟

- ليس لمرضك اسم.

- طبعا... تخفيه لأنه الجنون.. فما معنى الجنون؟

- أنا لا أعرف معنى لهذا اللفظ... ولكن ما أنت فيه هو أزمة التطور.. أما ما يسمونه جنونا فأنا لا أعرفه إلا حين تتم الهزيمة الكاملة.

- ولكنى هزمت نفسى... فعلا.

- ليس بعد

- إذن ماذا؟

- لا بديل للاستمرار

- فما تفسير هذا الفشل كله؟

- لقد نسيت أن تطور الانسان يحتاج لآلاف السنين.

- إذن لا بد أن أعيش آلاف السنين حتى أتطور.

- بل بمجرد أن ترفض الهزيمة والاستسلام فإنك تكون قد أديت دورك لتسلم الشعلة لمن بعدك، ليخطو هو أيضا نحو الغد، وهكذا

قـال:

- لـقـد خطوت خطوات وخطوات، وفى كل طريق حسبت أنـه يـوصل، ولـكن الـنـاس... الـسادة الـكبـار.. أفقـدونى ثقـتى بـالمبـدأ وبـالـكلمة وبـالحق وبـالـغد.. هذه هى نهايـة الـطريـق.. حطام فى حطام

قـلت:

- بـل إنها محنة على الـطريق.. إن المبـدأ لا يـعيبـه تـأخر تحقـيقـه أو صعوبـة تـطبـيقـه؛ كـل إنـسان لابـد أن يـأكـل ويـعيش، لابـد لـلحق أن يـنتصر، لابـد لـلحريـة أن تـزدهـر، فـقـط....الـوقـت، الإشكـال الآن هـو أن إنـسان الأمـس بخوفـه وضعفـه ونـقـصه، يـطبـق الـيـوم.. نـظريـة الـغد، فـيـنشأ الـتضارب والـفـشل، ولـكـن الـفـشل فى الـتطبـيـق لا يـنبـغى أن يـفـقـدنـا الـثـقـة فى المبـادئ.. وفى الـغد.. وفى الـتطور.

- إذن مـاذا؟

- أنـت لا تملك إلا هـذا.

- هـذا مـاذا؟

- أن تـستمـر.

- لم أعـد أستطيع.

- الـكـيـمـيـاء تهدىء الألم وتحافظ على قـوة الجمـرة وإن خفـــُــتَ بـريـقـه مـؤقـتـا.. ثم تـستمـر.

- وكـيـف أطمئـن ثـانـيـة بـعـد أن هـزنى الخوف والـشك

- لـيس هـنـاك بـديـل.

- ومـا أدراك

- خبرتـى وعلمـى وحبى لـلحيـاة الـذى لا يـهتـز.

- هل تحب الحيـاة، فـعلاً؟

- نـعم

- حتى مـا تـنـاثـر فـيـهـا من الـشظـايـا المـنـتـفـخة بـالـعفـن، مـثـلـى

- وبخاصة الـشظـايـا المـنـتـفـخة بـالـعفـن، فـوراءهـا طـاقـة الانـسان المـتطورة الخلاقـة.

- ألـن تـتخلـى عنى؟

- لا أستطيع

- مـهـمـا أصابـتك شظـايـاى؟

- مـهـمـا حدث

- وهل أستطيع؟

- وهل تستطيع غير ذلك؟

- لا أظن

****

قال الفتى:

- إذن مازال الفتى المؤمن مؤمناً بالحق، ساعيا إليه بالرغم من كل ما جرى

قال الحكيم:

- نعم وإن كان الطريق شاقا وطويلا، إلا أن الإنسان الذى يرفض الزيف حتى بالمرض، لا يستسلم إلا بعد جولات وجولات، ونادراً ماتكون الضربة قاضية إذا ما عرف الطريق.

قال الفتى:

- ولكن لماذا امتلأت حياتنا هكذا بالزيف، أنت تعرى فى حكاياتك كل الأشياء حتى تبدو الحياة أحيانا وكأنها تمثيلية سخيفة.

قال الحكيم:

- وبالرغم من ذلك فإن القليل الحقيقى فى هذه الحياة هو الذى يبقى، ولكن يبدو يا بنى أنه لابد من الكثير الغث حتى يظهر القليل الجوهر، والإنسان يلجأ إلى السيطرة والقوة وإلى العلم وإلى كل ما يغريه بالتفوق ولكنه لا يصل إلى جوهر الأشياء إلا بالصدق والسعى والكدح إلى الحق.

قال الفتى:

- ولكن كيف تكون القوة خدعة هى أيضا؟

قال الحكيم:

- مثل حكاية "أبلة الناظرة"، كانت إنسانة أمينة ثائرة متحمسة فرضت رأيها فى كل شىء.. وعلى كل من حولها خوفا على مبادئها، ولكن الخوف كان مرعبا وقاسيا حتى احتمت منه وراء مظاهر القوة، ونسيت..، ولكن الإنسان الثائر فى داخلها لم ينس... لم يهدأ أبدا، لم ينم.. وجاءتنى تشكو الأرق.

قال الفتى:

- وكيف كان ذلك؟

الإثنيـــــن 04-07- 2011

1403-أبلـــــة الناظــــــرة

كتاب جديد (قديم)

عندما يتعرى الإنسان (6 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

أبلة الناظرة

قال الحكيم:

- دخلت علىّ وقد انطفأ لون بشرتها الأسمر، فظهرت تجاعيد وجهها كالحة صدئة ولكن عيونها لا تزال تلمع ببريق حاد، قالت عيناها "لولا الشديد القوى" وقال صمتى: "ماذا"؟ وقالت نظراتها: "ما رأيتك عمرى" وقلت وهى تنظر إلى الكرسى مترددة تود لو انصرفت قبل أن تجلس:

- تفضلى استريحى.

قالت:

- أين هى ؟

قلت:

- ماذا؟

قالت:

- الراحة

قلت:

- فى داخلك

- داخلى أنا؟ إن داخلى هو الجحيم ذاته، نار موقدة تطلع على الأفئدة، ويشتد لهيبها فى الليل.. الليل وحش كاسر.. وأنا فريسة فزعة.. أخاف أن أنام.

- إذن هو ذاك

- لست أدرى ما "هو"، وما "ذاك"، ولكن هذا ما أتى بى إليك، النوم وجهنم التى فى داخلى، وقد رأيت الخطر من أول وهلة، لم يكن أرقا كالأرق، ولكنه الخوف، ليس هناك ما يؤرقنى، كل شىء يتم كما أريد. كل شىء بنظام. حتى الجولة الأخيرة. حاولت أن أتخطاها، حوّلت الهزيمة إلى مزيد من التحدى والقوة وكدت أنساها، أو قل خططت أن أتعداها لأنساها، ثم إن هذا الذى كان، حدث فجأة وبلا مقدمات، فحين وضعت رأسى فى تلك الليلة.. هى ليلة غير الليالى. كيف حدث هذا فجأة دون مقدمات؟ حين وضعت رأسى تلك الليلة على الوسادة دق ناقوس فى جانب رأسى.. كأن بناء قد انهار، كأنى مت فجأة، هل تتصور أن الشعور بالموت يصاحبه شعور باليقظة الحادة، هل تتصور أنى إذْ أنتبه كل هذا الانتباه أشعر فى ذات الوقت بكل الضياع، هل هذا ما يصدق عليه "أن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" ولكن كيف ينتبه الموتى الأحياء؟ كيف يموت جزء منك لتستيقظ فجأة. فى تلك الليلة انهار كل شىء.. تقوّض البناء الشامخ على رأسى فأفقت، مت فصحوت، والغريب فى كل هذا أن ذلك يحدث فجأة، وحين شعرت أن كل شىء قد انتهى للحظة، استيقظتْ فىّ أشياء أخرى، كنت فى سبات عميق لا أظن أحدا يستطيع أن يفهم إلا إن عاش التجربة ذاتها، إن تجارب الإنسان الممزق لها اسم رشيق لديكم، لابد أن ينقلب الإنسان بين يديكم إلى صفحة من كتاب... إلى عنوان.. إلى لفظ جامد بارد لا حياة فيه، التجارب لا توصف بالألفاظ سوف تجمع الأعراض وتضربها وتطرحها وتقسمها وتخرج منها باسم رقيق أو صفيق، وتناقشها مع زملاء لك، كل ذلك وأنت لا تعرف عنى شيئاً، بالله عليك كيف تجرؤ أن تحول الناس إلى ألفاظ؟

- ليت هذه غاية مهمتى.. ولكن لا بد من الألفاظ أو أى شىء كالألفاظ، لا بد من لغة حتى نتفاهم... أية لغة.

- ولكن الألفاظ انهارت مع الصرح المتداعى... ذهبت مع الأنقاض كنت قبلا "أقول".. وكان لقولى صليل ورنين.. كان لا يُرد لى قول، كانت تعليماتى فى المدرسة مقدسة.. كل لفظ لابد أن ينفذ حرفياً.. حرفياً، حتى الحروف كان لها معان حتى الصمت كان له معنى؛ وحين انهارت الأشياء كلها وذهب النوم. جعلت أتساءل عن معنى كل هذا، ولكن مالى أتحدث إليك وكأنك تسمع وتفهم؟ إذْ كيف تفهم مالا أستطيع أنا التعبير عنه؟

- أحاول

- يكفينى أن تحاول، فلابد أن أجد من يحاول بعد أن توقفت محاولتى أنا، وعدت أشك فى كل شئ

- كيف؟

- إن اهتزت معانى الألفاظ فلابد أن تراجع ما كان حتى تعيد بناء المعانى من جديد.

- إذن... ماذا؟

- كان كل شىء مرسوم.. له هدف وتخطيط ونظام، كنت أقول "لا" يعنى "لا"، كانت الـــ "لا" حرف نفى، وكان الجميع يعرفون ذلك وكان على طرف لسانى دائما: "أنا قلت لا يعنى لا"، وكان الجميع يعرفون ذلك، وبالتالى كانوا يعرفون أنى حين أقول نعم فهى الـــ "نعم"، ولو انطبقت السماء على الأرض فلن تتغير "اللا" إلى "نعم" ولا العكس، ما أغرب هذه الأيام.

حين كانت الأشياء عادية تماماً، كان لكل شىء معالم محدودة فى دنيا غير محددة المعالم.. كانت كل ألفاظى جملا مفيدة.. والآن.. تغير كل شىء وتداخل الكلام فى بعضه البعض... بغير سبب... أى والله بغير سبب.

لقد تخرج من تحت يدى أجيال أعتز بهم فى كل مكان.. كنت أدير مصنعا للنجاح، وكانت القوالب محكمة.. والطالبات نسخاً مكررة مطبوعة باسمى... أعنى باسم مدرستى، ليس أجمل من أن ترى نتاج عملك أمامك تفخر به، ولكن الآن، لماذا أرى بناتى مثل العرائس الحلاوة التى تعرض بمناسبة مولد النبى، كيف يطيق الإنسان أن يفخر بعرائس بعرائس مذاقها شديد الحلاوة ولكن ليس فيها حياة؟! هل ذقت طعم حلوى تلك العرائس، أنا لا أطيقها، فكيف أفخر بها، ولكنها متقنة الصنع مزركشة المظهر، ألا يكفى هذا؟ كان يكفى زمان، أما الآن فلم يعد يكفى.. بل لم يعد شىء البتة يكفى.

- يكفى ماذا؟ كيف؟

- حين أحكى لك عن كل ذلك النجاح أسمع فى جانب عقلى همسا يقول "طز" أنا آسفة للتعبير، ولكنك طبيب لا بد أن أصارحك بكل شىء..، وأحيانا حين أكون متحمسة غاية الحماس فى ذكر مباهج عملى يخرج لى هذا الجانب من عقلى لسانه، هل يمكن أن أعيش بعد ذلك.. بل أنه لا معنى للنوم ولا للأكل ولا للشراب

إذا فقد النجاح قيمته بهذه السخرية اللاذعة ولكن ما معنى النجاح يا دكتور؟

- أن يحقق الإنسان هدفه

- إذا كان كذلك فقد حققت هدفى، فلماذا يسخر منى عقلى، أعنى ذلك الجانب من عقلى؟ أنا من عادتى ألا ألتفت إلى الهمس أبدا.. كانت المدرسات يهمسن، والدادات يهمسن وأنا لست هناك، ماذا يصنع الهمس، أليس الهمس كلام ضعيف؟ أنا لا أحب الضعف، فلماذا حين أسمع الهمس الآن أضطرب منه، ومن أين يأتى الهمس.. منى أنا.."أنا" أسخر من "أنا"، كان هدفى أن أصنع تلميذات متفوقات، مؤدبات، منظمات، يحفظن آرائى ويرددنها.. لأن آرائى هى الصواب، وقد كان، أليس هذا هو عين النجاح؟ أليس هذا هو تحقيق الهدف؟

قلت:

- ولكن هل كان هذا هو الهدف؟

قالت:

- يظهر أنك خبيث خبث ذلك الجانب من عقلى الذى يردد همس السخرية، نعم كان هذا هو الهدف، وهل يمكن أن يكون لناظرة ثانوى هدف آخر.

- مجرد سؤال عابر

- لا.. بل هذا هو السؤال الذى جئتك من أجله... "ما هو الهدف؟"

- النجاح.. مثلا

- إذن ما هو النجاح؟

- تحقيق الهدف

- اسمع يا دكتور أنا لم أجيء إلى هنا لألعب معك لعبة القط والفأر، ولست فى حصة منطق، ولست أريد أن أضيع وقتك ووقتى، وقتى؟ ولكن ما معنى الوقت.. هل هناك زمن.. حين انهار كل شىء توقف الزمن.. بل تراجع إلى فترة سحيقة ليست لها بداية، بل إنى شعرت أنه تراجع إلى ما قبل وجودى، بل إنه كاد يتراجع إلى ما قبل وجود الأشياء كلها. ما أقسى كل هذا، ولكن هل أنت متأكد أن هذا المرض فى حدود اختصاصك؟ هل أنت متأكد أن هذا مرض أصلا؟

- أنا متأكد أنى أستطيع مساعدتك، لو أردتِ.

- وهل يمكن ألا أريد؟ إذن لماذا جئت إليك؟

- للمجيء هنا أسباب عدة.. ولا أستطيع أن أرجح إحداها حتى تتضح الأمور.

- وهل تتضح الأمور؟ وكيف تتضح وهى غامضة علىّ أنا شخصا؟ إنه الغروب أو هو ما بعد الغروب وما قبل الليل؟ هل تعرف هذا الوقت الكئيب؟ إن الظلام الدامس شئ محدد المعالم مثل النهار المشرق، ولكن ذلك الضباب الهلامى لا تكاد تمسك منه شيئا حتى ينسحب منك، ويصبح الوضوح والتحديد فى عداد المستحيل.

- ولهذا جئت إلى هنا.

- هل أنت صانع المستحيل؟

- بل الإنسان فى داخلك هو الذى يصنع كل جديد

- إن هذا هو المستحيل ذاته، أن تجد إنساناً فى داخلى، أنا فى داخلى شيء فى زنزانة من جليد، ولا بد حتى يخرج ذلك الشيء إنسانا من جديد أن ينصهر الجليد، ولابد لكى ينصهر أن تضطرم فّى النار، ثم لا أدرى ربما احترق أنا شخصياً قبل أن ينصهر الجليد حتى إذا خرج ذلك الانسان الداخلى من زنزانته لم يجد إلا الرماد، أو قل لى بربك كيف نصل إلى ذلك الانسان الخائف المتجمد دون أن أحترق.. ولكن لماذا حدث كل ذلك وقد كنت أشد الناس نجاحاً.

- رجعنا إلى النجاح؟

- نجحت، نجحت، نجحت، حتى أصبح النجاح بغير معنى، فانقلب كل نجاحى فشلا، لماذا يفعل الانسان بنفسه كل هذا؟

- لأن الانسان أحيانا تسرقه أهداف غيره وهو يحسبها أهدافه، وحين يفاجأ بالحقيقة يختل توازنه.

- ولكنها كانت أهدافى أنا، واختيارى أنا، لم يكن فى حياتى أحد إلا أنا وواجبى وقوتى وقدرتى أنا، ولكن كيف حدث كل ذلك؟

- كيف؟

- كان كل شيء على ما يرام، كنت قوية تماما، ولكنى كنت وحدى، كان الناس دائما يقتربون منى إلى قدر محدود ولكنى لا أسمح لهم بأن يقتربوا أكثر، لماذا؟.. لقد كنت أعرف كل شئ، وأسير فى كل طريق، ولكنى أخشى اقترابهم منى، آراؤهم لم تكن تعنينى فى شيء، لأن آرائى دائما هى الأصوب، لأن كفاحى هو الأكثر أصالة، لأنى صاحبة رسالة وهم أصحاب مهايا، موظفون ينتظرون العلاوات، وقد عشت وسط كل هؤلاء على بعد منهم، حتى بناتى كنت أخشى أن يقتربوا منى أكثر، كانوا أقرب إلّى فى كشوف المدرسة أكثر من الواقع الحى، كنت أدير مصنع التفوق بمهارة لا مثيل لها، وكان يصنع عرائس حسنة المنظر، وقد قلت لك: أنا أحب أن أشاهد عرائس المولد ولا آكلها، وفى الفترة الأخيرة كنت أحاول أن أتذكر بناتى فيردن إلى خاطرى على بعد منى لا يقتربن ولا أقترب، كنت على قمة هرم من العمل والنظام

وأنت لا تستطيع أن ترى إلا موقع قدمك وأنت على القمة، فى حين أنك ترى الهرم كله وأنت على السفح، وتمنيت أن أصنع شيئا هرما أكثر إشراقاً وأدوم خلودا، ولكنى حين وصلت إلى القمة نسيت أشياء كثيرة وكان كل همى ألا أنزلق. هل يفيدك أن تسمع هذا.. أعنى هل يمكن أن يفيدنى؟

- بلا شك

- بل كلى شك.. ومع ذلك فهى قصة ليس فيها جديد، فتاة فى كلية تربية، بنت من ثمان بنات لأب متوسط فى كل شىء.. فى الطول والعرض والذكاء والطموح.. وكل شىء، ما أبغض أن يكون الإنسان متوسطا فهو يكاد يكون بلا معنى، ووسط هؤلاء البنات الثمان تفتحت نفسى أتساءل كما يتساءل الشباب، لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا الفقر؟ لماذا الألم؟ لماذا الضياع؟ لماذا الحياة؟ ومثل كل الشباب وجدت إجابات غير مقنعة، وهروب مقنع، وأحسست بالرغبة فى أن أصنع شيئا لنا نحن البنات ولماذا البنات؟ لأنهن أصل الحياة، وصعدت السلم... وفرحت بمهنة التدريس، وكنت ناجحة متحمسة أريد أن أصنع شيئا ما، وفى المدرسة عشت أتألم من منظر الناظرة، امرأة بيضاء مترهلة، ذات عيون صفراء..أى والله صفراء... لا تهتم إلا بالهدايا، وهى تفضل الحلوى كل أنواع الحلوى، وتقرب إليها تلك الحاشية التى تجيد "التكبيس" لزوم آلام المفاصل، أما فى العمل فكان كل همها أن تسدد الخانات وترضى الرياسات وتزين السلالم بزهريات الورد فى انتظار مدير المنطقة أو نائبه، أو قريب الوزير أو حاجبه، وثرت مع مجموعة من المدرسات ثورة هائلة، وتخلصنا منها، وأصبحت أنا الناظرة، أنا "أبلة الناظرة"، إلى هنا وكل شئ طيب، ثم تسلسلت الأحداث بعد ذلك وتغير كل شىء، أم أنا التى تغيرت؟ لست أدرى؟، وما السبب فى كل ذلك؟ الآراء التى كانت تستهزيء بها الزميلات أصبحت تنزيلا لا يأتيه الباطل وأصبح كل ما أقوله صوابا، ورفضت ذلك فى أول الأمر، ولكن خيل إلى أنى كنت فعلا على صواب، وابتدأ الجميع يصدقون على كلامى... وانزعجت ثم استأنست... ثم ارتحت

"أنا" أحب الحق

"أنا" أعرف ما هو الحق

"أنا" أقول الحق

"أنا" الحق

وهم يوافقونى على ذلك، ومن يخالف فقد خالف الحق.. وكان أول المخالفين زميلاتى اللاتى ثرت معهن، ولا بد أن واحدة منا هى المحقة والجميع يؤكدون أنى أنا المحقة؛ فلأتخلص من الزميلات المشاغبات حتى لا يعقن المسيرة.. وقد كان، ولم يبق حولى إلا من يصدقنى، وهكذا نوفر الوقت ونتفرغ للبناء، وحين كان يظهر بين المدرسات من له رأى، أى رأى، كانت المقربات يخفننى منها، كن يقلن ما دمت أنا على صواب فما الداعى لصواب آخر، وكن يقلن أنه إذا زاد الاختلاف فإنى معرضه للتخلى عن النظارة

مثلما فعلت بالبيضاء المترهلة، وكنت أخاف على رسالتى ألا تتحقق.

أنا لا تهمنى النظارة ولكن يهمنى المبدأ؛ وقد هممت مرارا أن أتركها ولكنى خفت على تحقيق رسالتى من بعدى، كان الخوف يرعبنى.. الخوف على رسالتى ومبادئى، وعلى نفسى، لأنى أنا التى أمثل الرسالة والمبادىء، فكنت أعمل المستحيل حتى أنقل صاحب الرأى إلى مدرسة أخرى، ويا حبذا خارج المنطقة ولم يبق من حولى إلا من يؤيدونى.

ومجلس الآباء، حتى مجلس الآباء كان يوافقنى على آرائى، وهو مجلس منتخب بلا أية شبهة فهو يحوى مختلف النزعات والحرف والثقافات، وأعضاؤه ليسوا موظفين لدى، حتى أشك فى نفاقهم، إذن فأنا على حق دائما على حق، وبالإجماع.. دائما بالإجماع.. ولكن هل يمكن أن يتشابه الناس إلى هذه الدرجة؟ درجة الإجماع فى كل شئ... كل شيء وكنت أتمنى فى قرارة نفسى أن يعارضنى أحد.

ولكن إذا ما عارضنى أحد كنت أحس أنه يريد أن يقضى علىّ، أن يزيحنى من مكانى، وسرعان ما أتخلص منه، ولم لا؟ فأنا أعرف كل شيء، كانت خطبة الصباح تردد آرائى الغالية، وصحيفة الحائط تزينها معتقداتى الصائبة، وأصبح كل شيء هو أنا، وأنا هى كل شيء، وظل الناس على بعد منى لا يدخلون حياتى أبداً... ولم أشعر حينذاك بقسوة الوحدة وأنا وسط الناس، إن ألعن الأشياء أن تكون وحيدا بين الناس لأنهم لم يعودوا إلا نسخا مكررة منك، أين التفاعل أو التضارب الذى يصنع الحياة.. وحين جاءت تلك الاخصائية الاجتماعية ابتدأت أحس بالخطر المهدد وعشت أياما وشهورا أحاولى أن أصوغها فى قالب آرائى فلم أستطع، واهتززت أمام نفسى، ولكنى مضيت فى طريقى، إذ كيف تأتى تلك الفتاة المتخرجة أول أمس، والتى لا تدرى من أمور المدرسة كثيرا أو قليلا تحاول أن تصنع شيئا غير ما أرى، صحيح أنى أحب الاعتراض ولكن فى حدود اختيار أحد آرائى، لا معنى أن يأتوا بأراء جديدة إذ ليس هناك جديد مادمت أنا أعرف كل شيء، صحيح أنى فى أول الأمر تململت من الاجماع، ولكن الآن وبعد أن تعودته أجد أن هذا هو أقرب الطرق إلى العمل المنتج، ماذا تعرف هى فى شئون مدرستى؟ أية خبرة لها حتى "تقول" أصلا؟ إن كل ما عليها هو أن توزع الصدقات وتعفى الفقراء من المصروفات وأنا لا أعترض، أما أن تتحدث عن العواطف والإنسانيات فإن هذا يعنى أنى بلا عواطف ولا أفهم فى المشاعر الانسانية.... لا... سوف أقضى عليها سوف أسحقها، خاصة بعد أن فوجئت بها وهى تحرض أولياء الأمور ليرشحوا أنفسهم فى مجلس الآباء ليصنعوا شيئاً جديداً، أى شيء يمكن أن يكون جديداً عن آرائى، وهل هناك جديد بعد كل ما حققت؟

قلت:

- ولماذا نسميه تحريضا... ألم يكن مجرد اقتراح.

قـالـت:

- ولـكنى تـعودت أن أقترح أنـا، وأن أنـتخب أنـا، أعنى أبـاشر الانـتخاب، وأن أسيّر الأمـور كمـا هى فى صالح المدرسة فـأى اقتراح بـعد ذلـك، أو غير ذلـك، هو تحريـض صريـح.

- ومـاذا يخيفك مـا دام الـرأى الـصواب هو الـذى سيـنـتصر فى الأغلب.

- لـقـد كنت تـعودت الإجماع، وحين تـتعود شيـئاً يختل اتـزانك إذا تـغير، وظيفـة الانـتخاب ومجلس الآبـاء هى أن تـصاغ آرائـى صيـاغة مقـبولـة، ذلـك المستشار والـد الـبنت هنـاء، كـان بـارعـا فى هـذا الـشأن، وهـو يـُنـتخب دائـمـا فى مجلـس الآبـاء لـذلـك فـالآراء الـتى تخرج منـه، تخرج فى شكـل مقـنـع. لـيس هنـاك سوى صواب واحد ! نـعم ولـكنى أحب الـنظام، والـنظام يقـول أنـه لابـد لـلمدرسة من مجلس إدارة، وأنـه لا بـد من مجلس آبـاء كـذلـك، ولا بـد من تـرشيـح، ولا بـد من انـتخاب، ومـا دمت أحب الـنظام، ومـا دام الـنظام لا يـضر ولا يـتعارض مـع آرائـى، فـلتكن مجـالـس لـلآبـاء ولـلإدارة وقـد كـان كل شئ يـسير كـمـا أريـد، حتى جاءت هـذه الاخصائـيـة الـلعيـنـة، لـست متـأكـدة إن كـان لهـا أغـراض خاصـة أم لا، أصبـحت لا أعـلم... ،لا يـبـدو عليـهـا كـذلـك، فـهى متـواضعة تـرفض أيـة تـرقـيـة وتـفضل دورهـا كـإخصائـيـة، وقـد رفـضت الـتفـتـيش والـترقـى وتـقـول أن عمـلهـا مـع الـبـنـات أقـرب إلى الانـسانـيـة وأكـثر فـاعليـة وأوسع مجـالا لـلخدمـة، هى إنـسانـة طيـبـة ولـكـنهـا شـاذة وطـويـلـة الـلـسان، هل تـتصـور أنهـا أقـرب إلى الـبـنـات منـى أنـا الـتى أصنـعهن عـلى عيـنى أنـا الـتى أصـوغ الـعرائـس، وهى تـقـول أنهـا تحـاول أن تـدب فـيـهن الحيـاة، فـهى تـتعـهـد عـواطفـهن وتـسمع لهن وتحـس بـأحـاسيـسهن، وأنـا أبـتعد وأبـتعد، ويـلـفح خلايـاى هـواء بـارد، ويـزيـد شعـورى بـالـوحـدة وأمج الـنـفـاق رويـدا رويـدا... ربمـا كـانـت هـذه بـدايـة الـقـصة.

وسكـتت فـجـأة.

وطـال الـسكـوت

فـقـلـت:

- ثم مـاذا؟

قـالـت:

أنـا لا أفـهـم لمـاذا انهـار كـل شئ منـذ تـلـك الـلـيـلـة المشئـومـة، لم يحـدث أى شئ فى حيـاتـى، حتى تـلـك الاخصائـيـة كـانـت تـرعبـنى من الـداخـل أمـا فى ظـاهـر الأمـر فـكـل الأمـور تـسير عـلى هـواى أقـول "لا" يـعنى "لا" أقـول" نـعم" يـعنى "نـعم" ألـيس هـذا هـو المهم؟

- مـا رأيـك أنـت؟

- نـعم إن الـنـجـاح والـقـوة والـتـفـوق هى كـل شئ.

- هى أهداف عظيمة.. ولكن ماذا حدث؟

- أنا لا أعرف ماذا حدث، لهذا جئت إليك، قل لى أنت ماذا حدث؟ الوحدة.. والمسافة بينك وبين الآخرين، والعيون من حولى لها لغة أقسى من كل تصور.. لست أدرى كيف وصل الأمر إلى كل ذلك، أول ما داخلنى هو الخوف. كنت قد تعودت السيطرة وتعودت أذنى "آمين" وإذا بهذه النغمة النشاز تظهر فى الأفق شائهة كريهة، وابتدأت أخاف.

- ولكن لماذا؟

- لا أعرف، ولكن الانسان إذا عاش وحده فإنه يخاف أى احتمال آخر، خصوصاً إذا تعود الحل الواضح الصريح.

- ولكن ربما كان الحل الواضح الصريح خطأ... وربما كان الاحتمال الآخر أفضل.

- أنت تتحدث مثل الأخصائية، لأنه إذا كان فى الأمر"ربما" تداخلت الأمور وضاعت الحقيقة وضعت أنا أيضا

- ولكن الوصول إلى الحقيقة، لا يأتى إلا إذا كان فى الأمر "ربما"

- كان ذلك أيام زمان أيام كنت فى ثورة شبابى...

- كنت فى سن الأخصائية؟ ولكن الأخصائية شىء آخر، أنا ثرت على البيضاء المترهلة، أما هى فلماذا تثور وليس فى الامكان أبدع مما كان.

- ولكن الدنيا تتطور.

- أنا التى أطورها... وأنا أعرف صالح بناتى.

- فلماذا الخوف؟

- أنا جئت هنا أسألك لماذا الخوف.

- من الوحدة والاحتمال الآخر.

- ولكن الجميع يحيطون بى.

- على مسافة.

- ولكنهم كثيرون.

- نسخ مكررة.

- وماذا فى ذلك؟

- إذا كان كل من حولك مثلك فلا يصبح حولك أحد... فهى الوحدة الباردة. بلا آخرين.. وسط الآخرين.

- وهل لابد من الاعتراض والنقاش والجدل حتى أشعر بالآخرين؟

- لابد من الاختلاف حتى نحس بغيرنا وبالتالى نحس بأنفسنا.

- وماذا أستفيد من الخلاف غير الصداع... والخوف.؟

- بل تشعرين بذاتك.

- ولكنى أفنى فى بناتى ومدرستي

- فلا يبقى منك شىء.

- ماذا تعنى؟

- إذا فنيت فى أى شىء مهماكانت قيمته، فأين أنت؟

- نعم أين "أنا"؟

- لقد كان لك جهازا خارجيا من النجاح والتفوق يخفى وراءه ذاتك الحقيقية، وحين تكرر النجاح دون أن تجدى ما تريدين انهار كل شىء.

- وكيف انهار؟

- أسمع منك.

- أنا لا أذكر شيئاً.

- إطلاقا؟

- أبدا.

- والاخصائية؟

- لا... الاخصائية أرعبتنى فقط ولكنها لم تكن سبباً فى هذا الانهيار وقد نقلتها من المدرسة فى نهاية المطاف.

- إذن ماذا؟

- ربما مدرسة الراهبات

- ماذا تعنين؟

- ... كأس كرة السلة التى ضاعت، ولكن هذا شىء بسيط سوف نسترده فى العام القادم.

- أكيد؟

-... هل تشك فى ذلك؟

- ماذا حدث؟

- هى مدرسة الألعاب الرياضية التى يسمونها "الضابطة" خدعتنى.

- هذا نتيجة الاقتصار على الرأى الواحد

- قالت إن الفريق مستعد وسيأخذ كأس المنطقة

- ثم ماذا؟

- تحديت وراهنت وفاخرت أمام الجميع.

- ثم ماذا؟

- ثم انهزمنا ستة صفر

- أى فريق يمكن أن ينهزم

- ولكن هذه الهزيمة أثارت الشك فى كل شىء وكل أحد... ونظرت حولى فلم أجد إلا أبواق النفاق، ومع ذلك فأنا أحب سماع النفاق.

- إذن لا ذنب للمدرسة أو الضابطة.

- بل هى كاذبة مغرورة حمقاء، وقد خدعتنى.

- خافت منك.

- وهل أنا أخيف؟

- ماذا ترين؟

- هم الجبناء.

- ولكنك تخافين الشجاعة.. فتحاربين الاخصائية

- هم الذين عودونى على ذلك

- وأنت التى أردت ذلك

- ولكنى سوف أنتصر فى العام القادم... إذا كان هناك عام قادم

- كل شىء جائز

- ولكن لماذا انهار كل شىء.. فى داخلي؟

- لأنك اكتشفت الخداع.. والوحدة.

- ولكن هل تعلم إلى من لجأت حين لم أجد أحداً حولى؟

- إلى الأخصائية.

- نعم، كيف عرفت؟ أليس هذا هو الذل بعينه؟

- بل هى الإفاقة بعد سبات عميق.

- ليتنى أنام.. أذهب فى سبات لا أفيق منه.

- ليتك تستطيعين.

- ولكنى شعرت بالمهانة حين جئت إليك

- أية مهانة أن تستشيرى آخر.

- ولكن أنا؟ هى؟ لماذا؟

- لأنـه لابـد مـن آخر حتى تـشعرين بـذاتك

- كـل هـذا وأنـا لا أشعر بـذاتـى؟!

- لـقـد نـسيت الآخريـن.

- مـن أجـلهم.

- لا يـنسى الإنـسان أحداً ثم يـقـول أنـه يـعمـل مـن أجـلـه، فـالـنسيـان حكم بـالإعدام.

- ولـكنى أعدمت نـفـسى أولا فـيـهم

- إذا عـاش الإنـسان فى وحدة بـاردة هكذا من كـثرة الـنفـاق وتـكـرار الإجماع أعدم ذاتـه ... وهـو يـعدم الآخريـن.

- .... كـنـت واثـقـة مـن نـفـسى إلى أبـعد مـدى

- كـان غـروراً ولـيس ثـقـة

- وكل هـذه الـقـوة؟!

- كـانـت سيطرة ولـيست قـوة

- وكل هـذا الحب؟

- كـان احتـواء ولـيس حبـاً

- وثـورتـى... ورفـضى لـلـقـديم؟

- هـذا زمـن مـضى .

- والآن؟

- لم يـبق إلا مـا يـشبـه الـنجاح، والـنـفـاق

- أيـن عـواطـفـى وحبى لـلـنـاس؟

- لا يـوجد حب فى الهـواء الـطلق، وحين أصبح الـنـاس نـسخا مـكررة، اختـفـى الـبـشر، وانـسحبت الـعـواطف

- كـل مـن حولى هـؤلاء لـيسوا بـشراً؟

- الـبـشر لا يـوجدون فى كـشوف الـفصول أو فى جداول الحصص، ولـكنهم يـوجدون عـلى أرض الـواقـع فى عمـلـيـات الأخذ والـعطاء

- لـقـد كـانـوا حولى، كـانـوا معى.

- كـانـوا يحيطون بـك، ولـيـسوا معك

- كـانـوا معى فى الـفصل وفى حفلات الـسمـر، كـنت هـنـاك، وكـانـوا حوالّى

- وسمعتِ قـصائـد المديـح.

- لأعمال حقـقـتُها فـعلا

- لـكن أيـن الآراء الأخرى، والخطوة الـتالـية، والاختلاف، والـتجديـد، والاستمرار والـتطور.

- تـريـد أن تـشككنى فى كل ذلـك؟

- بـل أنـت الـتى جئت تـشكين فى كل ذلـك

- أنـا لم أشك بـعد.

- أن داخلك مـازال قـويـا نـقيـا... وهـو الـذى فـجر الـكيـان المتهـاوي

- ولـكن أيـن هـو... ذلـك الـقـوى الـنقـى؟

- وراء جدران الخوف الـبـارد

- لمـاذا هـو قـوى وخـائـف؟

- أنـت الـتى خفت منـه، وخفت عـليـه من الـنـاس، وهـم خـدعـوك بـالموافـقـة والـنفـاق، هـم الـذيـن سـاعـدوك عـلى إنـكـار وجـوده ولم يـبق إلا نـقـاء قـادر عـلى تـضحيـة فـرديـة اشبـه بـالـعمل الـفـدائـى غير المضمون.

- ومـا الـعمل الآن؟

- بـالـثقـة والحب يـرجع كل شئ.

- أيـن؟ مـا زال الجميع يـنـافـقـونى ويـوافـقـونى.

- نـبدأ من هنـا، لـنصل إلى من هـم خـارج الـدائـرة الـتى تحيط بك

- هنـا أيـن، تـقصد معك؟ أنـا لـست مـريـضة، كـلمـا هممت أن أصدقك، ازداد حذرا مـنك.

- هذا أمـر طـبيـعى، لـكن لا بـد من المخاطـرة، لا يـوجد حل آخر.

- أريـد أن أنـام.

- نـعلـن الهدنـة المؤقـتة وتـنـامين بـالـكيـميـاء ثم تـعيـدين الـنظر فى كل شىء.

- ولا أصبح بـنفس الـقـوة؟ الـعقـاقير سوف تهد قـوتـى

- لـتقـومـى مـنهـا وبهـا أقـوى وأصلب وأقـرب

- عـلى شرط أن تـظل آرائـى هـى الـصائـبـة؟

- أو تـتعـلمين كيـف يـصبح الـصواب أقـرب إلى رأيـك.

- لم أعـتـد ذلـك، وهـل يجعـلنى كـل ذلـك أنـام؟

- بـل يجعـلك تـستيـقظين.. فـقـد كـنت نـائـمـة حتى الآن.

- كـل هـذا الـزمـان؟

- إلا فترة ثورة الشباب

- أين راحت؟

- ضحكوا عليك بمظاهر القوة، وألحان النفاق

- قتلونى بجبنهم.

- ولكن الاخصائية تحبك

- الأخصائية؟

- تحب داخلك الضائع المنكمش وليس مظهرك الخادع.

- وما هو الضمان؟

- الضمان الوحيد هو أنه لا يوجد بديل

****

قال الفتى للحكيم:

- ما أروع كل هذا، وأصعبه

قال الحكيم:

- فعلا، كل رائع صعب

قال الفتى:

- هكذا تخدع مظاهر القوة والنفاق الناس، فما هو السبيل إلى توقى ذلك، لعل فى الأساليب العلمية الدواء الشافى المعافى.

قال الحكيم:

- أنت تريد أن تخوض فى أصعب المناطق حرجاً، فالعلم له وجوه كثيرة والعيب فى ذاته المقدسة يعرضنا للخطر والهجوم.

قال الفتى:

- ولكنى أسأل ولا أعيب، فهل فى العلم أيضا خداع؟

قال الحكيم:

- نعم...وللأسف، فهل تسامحنى إذا أنا اعتذرت عن دخول محرابه؟.

قال الفتى:

- ولكننا هنا نناقش الأشياء عارية فلا تبخل علىّ ولا تخونك الشجاعة.

قال الحكيم:

- إذن فاسمع منى يابنى حكاية "العلامة".

الثلاثـــــــاء 12-07- 2011

1411-العلامـــــــــة

اعتذار متكرر: لم أستطع – مرة أخرى- مواصلة كتاب "الأساس فى الطب النفسى".

فنواصل الكتاب القديم الجديد ليحتل المساحة اليوم وباكرا.

كتاب جديد (قديم)

عندما يتعرى الإنسان (7 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

العــلامة

قال الفتى للحكيم:

- أراك حطمت من الأصنام ما يهز معتقداتنا مرة ومرات... وها أنت ذا تقترب من إله العصر الحديث "العلم" وأخشى ما أخشاه أن يختلط الأمر على فتهتز ثقتى بهذا الإله أيضاً، وهو نور الهداية على طريق التقدم، وهو الحل الأول والآخر فى بلدنا هذا، فى عصرنا هذا.

قال الحكيم:

- ليس على العلم خوف ولا فى حديثنا عنه حرج، ولا ينتقص منه أن يمر أحد رهبانه بأزمة وجود، وعلى أية حال فإن المبالغة فى تقديس معطياته دون تمحيص، وعبادة أرقام بطريقة عمياء، قد يزركش الطريق ولكنه ليس دائما دليلا على سلامته وصحته، وعلينا أن نعرف قصوره حتى نسكتمل أبعاده وإلا انزلقنا إلى سبيل ضال رغم بريقه، قد يعوق تطور الانسان ونحن نتصور أنه يزين حاضر حياته، وحكاية اليوم لا تنقص من العلم بل تزيد من إمكانياته، ولا تنفى ضروته بل توسع آفاقه.، وهى حكاية "العلامة" الذى كاد يكفر بعمله حين اهتز كيانه.

قال الفتى:

- وكيف كان ذلك؟

قال الحكيم:

- هو أستاذ مساعد أو مساعد أستاذ، هو لا يعلم أى أستاذ يساعد، وربما كان هذا من بعض ما يشغله إذ يبدو أن ذلك اللقب فى سالف الأيام كان له معنى، إذ كان يدل على طريقه حرفية فى التعلم والتعليم، تكاد تشبه تدرج المريد على يدى شيخه الصوفى، حيث يكون للأستاذ طريقة، ولكل طريقة شيخ، ولكل شيخ مريدون، ومن المريدين من يساعد الشيخ، كانت هذه المساعدة درجة يرفع بها المريد إلى أن يكون خادم الشيخ أو خليله أؤ صديقه، ولما أصبح اسم الشيخ فى العصر الحديث أستاذاً... أصبح مساعدوه أساتذة مساعدين، ثم راح اللفظ بفقد معناه بسوء الاستعمال، ويفقد نبضه من كثرة الابتذال، ويصبح رمزا لوظيفة لها علاوة، وللعلاوة ميقات معلوم، وأوراق مرتبة، حدث ذلك حين أصبح العلم غاية فى ذاته، وليس سبيلا للمعرفة، والألعن حين أصبح وسيلة لغير المعرفة، مثل المنح والترقيات، ولخدمة أموال الشركات وبالتالى أصبحت المعلومات أشبه بالأوراق المالية ولها بورصة وأسواق، وليست إثراء للوعى البشرى، وإسهاما فى التطور، فراحت تنحشر فى أدمغة الحفاظ، وتتراجع عن دورها كطريقة فى الفهم وتنمية للفكر الخلاق، وهكذا انقلبت الجامعات ومراكز البحث من مراكز حب صوفى بين الأستاذ ومريديه، إلى درس إملاء من بوق إلى سامعيه، ويبدو أن كل هذا لازم لمواجهة الأعداد الكبيرة للحفاظ والانتشار الهائل لموجة التحفيظ، وليس التعليم. إذا فقد التعليم طريقة الشيخ والمريد فإنه يفقد النبض العاطفى، ويصبح حشوا منظما لكم متناثر من المعلومات فى خلايا مخ إنسان لم تضع فى حسابها وهى تتطور أنها ستصبح مخزنا لرموز أشياء فقدت اتصالها بالأصل.

قال الفتى:

- ما هذا كله؟ كأنك تلقى محاضرة لا تحكى حكما من خبرة كما بدأنا

قال الحكيم:

- عندك حق، نسيت نفسى، لكن كل هذا كان يشغل هذا الإنسان الطيب حين حضر إلىّ شاكا مترددا هيابا

قال الفتى:

- وكيف كان ذلك؟

قال الحكيم:

- اندفع بخلاف غيره بمجرد أن دخل على وراح يتكلم بصوت مرتفع دون أن أسأله قال: لولا بقيه من أمل.. لذهبت إلى "كودية زار" فقد كدت أكفر بالعلم من كل نوع، وحين شاهدت الشهادات على حوائطك انزعجت أكثر فإن كل ما تقوله هذه الشهادات هو أن دماغك فى وقت ما قد انحشر فيه كذا كيلو جراما من الكتب.. ما هذا؟ لماذا؟ هل تريد ان تدهش زبائنك

بكم معلوماتك قبل أن يدخلوا إليك فتسهل مهمتك فى ترويضهم؟ هل هم جاؤوا إليك تقديرا لهذا المخزن الممتلىء بالمعلومات أم طلبا لما تحمل فى جوانبك من معرفة ومشاعر..؟ لماذا لا توزع عليهم دليل أبحاثك "إياها" التى ترقيت بها؟ أو تكتب لهم بيانا برحلاتك العلمية التى اشتريت فيها الملابس الداخلية لزوجتك وبناتك، أليس هذا أوقع فى نفوسهم حتى يدخل الواحد منهم وقد استسلم لهيلمان معلوماتك فتلقى اليه ما تريد، أليست هذه الطريقة هى التى تجعلك مسبكا مثل المسابك الوالدية المحترمة، تصنع الناس حسب النموذج الذى فى ذهنك؟ تضغطهم على بعضهم حتى تغوص أنوفهم فى أقفيتهم، وتنطبق شفاهم ويصبح المنطوق فى حدود المقبول.... وبهذا يتكيفون مع ما حولهم من واقع فاسد وكذب شائع!؟

قلت له:

- لماذا أنت قاس كل هذه القسوة فى فروضك، فبرغم أنها تحمل بعض الحقيقة إلا أنك لم تر بقية الصورة بعد، وأظن أنه من الأفضل أن تنتظر ثم تحكم.

قال:

- أنا أبدو قاسيا لكثرة ما قاسيت طول عمرى لأنى أقول الحق عارياً، والحق قاس وصارم، وعلى كل حال فأنا لم أجئ بالجديد، أليست الصحة النفسية عندكم هى التكيف، لماذا لا تغير اللافتة فتكتب الدكتور فلان أخصائى "التكييف"، أو قل مثلا جهاز "التكييف الطبى الصحى المعتبر"؟ أليست وظيفتك أن تكيف الناس مع بعضهم البعض، ألست هنا تخدم استمرار النظام كما هو؟ ألا تسمون بعض عقاقيركم المهدئات العظيمة؟ أى عظمة أن تهدئ ثائرة الناس؟ ومع ذلك فقد جئت إليك على رجلى... ومستعد أن أسمع منك غير ما قلته أنا.

قلت:

- أنا أساعد الناس أن يجدوا أنفسهم، ويطلقوا قدراتهم ويمارسوا حريتهم ثم يختارون طريق التكيف أو يشكلون هويتهم كما يشتهون... أما مجرد الرفض دون بديل، وإشعال النار دون إطلاق طاقة؛ فهذا ما لا بد أن تتفق معى على رفضه.

قال:

- إذن أنت تحاول أن تستدرجنى.. فليكن.. أنا جئت هنا أحاول.. فلأحاول، سوف أحكى لك:

كنت طالبا ممتازا فى كل شئ، رغم مرور السنين.. أذكر بخاصة يوم انتزعونى من البيت إلى المدرسة، أذكر ذلك تماما رغم أنى لم أكن بعد تخطيت الرابعة، خدعونى، كانوا يتصورون أنى لا أفهم، ولكنى مازلت أذكر هذا اليوم مثل الآن، ومازلت حتى هذه اللحظة لا أثق فيهم، قالوا أننا سوف نزور عمتى لألعب مع أولادها، وكانت وجوههم تقول غير ذلك، أيقظونى فى الصباح الباكر، وكان وجه أمى غير وجهها، لماذا هى مكتئبة

هكذا؟ لماذا نزور عمتى قبل طلوع الشمس؟ كنت أسمع قبل ذلك حديثاً عن المدرسة، وعن المريلة وعن أشياء كثيرة لم أتصور أبدا أنها يمكن أن تكون حقيقة فى يوم من الأيام، كانت علاقتى بأمى علاقة خاصة جداً، كانت جزءا من كيانى أو كنت أنا جزءا من كيانها، أو قل لم يكن لى كيان أو لم يكن لها كيان، كنا واحدا والسلام، مرة "أنا هى" ومرة "هى أنا"، ولكنها لم تحسن التمهيد لما سيكون، لأنى أحسست أنها فى ذلك اليوم لفظتنى فجأة، تقايأتنى من جوف أحشائها وهربت، وياليتها أنذرتنى بل خدعتنى...، فجأة.. وجدت نفسى فى الجحيم فعلا.. هل أستطيع أن أنقل لك مشاعر طفل بعد تلك السنين؟ كيف أنقل لك المشاعر بألفاظ اكتسبناها فيما بعد.. مشاعر عاشها طفل لم يكن يحذق بعد لعبة الألفاظ..

كيف أصور لك كيف انتهت الحياة؟ كيف اتسع العالم وانمحت حدوده حتى اختفى؟.. كيف أصف لك لوعة طفل تركوه فجأة، وقالوا سنرجع حالا ولم يرجعوا أبدا، ربما حتى الآن، تركوه ليرتمى على رمل المدرسة ويتمرغ.. ثم يحس بالتضاؤل حتى كأنه يتحول إلى دودة صغيرة تسعى وحيدة فى صحراء شاسعة ليس فيها حياة... قالوا سنرجع حالا.. ويا ليتهم ما قالوا "حالا"، توقف الزمن عند هذه اللحظة، ولم يعد حال ولا ماض ولا مستقبل، واستمرت لحظة الحال الدهر كله، ومازلت أعيش هذه اللحظة أبدا، ومع ذلك فهأنذا قد مرضت أو هكذا تقولون.. ما أقسى كل هذا، وحين جاءت أمى لتأخذنى آخر نهار الجحيم قفزت الدودة فى جوفها وزحفت قليلا فى أحشائها ثم تلاشت تماما.. كلام مجانين أليس كذلك ولكنك أنت الذى اخترت هذه المهنة فعليك أن تسمع كلامنا... وإلا لمن نتكلم.. شبعت كلام عقلاء... وجئت لأتكلم مثلما كنت أفعل قبل أن أذهب إلى المدرسة "أى كلام"... أما بعد ذلك فلم أنطق إلا بالمفيد... حتى صرت إلى ما صرت إليه، اسم الله !!!!

قالت الأبلة:

- "الذى سيتكلم سأقفل فمه باللزاق" ومن يومها لم أنطق إلا بالمفيد، بالدروس... بالمعلوم بكل الجدية، وكل ما هو غير ذلك انحبس فى جوف إلى الابد.. لا.. إلى الآن، حتى انكسرتُ، فجئت إليك أقول ما يحلو لى وأتمتع بفضيلة الجنون، الدودة.. الصحراء! على فكرة هناك من الديدان ما ليس له فم. وأنا لم يكن لى فى تلك الأيام فم.. هل تجد صعوبة فى الفهم؟ معك حق، ولكن مشاعر الطفل إذا ترجمها عالم متحذلق مثلى إلى ألفاظ ليعرضها على آخر كانت النتيجة كلام مجانين. أليست المشكلة التى تجعل الناس مجانين أنهم يحملون من المشاعر ما لا يستطيعون صياغته فى ألفاظ؟ منذ ذلك اليوم انقطعت علاقتى بالحياة، كان الحزن العظيم الذى عاشه الطفل أكبر مما يحتمل فاختفت المشاعر كلها حتى حزن ذلك اليوم، وكان الضياع الهائل وسط صحراء المدرسة مفزع ولكن لا بديل له.. لم تضع أمى فى حسابها أنى ذاهب عنها لا إلى المدرسة ولا إلى أى مكان آخر، ولماذا يضعون فى حسابهم حزن الأطفال وهم لا يعرفونه، هم

يتصورنه شيئا مثل حزن الكبار بل هم يتصورنه أهون كثيراً، فالأطفال سرعان ما سينسون. إن الكبار هم الذين يمكن أن ينسوا فاذا تذكروا فهى ذكريات حزينة، أما الأطفال فانهم لا ينسون، لأنهم يعيشون تجربة لا يعرفونها قبلا، فتختلط بكيانهم الغض حتى تغيره، فكيف ينسون وقد أصبحت الذكرى جزءا من تكوينهم، إن حزن الكبار هو الأسى، هو الأسف، هو اللوعة، هو الحسرة، أما حزن الأطفال هذا الذى أحكى عنه فهو ليس حزنا، هو حسرة، هو الضياع الكامل، هو الموت، هو الإحساس بشئ كبير هائل يجثم على أنفاس الصغير ويحيط به من كل جانب ويجعله يتضاءل حتى يكاد يتلاشى وياليته يتلاشى، ولكنه يندمج فى هذا الشئ غير المحدود حتى يصبح هو بلا حدود، لا يمكن أن أصف لك هذه المشاعر بمزيج من الهمّ والضياع والخوف واليأس؛ لأن كل هذه الكلمات اكتسبت معان نستعملها نحن الكبار، أما شعور الطفل فهو شيء آخر. حدث كل ذلك فجأة... أحبتنى والدتى حتى تملكتنى فيها، ثم تركتنى قهرا دون إنذار... ، خدعتنى.. كذبت علىّ، فانقطعت علاقتى بالناس وللأبد، كانت أمى هى الجنة الوارفة المثمرة، لا أبذل فيها أى جهد لأحصل على ما أريد، أما فى صحراء المدرسة فقد كان الكتاب هو نبات الصبار وها أنا، صلب مثل الصبار وذو شوك أيضا يؤلم من يقترب منى، أصبحتُ أنا الكتاب ذاته وارتبطت المشاعر نحوى بكونى كتابا جيدا أو كتابا سيئا، وإلا فأنا لا شيء.

****

- لماذا تحبينى يا أمى؟

- لأنك تلميذ شاطر

- هل ترضى عنى يا أبى؟

- طبعا ما دمت شاطرا فى المدرسة

- وإذا لم أكن شاطرا يا أمى؟

- غير معقول

- وإذا قصّرت يا أبى؟

- لا.. ليس أنت.

غير معقول ألا أكون إلا كتابا.. "أنا" لست "أنا" إذا قصرت، أما "أنا" فهو أمر غير وارد غير محتمل.

وهكذا دارت الأيام وأصبحتُ كتابا محبوبا.. الشطارة مصدر الرعاية، والتفوق شرط الحياة..

فليكن.

أقبلت على الكتب.. غرقت فيها حتى أذنىّ وساعدتنى وحدتى وحمانى انطوائى.. وكان والداى يفرحان بهذا الهدوء والقراءة المستمرة، واستبدلت بالناس الصور المقروءة، واستبدلت

بالكلمات النابضة وبالحياة الدافئة، الكلمات المرصوصة على الورق، وحين ازدادت حاجتى للناس فى سن المراهقة حاولت أن أبعث فى ألفاظ الكتب الحياة، حاولت أن أجد الناس الأصدقاء بين الصفحات، كانوا ناسا رموزا لكنهم ناسى، أحسن من لاشى والسلام، كنت قد فقدت الثقة بالناس الحقيقيين، كيف آمن لهم وقد يتركونى مرة ثانية دودة ضائعة فى صحراء جرداء جديدة لا أعرفها، أما ناس الكتاب فأنا الذى أمد يدى إليهم وقتما أريد، وأنا الذى أعيدهم إلى صفحاته حين أنشغل عنهم بعد أن يؤدوا الواجب، أنا سيد الموقف لا أنتظر شيئا من آخر وحتى أنت جئت إليك - بصراحة - لا أنتظر منك شيئا، أقنعت نفسى أنى جئت إليك أتفرج على علمك، أو عليك، لن ترتقى أبدا لأن تكون ناسا عندى، أنا دفعت لك تماما كما أشترى كتابتا، وعندى أمل ان تكون أسهل فى القراءة... أما كونك إنسانا "آخر" فهذا ليس فى حسابى رغم أن جزءا غائرا فى نفسى يتمناه.

قلت:

- ولكنى إنسان، وهذا هو أساس مهنتى

قال:

- يا ليت، وما هذا الذى تعلقه على الجدران فى الصالة، أنت "عالم" قبل أن تكون طبيباً، هذه هى صورتك عندى، وهى صورة لا تسر بعد ما حدث لى

- وهل هناك تناقض بين أن أكون عالما وأن أكون طبيا إنسانا

قال:

- هذا ما جاء بى إليك.. فقد عشت هذا التناقض منذ اللحظة الأولى بين الكتاب والإنسان، بين العلم المجرد ونبض الحياة، وكانت نهايتى كما ترى: هنا بين يديك، هارب من الجنون أو قل هارب إلى الجنون. منذ اللحظة الأولى..، منذ تركتنى أمى دودة تسعى فى صحراء بلا ناس، منذ خدعتنى وقالت: سآتى حالا ولم تأت أبداً، منذ أحبتنى حبا لصقنى بها جزءا منها، ثم تركتنى فجأة كتابا ملقى على الطريق تعبث بصفحاته عواصف الصحراء، أعنى حوش المدرسة، وظلت العواصف تقلب صفحاتىحتى تمزقت دون أن تتطاير، وها هى بقاياها بين يديك، .. هذا الذى أمامك هو بعض ما تبقى مما لا يصلح لشىء، .. أنا الغلاف والمقدمة والخاتمة، أما محتوى الكتاب فهو ضائع منى، وبالتالى فهو ليس فى متناولك

قلت:

- ..كنتَ طالبا ناجحا ثم صرت عالماً ناجحاً غاية النجاح، فأين المشكلة؟.

قال:

- النجاح؟ نعم النجاح هو القوة التى تساعد على المسير..، هو الطاقة التى تجعلك تستمر ولكن هذه القوة لا تحدد

طريق المسير. إلى أين؟ هى تنقلك من محطة نجاح إلى محطة نجاح تالية؟ ولكن كل هذه التنقلات ولو بدت إلى أعلى شئ وصواب الطريق الذى تتنقل بين محطاته شئ آخر.

قلت:

- أليس طريق البحث والعلم هو من أكثر الطرق إبهارا وتنويرا

قال:

- كان طريقا باهراً مملوءا بالنجاح فعلا، وهو ملىء بالتنافس أيضا، .. آه من التنافس قد يحلو لك أن تنتصر على غيرك وتسحقه.. ولكن الطفل.. الطفل المسكين كيف يثيرون فى نفسه كل هذه الرغبة فى الانتصار على أقرانه ومن أول لحظة.. كيف يثيرون الحقد فى أعماق طفل لم يتعد الرابعة.. كيف يكون الهدف الأول والأخير أن يكون "أفضل" لا أن يكون "فاضلا"، دائما أفضل من الآخرين. فيصبح الآخرون أعداء يتكالبون معه على شئ واحد..، ومن البداية، مع أنهم فى أشد الحاجة إلى بعضهم البعض، أكثر من حاجتهم إلى ذلك الشئ الأوحد: التفوق.. وبدل أن يكون العلم منهلا ينهل منه الجميع. يصبح التفوق مطلبا فى ذاته.. ومنذ متى.. من أول خطوة على الطريق، لا شك أن التفوق ضرورى لهذه الحياة ذات الفرص الضيقة، لا شك أن التنافس حافز، ولكن ذلك التنافس الحاقد ومنذ الطفولة شئ آخر، هو إثارة لكل دناءة العصر الحاضر، هو تنمية للنوازع التى تخدم حرص المجتمع منذ الطفولة، ولكن هذا شى عادى يحدث فى كل بيت ولكل طفل، وهو يأتى بأفضل النتائج، لا تعجب فقد جاء عندى أيضا بأفضل النتائج، كنت الأول دائما، كنت أرى نظرات أحمد وعمر وسالم ونبيل وسناء ومى، وأفرح فرحا بلا نشوة، وأزهو بلا طرب، ويدب فى حماس نحو نجاح آخر... ويزيد تعلقى بالكتب، وبعدى عن الناس فى نفس الوقت.

ثم جاءت فترة المراهقة. فازددت عزلة خوفا من هجر جديد، تجنبت أن أدخل فى مغامرة غير مضمونة، لا أريد أحدا يحبنى حتى أتلاشى فيه ثم يتركنى حتى أضيع... أما أصدقاء الكتب فهم مضمونون. تستخرج من بين السطور من تشاء تتقمصه وتصادق أصدقاءه وتعادى أعداءه ثم تحتفظ بالجميع على رف المكتبة، تستدعيهم وقت ما تشاء وتجدهم فى أية لحظة من ليل أو نهار، وزاد تعلقى بالكتاب وأصبح بديلا عن الحياة.. وزاد تفوقى.. وأهلى راضون سعداء. حققت لهم ما يشتهون.. وحصلت على شهاداتى المزركشة بتقديرات عظيمة.. ورغم أنها لم تكن عملية سهلة إلا أنها كانت تتم بنجاح.. وراء نجاح، ومع ذلك ظلت الامتحانات هى رعبى الهائل المتكرر طول الوقت..، كانت حدثا رهيبا فى حياتى لأنه: بما أنى كتاب ليس إلا، فليس لى خيار، صار الامتحان بالنسبة مسألة حياة أو موت فعلا لا مجازا، لأن معنى الإخفاق هو الضياع، الاختفاء، الفناء.. ماذا يتبقى منى إذا فشل الكتاب.. وأنا كلى كتاب، لست إلا كتابا، كنت أدخل الامتحان لا لأفرغ ما فى رأسى من معلومات ولكن لأتأكد من وجودى.. لأنه لا وجود لى بدون شهادة، وحصلت على الشهادة

تلو الشهادة حتى البكالوريوس. إلى هذا الحد.. كانت حياتى مفهومة ومعقولة - على الأقل من الظاهر - استعضت بالكتاب عن الحب، و بالنجاح عن الحياة الاجتماعية، وبالشهادة عن الوجود الإنسانى، وبدا لى كل ذلك طبيعيا من فرط ما مارسته كل هذه السنين، لم أكن أدرك أننى لم أبدأ حياتى أبدا، لم يكن ينقصنى شيء.. لم أكن أشكو من شيء حتى ذلك الحين..، كان نجاحى يحفظ حياتى ويعطى لها معنى.. وما ظهرت هذه الرؤية إلا الآن، كأنى أكتشفها معك لأول مرة.

قلت له:

- ولكنك صورت النجاح تصويرا وكأنه الفشل، فهل تعتقد مثلا أن الفشل كان سيصلح حالك؟

قال:

- قلت لك إن الفشل هو الموت ذاته، لأن النجاح كان الشيء الوحيد فى حياتى، النجاح طاقة ولكنه كان لى هدفا وغاية ووسيلة وكل شيء، إلا ان النجاح والتفوق فى ذاته لا يعطى للانسان عاطفة أو حياة، قد يتيح له فرصة أحسن ولكنه ليس هو ذاته الفرصة الأحسن، الناس تركز على نجاح الأطفال وتفوق الصبية والبنات ولا يتابعون مصير الناجحين حين يكبرون..

ياسيدى أنا نجحت حتى لم يعد للنجاح طعم، تفوقت على الآخرين حتى ابتعد عنى الآخرون، وحصلت على الشهادات كلها.. وكلما تدرجت على سلم الشهادات انزعجت من تلك المقاييس التى تقيم الناس، وكان آخر المطاف شهادة الدكتوراه: رسالة وامتحان يرضى كل الممتحنين بلا استثناء - أى والله بلا استثناء - وتيقنت أن آخر شهادة هى أخطر شهادة، لأنها تعطيك حق الجهل، وهى شهادة تُعطى ولا تُؤخد، تدل على الرضا أكثر مما تدل على العلم، أما أنها تعطى حق الجهل فهذا أخطر ما فيها.

قلت:

- لا تغال.. وقل لى كيف؟

قال:

- أنا لا أغالى، ولو لم أكن حاصلا عليها لحسبت ذلك شعورا بالنقص أو حقدا ولكنى حاصل عليها من أول مرة وبامتياز، ومع ذلك فأنا لا أقول إلا الحق، فقبل هذه الشهادة يتمتع الطالب أو العالم بفضيلة الحياء، فيخشى أن يفتى فتوى دامغة إلا إذا راجعها وحسب لها حسابها، أما بعد أن يحصل عليها فإن له أن يقول ما شاء دون حساب مباشر، خاصة فى بلدنا هذا، هذا هو الخطر بعينه، أن يحسب الانسان نفسه عالما بالشهادة، فالشهادة قد تكون خدعة كبرى لأنها من الرموز التى تعدت معناها حين أصبحت غاية فى ذاتها، وأصبح تقويم الانسان صغيرا

وكبيرا مرتبطا بها ارتباطاً وثيقا، وهذا من ضرائب العصر التى لم نجد لها بديلا حتى الآن..

قلت:

- ولكن ماذا ضرك فى كل هذا.

قال:

- لا شىء حتى الآن إلا جفاف الحياة، وفقد نشوة الانتصار. بعد الشهادة الكبيرة عشت الألم الرهيب الذى انتهى بكسرى الذى أتى بى إليك هذه هى الحكاية.

قلت:

- أية حكاية؟

قال:

- حكايتى مع العلم والعلماء والبحث والمبادئ ، أنا حين سلكت طريق العلم أصبح للكلمة محراب فيه أرقام وأرقام أهتز لها احتراما، وأنحنى أمامها تبجيلا، ولكن حين أصبحت أحد خدام هذا المحراب اكتشفت أن ما به ليسوا آلهة كلهم، هناك أيضا أصنام من الحجارة تبدو عليها سمات الآلهة، واهتززت وتشككت وكدت أتراجع وأنا أكتشف أن الأبحاث فيها الحسن وفيها السئ، وحين تقرأ بحثا فأنت إما أن ترفضه وإما أن تقبله، ولكنى كنت أحد خدام المحراب وولدانه، فمارست تناول الماء المقدس من الداخل ولم يكن دائما مقدسا، خصوصا لدى الكهنة الأساتذة المشايخ والأحبار.

قلت:

- الحياة: "فيها".. "وفيها".

قال:

- ليكن، ولكن فى محراب العلم تصبح الأمور لا تحتمل أن يكون " فيها".. "وفيها"، إما أنه فيها، أو أنه ليس فيها.

قلت:

- فلندخل إلى الموضوع ونخفف من الألغاز.

قال:

- ما دامت الأبحاث فى بلد نام، أو فلنسمه متطوراً فلا بد من احترام إمكانياته، وقد سمعت أستاذاً ساخرا يقول أثناء التلمذة إن الأبحاث فى مصر - فى مجاله على الأقل- إما كلام فارغ أو كلام مفروغ منه، أما الكلام الفارغ فهو البحث الذى يعمل وكأنه شيء مبتكر وهو ليس به شئ، أما الكلام المفروغ منه فهو الذى سبق عمله فى بلاد أكثر تقدما وما تكراره هنا عندنا إلا من باب تحصيل الحاصل.

قـلت:

- تـريـد أن نـوقف الـبحث الـعلمى فى بلادنـا؟

قـال:

- خطر لى فعلا أنـه إمـا أن يـكون هنـاك بحث علمـى وإمـا أن يـوقف.

قـلت:

- فـليكن.

قـال:

- لم يـكن.

قـلت:

- إذن مـا الـذى كـان؟

قـال:

- كـان يـا مـا كـان أستـاذ ذو كـرسى، والأستـاذ عندنـا صنفـان: واحد لـه كـرسى والآخر يظل واقفـا حائـرا بـدون كـرسى، وعندنـا من الأساتـذة من يـتراخى على كـرسيه حتى يـصبح الـكرسى أريـكة، ويـا حبذا لـو كـان سريـرا يحاط بمساعدين يـهوون عليـه بمراوح من ريـش نـعام.

قـلت:

- إنـك فى أزمـتك تـذهب إلى بـعيد وتـرسم صورة صارخة لـيست هى الـقـاعدة.

قـال:

- أنـا لا أتحدث عن قـواعد، أنـا أتحدث عن تجربـتى الخاصة، أنـا مـريض نـفسى وأنـت طبيـب نـفسى، وقـد تحرجت طويـلا أن أقـول هذا الـكلام بين الـزملاء، كـانـوايـشعرون أنى أهاجمهم وأكشف عوراتهم فى حين أنى كـنت أنـقد نـفسى معهم، كـانـوا يـدافعون عن جلال الـعلم وهيبـة "الأسـاتـيذ" دون محاولـة لمنـاقـشة صدق محاولـتى، وكـأن الأستـاذ هـو أستـاذا لأنـه أستـاذ، ولـيس لأنـه رائـد وموجه ونـاقـد وإنـسان، وظـللت أكـتب وأخطّئ نـفسى وأعمل حسابـا لـلذى يـصح والـذى لا يـصح، وأفـوّت وأصهين وأسكت وأغمض حتى انـكسرت، وجئت إلـيك يـا سيـادة الأستـاذ الـطبيـب الـنفسى، ولـكن قـل لى هل أنـت تـعترض لأنـك أستـاذ أم لأنـك طبيـب؟ لمصلحة من تحاول أن تـزيـن لى حقـائـق عشتهـا أنـا بـكل الألم والمـرارة، وتـقـول أنـت تـبـالـغ؟ أنـتم الـذيـن تـبالـغون فى الـعمى والـضلال.

قـلت:

- الـعمى والـضلال مـرة واحدة؟ هكـذا؟

قـال:

- نـعم بحجة احترام الـواقـع والمجاملات، إن الـواقـع محترم. طالما هو صدق وأمـانـة، والمجاملات عظيمة طالما هى الـزيت الـذى يـلين تـروس المعاملات الجافة، أما أن نـرص الأرقـام ونـتبع مبدأ "من سهل، سهل الله عليه" فإن ذلك هو الـعمى والضلال.

قـلت:

- ولـكنـها تجربة خاصة.. فـلماذا تـعممها؟

قـال:

- أنـا لا أعمم شيـئـاً.. أنـا إنـسان مكسور ضعيف مهان، وملقى فى كرسى فى عيادة نفسية، فى عقلى خلل وفى إدراكى شطط، ومن حقى أن أخرف ما شئت، وإلا ما فائدة أن يمرض الإنسان، ألـيس المرض سبيلا إلى حرية ما، ألا يمكن أن يكون عذرا لأمثالى ليقولوا ماشاؤوا، أم أنه دائما علقه قبل وبعد الحديث الطليق؟

قـلت:

- ولـكنه مرض.

قـال:

- مرَض يمرضُ مرضاً فهو مريض والجمع مرضى أو مريضون أو مريدون، يبدو أننى لكى أقول ما أشعر به فى صدق وصراحة لا بد أن أمرض، وحين أمرض لا يصبح لكلامى معنى ولا يسمعه أحد لأنى مريض سوف" يسقطون لى فارغة".

قـلت:

- فـهو المرض.

قـال:

- هو كذلك... ولـكنه الحقيقة، أن ترى الأوضاع مقلوبة، أن تـرى الـعجز سافرا، أن تعيش يقظة الـوحدة، أن تعرى الأشياء، هذا ما تسمونه مرضاً.

قـلت:

- ربما هى حقيقة هاربة مختبئة.

قـال:

- لم يسمح لها بالظهور فى غير العيادة النفسية.

قـلت:

- ربما أنت لم تحتمل الاستمرار.

قــال:

- ربما.. ربما لم أحتمل الاستمرار، وربما خفت من الاستمرار.... فالإنسان ما لم يتيقظ فى كل لحظة انحرف وهو لا يدرى، وأسلوب الانحراف يختلف ويتنوع، وأخطر أنواعه النوع الخفى ذو المبررات الواقعية وشبه الأخلاقية، اسمع يا سيدى هل انتهى وقتى أم استمر؟

قـلـت:

- خذ راحتك

قــال:

- قالوا أنت حنبلى، ولوحوا أمامى بالترقيات والمؤتمرات وقلت لنفسى، أنا لا أستطيع أن أصلح الكون وأنا صغير، فلأكبر أولا ثم أصلح الكون، إنهم يريدون عدداً من الأبحاث "كل شىء كان" (كلِّشنكان) فليكن، ولأصبح ذا مركز يليق، ثم أغير الكون.. وبدأت الطريق القاسى، لم يكن هناك سوى أرقام أريد ضربها وطرحها وقسمتها، وإيجاد مُعامل الإرتباط، ومُعامل الثبات إلى آخر هذه القصة التى تزين البحث لتستخرج منه حقائق توصف بأنها علمية أو ما شابه ذلك، وكلما وصلت بهذه الطريقة إلى حقيقة تعجبت فهى حقيقة بديهية، ولكن البديهيات لا تتقدم بالعلم، والعلم يحتاج إلى أرقام ودلائل، ومضيت أجمع وأطرح وسجلت ملاحظات لا بأس بها، وكان لها رنين حلو منمق، ولكنى فى قرارة نفسى كنت غير مقتنع بكل ذلك، ماذا أفاد هذا البحث؟ ماذا أضاف؟ أى سؤال أجاب؟ أى جديد؟ وكنت أسأل زملائى فأجد عندهم جاهزة براقة معادة، لا تصلنى فأتهم نفسى، والعجيب أننى كثيرا ما كنت أرد نفس ردودهم إذا ما سألنى أحد نفس الاسئلة، أما داخلى،.. آهٍ من داخلى هذا! كان داخلى يخرج لى لسانه ويلعب لى حواجبه، كان داخلى يسخر منى فألقمه مرجعاً ينشغل به، وأمضى فى طريقى وأقول: حين يصبح لى من الأمر شىء سوف أعدل الكون، بما فى ذلك البحث العلمى، أما الآن فعلىّ أن أصبر وأتساهل، واستعمل الكلمات الرنانة والأرقام المقنعة وأمضى، وذات يوم.. نعم ذات يوم.. أكتشفت انزلاقى.. توقفت وانكسرت.. وجئت إليك.. وها أنذا مريض مهان. أقول الحق فى عيادة.. لا بد لكى أقول الحق أو أدافع عن الحق أن أمرض.. ولا أقوله إلا فى عيادة طبيب

قـلـت:

- تقول "ذات يوم"! أى يوم كان ذلك اليوم؟

قــال:

- نعم "ذلك اليوم".. كنت هناك، وكان بحثا ضخما مفتخراً به من الجداول أربعة عشر ومن الصفحات ما يربو على العشرين، كنت أعرف فيه نقطا ضعيفة وكم هاجمتها فى غير

هوادة، ومضت الأيام.. حتى دخل ذلك البحث سرداباً خفياً فى جانب ذاكرتى ثم اضطررت فى ذلك اليوم أن أقدّمه، ووجدتنى أستحضره وأنا أكاد أفخر به لحسن ترتيبه، ووجدتنى أدافع عن نقط ضعيفة، كم سبق أن رفضتها، وفجأة حدث الذى كان.

قلت:

- وما الذى كان؟

قال:

- أثناء إلقاء البحث، اخترق رأسى من الداخل فجأة : ما بين عينىّ صاروخ مثل السيف المحمى على النار، واضطربت الألفاظ أمام عينى وأصابتنى دوخة وعجزت عن الاستمرار فى إلقاء البحث، كيف أدافع عما لا أعتقده؟ وفى أى مجال؟ فى مجال العلم؟ أحسست بأنى داعر، لا تؤاخذنى فى التعبير، ولكن لا تنسى أنى مريض، وأنى ما مرضت إلا لآخذ حقى فى التعبير، فحيث تكون السلامة تكون المجاملة ويكون الكلام ممنوعاُ والسكوت ممنوعاً أيضا،

قلت:

- ولكن هذا البحث.. .. ماذا به؟ ، ماذا حدث فى ذلك اليوم، هل اكتشف أحدهم فى المناقشة أن به شيء؟

قال:

- لا .. ليس به شيء، هذه هى المصيبة، ولأنه ليس به شيء فقد كُسرتُ لأننى اكتشفت أننى أدافع عن لا شئ، هل يمكن أن تتصور إنسانا يمسك بكل أسلحته للدفاع، ثم يكتشف أنه يدافع عن أعدائه هو، تقضى عمرك تدافع عن معتقداتك فى خزانة عقلك ثم فى لحظة يقظة تفتح الخزانة فإذا بها خاوية على عروشها. حينئذ تصعق وتدور الأسئلة تلسع رأسك ثم تنطلق السهام الملتهبة المصنوعة من معدن صلب، تشل عقلك، وأعتقد أن أحدها هو الذى أصابنى بين عينى، كدت أراه فعلا وهو ينطلق نحوى، شعرت أننى لو مضيت أدافع نفس الدفاع، كأننى أحلف بمقام الشيخ الذى تحت القبة، ولا أحد يعرف سوى أن المدفون تحت القبة هو حمار نافق، وليس شيخا ذا كرامة.

قلت":

- ولكن ليست كل الأبحاث هكذا

قال:

- آه .. ذكّرتنى، مرة من ذات المرات كنت أجلس وكان ذهنى خاليا من كل شيء، كنت فى حديقة ما.. أمسك زهرة جميلة وكأنى مراهق يتأمل التوافق بين ذاته وبين الكون، وخطر ببالى وبدون سابق إنذار نفس التعبير الذى قلته انت الآن: "أنه ليست كل الابحاث هكذا".. فرد آخر من داخلى يقول "هكذا كل الأبحاث"، وأفقت من لحظة التوافق والانسجام، وجعلت أتأمل

مشكلتى المحيرة، وارتسمت ابتسامة ما على عقلى، ونظرت للوردة فى يدى وأخذت أقطف أوراقها وأنا أردد "ليست كل الابحاث هكذا"... "هكذا كل الابحاث"... "ليست كل الأبحاث هكذا"... هكذا كل الأبحاث"، وظننى الناس عاشقا ينتظر عشيقته ويسأل الوردة "ستحضر.. لن تحضر.." ووجدت عنق الوردة وقد تعرى من جمال الوريقات، وأنا اتساءل تساؤلى الذى لا ينتهى، وهتف لى هاتف أن مصير الطبيعة فى المعمل الجاف الذى ينسى نبض الانسان... مثل مصير الوردة بين يدى إنسان قلق أوشك على الانهيار، وتبينت ساعتها أن الانهيار قادم لا محالة ورفضته وتمنيته فى ذات الوقت.. رفضته خوفا من أن ينطلق المارد من داخلى فيحطمنى قبل أن يتحطم زيفى.. وتمنيته ليخلصنى من قيود حبست نفسى فيها بمحض إرادتى، وحين تخاف الشئ وتتمناه فى نفس الوقت يصبح الألم صريحا وقاسياً، وحين يزيد الألم ويهدد يصبح الانكسار وشيكا.. وقد كان، فانكسرت، طارت أفكارى كالطيور تسرح فى حديقة حرية المرض النفسى، وأخرجت لسانى لأبحاثى الزائفة. ومضيت أحرق الكلام المكتوب جميعه، آه من الكلام المكتوب، حرمنى فى طفولتى من أمى، ثم قيدنى فى شبابى من حريتى، ثم زيف المعرفة فى عز رجولتى، أنا حين أمسك بالكتاب الآن، أى كتاب: تصبح الصفحة أمامى بيضاء من غير سوء، تتداخل الألفاظ أولا، ثم ترقص الحروف، وتخرج لى لسانها وتلوح لى بالسلاسل، ثم تتشابك لتصبح سلاسل من حديد وتقترب من فكرى، فأخاف وأخاف حتى ينمحى كل شئ.. أليس هذا هو الجنون بعينه؟

قلت:

- أو هو الرفض الصارخ الشامل.

قال:

- وأظن أنى هنا لأقبل ما لم أستطع قبوله، ولكن كيف، لقد حاولت أن أحشره فى رأسى حشرا فلم أستطع، حين تحمل الألفاظ أجنحة المرض تنطلق بغير حدود، وساعتها يصبح للحياة معنى.

قلت:

- ربما يعطى المرض معنى للحياة إذا..

قاطعنى قائلا: هذا ما خيل إلى فى أول الأمر.. ولكنى أحسست بالوحدة الرهيبة تكاد تسحقنى، وفى نفس الوقت أحسست باستحالة دخولى القفص مرة ثانية وهذا ما جاء بى إليك، فهل عندك من ترياق:

قلت:

- سوف نبدأ برفض ما رفضت.

- حقاً؟

- ولم لا؟

- لأنى مريض؟

- بل هو رفض الزيف والخداع.

- ومن قال لك أنه زيف وخداع؟

- أنت الآن

- وكيف تصدقنى وتكذب لجنة التحكيم التى أجازت نشر البحث فى أحسن المجلات؟

- لم أجد أى مبرر أن أكذبك، ولا أى مصلحة لك فى أن تكذب علىّ، ووجدت أن الأقرب لى هو أن أبدأ بأن أقبلك بكل ما تحويه وتمثله وتقبله وترفضه.. فهل تقبلنى أنت؟

- أنا؟.. أنا أخاف منك.

- عندك حق، فى أزمتك هذه لك كل الحق أن تخاف من كل الكلام وكل الناس.. ولكن للأمر وجه آخر.

- وأخاف أيضا من هذا الوجه الآخر.

- ولكنك لا تعرفه.

- أنا خائف.. طيور فكرى تهرب من كل الأقفاص.

- ولكنها لو استمرت فى السماء بلا حدود.. فسوف تهلك أنت وهى.

- ستبحث لها عن عش ولو فى القطب المتجمد.

- تهلك من البرد والوحدة.

- أفضل من السجن داخل الخداع.

- ولكن هناك احتمال آخر.

- أى احتمال؟

- الإنسان.

- هو الذى أشقانى وعذبنى حتى انكسرت.. أمى كانت الإنسان الأول فى حياتى ثم تركتنى دودة تسعى فى صحراء المدرسة بين حروف جافة وطباشير أكلح لا نبض فيه، ثم سجنت وأنا أبحث عن الانسان بين صفحات الكتب، ثم فجعت وأنا أفتقد الإنسان فى مجال العلم الجامد

قلت:

- ولكن هذا لا يعنى أن نكف عن التعليم أو نهاجم الكتب كلها أو نحطم قدسية العلم.

قال:

- إذن ماذا يعنى؟

قـلت:

- يعنى أن تخرج من تجربتك أقوى وأصلب فتدافع عن المدرسة ولا تنسى الحب، وتتصالح مع الكلمة مكتوبة أو مروية، فهى وسيلة الاتصال بين البشر على أن يكون هناك بشر، ثم لنسخِّر العلم فى خدمة الحياة بكل نبضها المتناغم وجمالها البديع..

قـال:

- ولكن كيف؟

قـلت:

- بأن نستمر

قـال:

- الألم والخوف والسجن والانهيار

قـلت:

- الانهيار يمكن أن يكون ضياعا ودمارا كما يمكن أن يكون إطلاقا لقدرات لا حدود لها مثل تفتيت الذرة سواء بسواء، يمكن أن تفنى البشر كما يمكن أن تدفع بهم على سلم الرقى البناء.

قـال:

- هل يمكن أن يكون بالإنسان طاقة مثل الذرة؟

قـلت:

- بل أقوى وأبقى.

قـال:

- أين هى؟

قـلت:

- هى الخير والحب والإرادة والفضيلة، هى التى استمرت بالتطور حتى الآن، هى التى انتصرت دائما وستنتصر دائما.

قـال:

- أين هى؟

قـلت:

- فى داخلك

قـال:

- الحب فى داخلى أنا..؟ لو أن هناك حَكَما عدلا لحكم بيننا الآن.. من الذى يخرف؟ أنا.. أم أنت؟ لقد كان الخوف فى داخلى، أما الحب فقد ذهب منذ خدعتنى أمى، ذهب ولم يعد.

قـلـت:

- لم تـكـن تـقـصـد.

قـال:

- ولم أكـن أعـرف.

قـلـت:

- والآن تـعـرف.

قـال:

- وأيـن هـى ؟

قـلـت:

- هـى تمـثـل "الآخريـن" فـترة، وأنـا قـد أمـثـلـهـم فـترة أخـرى.

قـال:

- مـاذا تـعـنى؟ هل أبـدأ مـن جـديـد؟

قـلـت:

- ولم لا؟

قـال:

- ومـن يـضـمـن لى؟

قـلـت:

- قـوة الخير الـتى اسـتـمـرت بـالانـسـان حتى الآن.

قـال:

- تـعـلـمـنى نـظـريـات الحـيـاة.

قـلـت:

- بـل تحس بـنـبـض الـصـحـة

قـال:

- عـلـى ألا أرجـع لـلـكـتـب ومـعـمـل الأبحـاث.

قـلـت:

- بـل حين تـرجـع لـلـكـتـب ومـعـمـل الأبحـاث سـوف تمـلـؤهـا مـن فـيـض خبرة حيـاتـك، وجسـارة صدقـك.

قـال:

- أنـت تحـلم

- أنـا أمـارس هـذا الحـلم

- عندهم حق
- من؟
- الذين يقولون أنكم مثلنا
- حتى نفهمكم؟
- ومن يفهمكم؟
- أنتم
- لغة خاصة؟
- نخترق بها الحواجز
- أى حواجز؟
- كل معوقات التطور
- ولن تتركنى؟
- لا أستطيع
- لماذا؟
- لأنى أحتاجك مثلما تحتاجنى
- تحتاج هذه النفاية البشرية!
- بداخلها طاقة الذرة المتفجرة
- لماذا تحتاجنى؟
- ليزداد البشر واحدا
- يا صلاة النبى
- الوقت......
- تبيع الأمل؟
- الحب....
- تعبث.. بالألفاظ؟
- الصحة.
- لا أعرفها.
- والآخر.
- أين هو...؟
- هل شعرت به؟
- خائف.

- ولكنك شعرت به؟
- خائف.
- ولكنا اثنان.
- يبدو ذلك
- إذن.. لقد شعرت بى
- ولن تتركنى كالدودة على رمال الصحراء؟
- سوف يكون هناك آخرون وآخرون، وحينذاك لن يغير فى الأمر شىء أن ينقصوا واحداً، وحتى هذا لن يحدث أبداً.
- متى؟
- الوقت
- أين؟
- الحب

****

قال الفتى للحكيم:

- مالك تتحدث بلغة كالألغاز؟

قال الحكيم:

- لأن اللغة فى مثل هذه الأحوال - كمجرد رمز أو ألفاظ - لا تعنى شيئاً، أما الذى يصل ويتأصل ويطمئن ويبنى فهو نبض المشاعر وصدقها.

قال الفتى:

- وهل يشعر المريض بصدق الإحساس وهو فى بؤرة تدهوره؟

قال الحكيم:

- كلما كان الإحساس صادقا كان أقدر على اختراق الحواجز.

قال الفتى:

- قد علمت هذا المثل فحدثنى عن "خدعة المال".. فقد خيل إلى أحيانا أنك تتناساها عمداً.

قال الحكيم:

- وكأنك تقرأ أفكارى... فقد كدنا نصل إلى كبير الأصنام الذى اتهمه سيدنا ابراهيم أنه حطم باقى الأصنام.. فلما سألوه عن المسئول عن تحطيم الأصنام.. تحطم هو ذاته.

قال الفتى:

- وكيف كان ذلك؟

الثلاثـــــاء 26-07-2011

1425-كبيـــرهـــــم

كتاب جديد (قديم)

عندما يتعرى الإنسان (8 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

كبيرهم

قال الحكيم:

- جاءنى شيخا متهالكا لا يكاد يقوى على المسير، وعلاج الشيوخ عندى مشكلة ليس لها علاج، ولى من الزملاء من يحب هذا النوع من التطبيب، وله فى ذلك فلسفة هادفة، إنسانية وكريمة، أنا أشفق على الشيخ حين يتحطم وأسير بجواره يتكيء علىّ كما يتكيء على عصاه حتى يأذن الله فى أمره، ولكنى لا أعتبر ذلك علاجا بالمعنى الذى أمارسه، فالعلاج عندى هو التحول والثورة والطفرة وإعادة البناء والتجديد والاستمرار، ولكن هذا الشيخ بالذات كان شابا فى ثورته، وإن كنت غير واثق ماذا يفعل به الغد.

قال الفتى:

- وهل للثورة ميعاد وتوقيت؟

قال الحكيم:

- الثورة هى الشباب، وهى تبدأ بالرؤية الحادة الأمينة، والرفض والسخط والاحتجاج، ولكنها ليست ثورة ما لم يصبح الرفض فعلاً، والسخط مسئولية، والاحتجاج تغيراً.

قال الفتى:

- ولكنك تقول أن هذا الشيخ كان شابا فى ثورته.

قال الحكيم:

- عندك حق، خطّأتنى يا فتى، كان ينبغى أن أقول أن هذا الشيخ كان شاباً فى رؤيته لا فى ثورته، لأن الثورة شيء، ولكن

الرؤية دون ثورة هى ألم الضياع وإفزاعه، وربما كان هذا السبب هو الذى يجعلنى أتردد أمام علاج ثورة الشيوخ الشباب، فكم بقى لهم فى العمر حتى يجعلنى أعرّضهم لآلام المخاض، وكم فى الغد ينتظر بعد طول الخداع، أنا أشفق عليهم، وقد أحاول أن أساعدهم فى إغماض عيونهم حتى لا يمارسون ألم الرؤية بلا فاعلية، وقسوة الصحوة بلا مسيرة، وانهيار القديم بلا بديل.

قال الفتى:

- ومع ذلك تحكى لى قصة صديقك الشيخ من ضمن حكاياتك التى تعلمنى بها الحكمة.

قال الحكيم:

- أنا أحكى لك ولا أحكى له، أنا أتكلم عن الشيوخ للشباب، ولكنى لا أستبعد وجود شيخ ثائر يستطيع الاستمرار، على أن يكون قد بدأ المسيرة من زمان، ولو نظر الشباب إلى من سبقوهم فى طريق الخداع وحاولوا أن يغوصوا فى أعماقهم ليعرفوا مدى تحقيقهم لأهدافهم لاتعظوا قبل فوات الأوان، ومهما خافوا من الألم أن يهدد سكينتهم الراكدة فهم سيعلمون هول المصير الكالح ممن سبقهم، لذلك فهم لا بد سيثورون فى الوقت المناسب مهما كلفهم ذلك من مشقة.

قال الفتى:

- أخالك تصعّب عليهم الحياة.

قال الحكيم:

- ليس عندى بين الأبيض والأسود ظلال، إما أن نحيا أو لا نحيا، ليستسلم من شاء، وليخالف من شاء وليتردد من شاء، ولكن الذى سيستمر هو الذى سيختار الحياة ليوقف التدهور.

قال الفتى:

- ولكن الناس كلهم يختارون الحياة.

قال الحكيم:

- هم يختارون البقاء سواء كان بقاء فيه حياة لها صفات الإنسان أم كان بقاء يماثل بقاء أولاد عمومتنا الذين سبقونا وتوقفوا، يرتضون الحياة التى تشكلت ولكنهم لا يشكلونها، هم يتسابقون فى حجرة مغلقة مبطنة بالكاوتشوك الطرى فلا يتألمون، ولكن الحياة التى أعنيها هى الصراع للتطور، وليس فقط المحافظة على البقاء.

قال الفتى:

- وكأنك تريد القضاء على الإنسان الحالى فى مقابل وهم فى رأسك تزعم أنه ممكن.

قـال الحكيم:

- أنـا لا أزعم شيئا ولا أتـوهم خيـالا، ولـكن قـانـون الحيـاة فـرض علـىّ أن أكـون فى مـوقـع مـن المعـركـة هـو المقـدمـة، علـى خط الـنـار، وأنـا أرى الصـراع الممثـل فى المـرض الـنفسـى يمثـل صراع الإنسـان مـع أجداده الحيـوانـات الـذيـن يحملهـم بـين خلايـاه، فـالانسـان يحمل كـل آثـاره الـقـديمة وكـل الـصفـات الـتى ورثـهـا عـن أجداده جميعاً، إلا أنـه يـتحكم فـيهـا ويـوجـهـهـا لـتخـدم صفـاتـه الإنسـانـيـة، وهـذه الآثـار الـقـديمة تـثـور عـلـيـه حين يـنسـاهـا فـيكـون المـرض، لـذلـك أنـا لا أمـلـك أن أزعـم شيـئـا خـاصـا مـبتـدعـاً، وإنمـا وجـودى عـلـى خط الـنـار يـلـزمـنى بـترجيـح الـغـد عـلـى الأمس، عـلـى أن يـستمـد الـغـد قـوتـه مـن طـاقـة الأمس، فـيصبح إنسـان الـيـوم وحـدة مـتكـامـلـة مـتنـاسـقـة تخـدم مـرحـلـة الـتطـور الحـالـيـة: لا تـنسـى الـتـاريـخ وهـى تـصنـع المستقـبـل، وقـد كـنـت فى أول رحـلـتى مـع الـنفـوس المتصدعـة أتـصـور أن الـطـبـيـب يـنـبـغـى ألا يـتصـور نـفسـه مصلحـاً أو داعـيـة، ولـكـن بـعـد فـترة وجـدت ذلـك امـتهـانـا لإنسـانـيـتى، فـلا يمكـن أن تـأتـيـنى الـثـورة حتى عـنـدى وأنـا أتـفـرج عـلـيـهـا... أحجم عـن المشـاركـة فى تـوجـيـهـهـا لـلـغـد.. لا، لـقـد قـررت أن أعـيـش، وأن أشـارك، وأن أرجح كـفـة الـغـد، مـا أتـيـحـت لى الـفـرصـة لـذلـك.

قـال الـفـتى:

- ألا تخشى أن تـفـرض مـعـتـقـداتـك عـلـى المـرضى أو عـلـى الأقـل عـلـى الـثـائـريـن ... سمهـم كـمـا تـشـاء؟

قـال الحكيم:

- بـل هـم الـذيـن عـلـمـونى مـعـتـقـداتـى، هـم الـذيـن جعـلـونى أومـن بـالانسـان وبـالـغـد الـذى يـبـدأ الآن، وهـم الـذيـن فـرضـوا عـلـىّ الـنقـلـة مـن "مـطـبـطـبـاتـى" إلى إنسـان يـضـع خـبرتـه وعـواطـفـه مـع الـتطـور مـهـمـا كـلـفـه ذلـك مـن جهـد.

قـال الـفـتى:

- لـن يـنـتـه الـنقـاش.. فـحـدثـنى عـن كـبـير الأصنـام، الـذى حطـم كـل الـقـيـم زائـفـة أم حـقـيـقـة - ثم تحطـم.

****

قـال الحكيم:

- جـاءنى شيـخـا مـتـهـالـكـا انـطـفـأ فـيـه كـل شىء، لـونـه أقـرب إلى الـزرقـة، وعـيـنـاه كـقـطـعـة مـن حجـر الجير، وذقـنـه فى صـدره، وبـقـايـا شـعـره نـافـرة عـلـى صـلـعـتـه مـثـل الـشـعـيرات المتـنـاثـرة عـلـى كـوز ذرة جـاف فى يـوم قـائـظ.

قـلـت:

- أهلا

فـارتـفـع حـاجـبـاه واهـتـزا ولم يـرد.

قـلـت:

- لـيـس بـعـد.

وانـتـبـه أكـثـر.

قـلـت:

- ربمـا

قـال:

- مـاذا؟

قـلـت:

- أهلا

قـال:

- بـكـم

وبـعـد مـعـلـومـات سـريـعـة وهـامـة وعـقـاقـير عظـيـمـة وفـاعـلـة، وأيـام مظـلـمـة وصبر وإلحـاح، ضغط عـلـى يـدى ذات يـوم وقـد تـراجـعـت الـعـقـاقـير، وصلـتـنى الـرسـالـة وهـو يـصـافـحـنى، فـشـجـعـتـنى أن نـفـتـح المـلـف.

قـلـت لـه:

- مـا هـى الحـكـايـة.

قـال:

- هـى حـكـايـة الـنـهـايـة قـبـل الـبـدايـة، فى الـوقـت الـذى كـنـت أحـسـب أنى اقـتربـت مـن بـدايـة الـنـهـايـة لأسـتـمـتـع بـكـل مـا كـان، جـاءت الـنـهـايـة فـجـأة وبـغـير حـسـاب، كـل شـىء عـنـدى هـو بـالحـسـاب، بـدأت عـصـامـيـا وحـسـبـتـهـا ونجـحـت، لم تخـب حـسـابـاتـى أبـدا، ولـكـنى لم أضـع مـا حـدث هـذا فى الحـسـاب، كـنـت دائـمـا أؤجـل الـبـدايـة حـتى جـاءت الـنـهـايـة قـبـل الـبـدايـة، هـل تـفـهـم؟

قـلـت:

- أسمع.. وأحـاول..

قـال:

- ولـكـن الـكـلام مـتـعـب.. الـذكـريـات تمـر بـفـكـرى بـالـرغـم مـنى، أريـد أن أنـسـى ولا أسـتـطـيـع، ألا يـكـفـى مـا حـقـقـنـا بـالـعـقـاقـير،.. لـقـد أصـبـحـت أنـام أحـسـن، ومـعـدتـى تـتـقـبـل بـعـض الـطـعـام، وتـتـحـرك أصـابـعـى عـلـى مـسـبـحـتى ربمـا تحـاول أن تـذكـر الله أو تـسـتـغـفـر، أو هـى تجـذب انـتـبـاهـى بـعـيـدا عـن أفـكـارى، ألا يـكـفـى هـذا وشـكـرا.

قـلـت:

- لا شكـر عـلـى واجب.

قـال:

- إذن فـهـو الـواجب... وقـد حسبت أنى وجدت من يـفـهـمنى، أنـت تـفـعل الـواجب فـحسب، سـواء كـان من أمـامـك إنـسـان أم جماد، فى الأول حسبت أن الأمـر غير ذلـك، حسبت أنـه حب ولـيـس واجـبـا.

قـلـت:

- ولـكـن الـواجب لـيـس مـفـروضـا من الخارج، الـواجب اخـتـيـار أصلا، وأنـا اخترت أن أكـون بجوارك، ومـن واجـبى عـلـى نـفـسى أن أعـيش إنـسـانـا..هـذا مـا عـنـيـتـه فـلا داعـى لـلـشكـر.

قـال:

- لا أستـطيـع أن أكـتـفـى بهذا الـتـحسن وأسكت، لا أسـتـطيـع أن أعـيش مـع أفـكـارى وحـدى، أنـا فى حـاجـة إلى إنـسـان يـسـمـعـنى حتى ولـو لم يـصـنـع لى شيـئـاً، أريـد إنـسـانـا يـفـهـمـنى مـن وجـهـة نـظـر أخرى، أنـا لا أجد مـن يـفـهـم، كـلـمـا حكـيـت عـن الـنـجـاح انـبـهـروا بمـا حـقـقـت ونـسـونى تمـامـا، وربمـا هـزأوا بى وشكّوا فى عـقـلـى، أو ربمـا تـصـوروا أنى طـمـاع لا أحمد الـنـعـمـة وكـل مـنـهـم يـقـول "مـا أغـبـاه هـذا الـسـاخـط، فـلـيـعـطـنـا ثـروتـه وسـوف يـرى عـلـى وجـوهـنـا الـسـعـادة الـتى يـفـتـقـدهـا، سـوف نـعـلـمـه كـيـف يـعـيـش..." وتـرتـفـع الحـواجب وتمـصـمص الـشـفـاة ويـنـحـبـس الـكـلام فى حـلـقـى، فـهـل أنـت مـثـلـهـم.

قـلـت:

- مـاذا وجـدت؟

قـال:

- وجـدتـك مختـلـفـا ولـو قـلـيـلا، ولـكـنى أخشـى المـنـطـق الـعـام والـسخـريـة، ثم إنـنى مـرضـت فـمـن حـقـى أن أتـكـلـم بمـنـطـق خـاص ومـن واجـبـك ألا تـسـخـر، أمـرى إلى الله.

سـأتـكـلـم:

قـال والـدى: "أنـت مش نـافـع"، **وقـالـت أمـى:** "والله مـا انـت فـالح"،

قـال والـدى: "هـذه ذقـنى: إن فـلـحتَ، وكـنتُ مـازلـت حـيـا تـبـصـق عـلـيـهـا، وإن كـنـت قـد مـت فـتـبـول عـلـى قـبرى"

وفـشـلـت..

لم أنجح فى أن أعـرف أيـن تـقـع "ألـبـانـيـا"، ولا مـصير الأكسجين مـع الـشـمـعـة داخـل الـكـوب المـقـلـوب فى المـاء، ولا مـتى مـات الاسكـنـدر الأكـبر، ولا مـقـدار المـسـافـة الـتى تـتركـهـا فى الـشـتـاء بـين قـضـبـان الـسـكـة الحـديـد لـكـى تـتـمـدد فى الـصـيـف.

وفشلت فى أن أدخل الجامعة لأصبح رئيس الإنشاءات فى وزارة الرى مثل أخى "ممتاز" أو مستشارا فى مجلس الدولة مثل أخى "عبد القوى" فشلت وجربت المهانة والرقاعة والانحلال، وتخلى عنى الجميع.

جربت نفسى فى أكثر من مهنة حتى احترفت الجريمة بعض الوقت، لم يُحكم علىّ، ولكن ليلتين فى السجن كانتا كافيتين للعدول عن هذا الطريق، فضلت السرقة المشروعة والضحك على ذقون البسطاء، عن السرقة الرسمية والتعرض لقهر القانون، ووجدت البسطاء فى القرية المصرية، ولما عضنى الجوع ركبت عجلة بصندوق وعملت موزعا بالعمولة قومسيونجى لمصنع "صابون الوحش"، كنت فى أشد الحاجة لأى قرش يحمينى من الجوع. ويرضى "مزاجى" أيضا، وكان صاحب المصنع خواجة، له عين واحدة كعين الصقر والأخرى من الزجاج، وكنت أركب الدراجة ذات الصندوق وألف على البقالين فى القرى المجاورة، كنت أسرق وأغالط الخواجة والبقال على حد سواء، ولكنى كنت أوزع أضعاف ما يفعل الباقون، أنا لا ينقصنى الذكاء، ولكنه ذكاء خاص لا يقاس بالقدرة على حشر المعلومات فى الدماغ ثم تقيئها على ورقة إجابة، ذكائى يمكن أن يقاس بمقياس جديد: القدرة على اللعب بالبيضة والحجر، لماذا يا سيادة الطبيب لا تخترعوا هذا الاختبار وتسمونه مثلا ذكاء المكسب أو ذكاء "الجدعنة" أو "القدرة على التهليب"، سجل هذا الاقتراح من فضلك واحتفظ لى بحق النصف فى استغلاله، هل تحب أن تسمع التفاصيل.

- أنا أسمع كل شئ.

- تعطى المختبر بيضة وحجرين فى حجم البيضة وشكلها، وتجعله يقذف بها بالتبادل فى الهواء بين يديه الاثنين على الا يكسر الحجر البيضة، وتقيس الوقت بساعة إيقاف لتعرف أطول مدة يمكن أن يستمر فيها فى اللعب، وبعد ذلك تطلقه بعدة دست من إبر الوابور والغلايات فى إحدى القرى التى يسكنها ناس طيبون وتحسب المبلغ الذى جمعه فى يوم، وتضرب الزمن الأول فى كمية النقود، يطلع لك مقدار العمر النقدى فتقسمه على "العمر الدراسى" وتضربه فى مائة.. فتكون النتيجة "معامل الفهلوة".

- يبدو أن ذهنك صفى.

- طول عمرى ذهنى صاف قبل هذا الكابوس اللعين، ولكن صفاء الذهن لم ينقذنى من مصيرى، كان ذكائى سلاحا ذا حدين، علىّ وعليهم.. وهذه هى النتيجة.

****

خلع الخواجة عينه الزجاجية ومسحها وأعادها مكانها فى محجر عينيه، ثم ضيق عين الصقر كأنه ينظر فقط عبر الزجاج، **وقال:**

- أنا أعرف.. ولكنك ذكى.

- تعرف ماذا؟

- أنت تسرقنى.. ولكنى أنا الكسبان.

- لا سبيل إلى المداراة...

- المهم أن تكون العملية رابحة

- أهذا هو المهم؟

- طبعا

- اتفقنا

- فهل تعمل معى؟

- ما دام هذا هو المهم قد اتفقنا.

واتفقنا.

****

وصعدتُ الدرج، ووجدت نفسى، وتيقنت أنه بالنصب المشروع يمكن أن يكون الإنسان شيئا ما، وحين يجد الإنسان نفسه بأية وسيلة مهما تكن تافهة أو خاطئة أو صورية فإن هذه الوسيلة تصبح هى حياته، إنه يصبح هذا الشئ الذى أشعرْ بوجوده، أنكرنى أبى، وأنكرتنى أمى، وأنكرنى الناس وتعرضت للسجن وللجوع، وأنقذنى القرش، إذن فالشئ الوحيد الذى رد إعتبارى هو القرش، أصبحت أنا والقرش واحداً صحيحا، تعلمت من الخواجة الشئ الكثير، علمنى كيف يكون الدفتر المسطر ذى الخانات - دفتر اليومية - والمفاتيح والخزانة هى حياتى، علمنى أن هذا هو الأمان الوحيد فى هذه الحياة، ولم أكن فى حاجة أن يعلمنى كل هذا فقد تعلمت أكثر منه، كنت أنا وهو أقرب الناس واقعا، وأبعد الناس فعلا، كانت الكهرباء تسرى بيننا من خلال ورق البنكوت، لم أكن أعرف أن الورق موصل جيد لماء الحياة: المال - حاولوا فى سنة ثانية ابتدائى أن يعلمونى أن المعادن هى التى توصل الحرارة، ولكن الحياة علمتنى أن الورق موصل أقوى، ولكن هل كانت حياة تلك التى كانت توصلها أوراق النقد، وحرصت على أن أجمع أكثر وأكثر، وكلما جمعت أكثر حرصت أكثر- قصة قديمة قدم خوف الأرنب من الثعلب وقد سعى النمل إلى جحورها من برد الشتاء، مثل كل الحكايات، ولكن الحياة أيضا قديمة، والأيام معادة، وحين تصل إلى نهاية العمر مثلى ويصبح اليوم نسخة مكررة من أمس إلا من وهن أكثر، وآلام فى المفاصل أكثر حدّة، تعرف أنه لا جديد - فعلا- تحت الشمس، ومهما كانت القصة قديمة فهى حكايتى أنا، وأنت طبيب وعليك أن تسمع الحكايات مهما تكررت، وأنا لم أجد من يسمع هذا الجانب من حياتى أبداً، كل حديثى كان كذبا على العملاء أو أوامر للعمال، فدعنى أستفيد من ميزة مرضى... أن أتكلم كلاما آخر.

وجاءت القوانين الاشتراكية علىّ خيرا وبركة، خاف الخواجات، شبعوا من عصير الطيبة المصرية وهاجروا.

قال الخواجة:

- عملتَها، ونفعتْ.
- المصنع مصنعك فى أى وقت.
- لم يعد لى مكان.
- أنا ملكك.
- لستُ عميلا.. إنتبه.
- أنا تحت أمرك.
- ووسيلة الدفع؟
- التهريب.
- لا أضمن.
- بشرف.
- هذا أدعى للشك.
- تأخذ كل ما عندى بالمصرى.
- والباقي؟
- أرسله لك.
- ليس لى خيار

وقمت بعمل وطنى مجيد، لم أدفع له مليما بعد السفر، واستردت حقوق الشعب المصرى المكافح من المستغلين الأجانب (!)، وأصبحتُ صاحب مصنع "صابون الوحش" وأصبحت شهرتى "الوحش"، ونجحت... وفلحت، وكلما عقدت صفقة رابحة كان لعابى يسيل وتتجمع بصقة فى فمى، كان والدى أيامها على قيد الحياة، وبعد أن فارق الحياة لم يعد لعابى يسيل وإنما كانت رغبة أخرى تسرى فى أحشائى، أنا آسف لذكرى والدى بهذه القسوة ولكنك طبيب، وهذه أعراض جسمية نتيجة لوعيد والدىّ الذى دخل فى قلبى كالسكين... هل تذكر الوعيد.. كنت أنفذ الوصية، وكثر المال وتكدس، وارتفعت طوابق عماراتى فوق بعضها، ولكن لم تتغير علاقتى بالقرش، لم أفرط فيه أبدا، كل شئ بالحساب، كان يموت ابن العامل، عندى، فلا تهتز فىّ شعره لأنى لم أضع موته فى الحساب، حتى تأمينات العمال حسبت كيف أتخلص منها، ثم أتخلص منهم إذا مازادت حاجتهم، أو وجدت الأرخص والأسلس.

- أنا لا أعرفكم.
- التأمينات؟

- اسألوا الأسطى حسن.

- ونحن؟

- اسألوا الأسطى دسوقى.

- ولكنا نعمل عندك أنت.

- كل عملية لها مقاول.

- ولكنا عمالك منذ سنوات.

- التأمينات لم يمض عليها سوى شهور.

- نحن نعمل فى المصنع.

- أنا لا يعمل عندى إلا الأسطى حسن والأسطى دسوقى ....

- ونحن؟

- تعملون لديهم من الباطن.

- والتأمينات؟

- اسألوهم.

وتكسرت من حولى كل الحلقات. لم يستطع أن يحدنى قانون أو تنظيم، نجحت ألا التزم بشئ إلا بالقرش.. القرش هو أنا.، هو أمانى وحياتى، ليموت أولادهم جوعا فهذه مسئولية الحكومة الاشتراكية، لماذا وجدت الاشتراكية؟ لتحمى الطبقة الفقيرة، فكيف أجرؤ أن أتدخل فى مهمة الحكومة ما دامت تدعى الاشتراكية؟ أما الأغنياء فالقرش يحميهم، أنا مواطن صالح يحترم القانون وكل شئ عندى بالحساب.

وبدأت أحطم كل شئ لأشعر بذاتى التى هى نجاحى، كنت أحاول أن أثبت أن القرش هو الأبقى وهو الأقوى، هو الأصل والنتيجة، هو الأول والآخر، وحطمت القيم جميعها، وفى كل مرة كنت ألعق لعابى وأنتشى نشوة نمر التهم نصف غزال، وشبع، ووقف يتفرج على بقية الفريسة.

قالوا لى أن "واحدْ بيه" على الباب يريد مقابلتى ويقول أنه أقرب الناس إلىّ،

وضحكت ملء عقلى - فليس لى قلب يضحك - ضحكت وأنا أسمع أن هناك فى حياتى "ناس"، وأن بينهم القريب والأقرب، ضحكت من هذا الذى يقول أنه أقرب الناس إلى... ودعوته للدخول.

ورأيته ...... رأيتـُـنى وقد ارتديت حلة كحلية تلمع مثل حذائى وشعرى - لو كان لى شعر- وجلس أمامى وعلى وجهه ابتسامة عريضة جدا ومرسومة جدا، ومترددة جدا، ما أشبه هذا الانسان بى.... لوسارت الأمور كما حسبوها لى.

قـال فى تـودد ظاهر:

- ما أغرب الأيام... نلتقى بعد عشرين سنة.. وأنت لا تسأل عن أحد.

وكنت مازلت أحس أننى أنا الذى أتكلم من على الكرسى الآخر، وراح ذهنى إلى الوراء عشرين سنة، ورن فى أذنى وعيد والدىّ ووصيّتهما معا، إذن فهذا الذى أمامى هو أخى "ممتاز"

قـلـت لـه:

- دنيا... لا تترك الراكب راكبا،. ولا السائر سائرا

قـال:

- أى والله عندك حق.. ناس بأولها وناس بآخرها

قـلـت:

- فى نفسى سندخل مباراة فى الحكمة، ثم التفتُّ إليه قائلا فى لهفة حقيقية:

قـلـت:

- وكيف حال الوالدة؟

قـال:

- ألم تعلم؟.ماتت فى الحج ولم ننشر نعيها حسب وصيتها، وظننا أن هذا الأمر لا يعنيك فأنت لم تحضر جنازة الوالد.

قـلـت:

- خشيت إن حضرت أن أنفذ وصيته

قـال فى استغراب:

- أية وصية؟ هو لم يترك وصية، ولم يترك ما يوصى به.

- هى وصية خاصة بى أنا وحدى... لا عليك منها.

- ولكنا انتظرناك.

- حتى اسمى تغير ولم يعد يعنيك أمرى فى شئ، ألا تعرف بأنهم ينادونى هنا "بالوحش"

- قالوا لى ذلك وأنكرته؛ حسبت أنه اسم المصنع فقط

- أنا المصنع

- ولكنك مازلت واحدا من العائلة.

وقال عقلى "انتبه" فقلت فى تراخ لأقطع سبيل المودّة غير المأمون

- .. أيـام!

قـال:

- مصير الأحياء يـتلاقـون

قلت فى نفسى رجعنا إلى الحكمة والمودة الـزائفـة، مـاذا يـريد ابن المرحوم، عجِّل وإلا بصقت عليك أنـت، حتى لا أبـول على قـبره عملاً بـوصيته، ولـكنه أكمل:

- وكيف حال الأولاد؟

- أنـا لـيس لى أولاد.

- لمـاذا؟ ...لا بـد من ذكرى.

- ذكرى الـذين راحوا لا تـشجعنى.

(لـو علم المرحوم كيف أذكره لـلعن تـلك الـليلة المشئومة التى أنـا نـتاجها)

- تـعيش وحيدا؟

- حياتـى ملـيئة بكل مـا أريد

- ولا زوجة؟

- الـلبن يـباع فى زجاجات فمـا لـزوم أن تقـتنى الـبقرة... هيـا حدثـنى عمـا تـريد، أيـن أنت؟ ومـا الـذى جاء بك

- أبـدا، تخرجت من كلـية الهندسة بـتقـديـر ممتاز، ولم تـكن هنـاك فى ذلـك الـعام وظيفـة معيد، وأنـا الآن رئـيس قسم الإنـشاءات بـوزارة الـرى، عندى ست بـنـات تخرجت كبراهن من الجامعة.

قـلت:

- ثم مـاذا؟

قـال:

- أبـدا، ولـكنى تـذكرتـك، والأيـام تمر، "والـدنـيا تـلاهى"، ومرة سأل الـبنـات عن أقـاربهن بمنـاسبة سعيدة، قـلت أزورك.

قـال عقـلى: (هات مـا عندك.. هـاك هو المطلوب إثـبـاتـه يـا بـاشمهـندس، وسوف تـرى)

- ربـنـا يـتمم بخير.

- بـركـتك معنـا.

- كـله على الله

- هم بـنـاتـك طبعاً، العم والـد.

(قـال عقـلى "يـا صلاة الـنبى" ثم خطرت فى بـالى فـكرة وحشيـة،

وسال لعابى على الفريسة)، قلت:

- أنا تحت أمرك.

- هذا ما قلته لنفسى، الدم عمره ما يصبح ماء.

- نحن إخوة.

- "هذا ما توقعت"

- ولكن لى بعض الاستفسارات، هل تجيبنى عنها أولا.

- بكل تأكيد.. أنت أخ عزيز.

- ما هو معامل تمدد الحديد؟

- ماذا؟

- ومتى مات الاسكندر الأكبر؟

- ما الذى جرى؟ أنت تمزح بلا شك

- لقد وعدتَ أن تجيب.

- ولكن هذه معلومات قديمة.

- هى التى أدخلتك كلية الهندسة.

- ولكن لم يعد لها لزوم.

- فما الذى تبقى فى عقلك مما له لزوم؟

- أنا رئيس الانشاءات، فئة ثانية.

- ولكنك تعلمت أكداسا من الكتب حتى وصلت.

- ولكن لم يعد لى بها حاجة.

- أما أنا، فأنا لا أتعلم إلا ما ينفعنى، وكل حرف تعلمته مازلت أستعمله فى مكانه.

- أنت رجل أعمال، والعمل الحر يخلق الرجال.

- يوجد عمل حر، ولا يوجد إنسان حر، أنا عبد القرش، وأنت عبد فقط.

(وضحك ضحكة جوفاء).

- أصبحتَ فيلسوفاً.

- لا أفهم هذه الكلمة.

- يعنى.. أنت ملئ بالحكمة.. و.. والكرم.

- أنت تأمر

- بنتك ستتزوج بعد شهور.. ونحن نعتمد على عطفك وكرمك.

- ليس لى بنت، من تقصد؟

- أنا موظف ولى ست بنات، وأنت أدرى، لا يغرك مظهرى.

- أنا تحت أمرك.

وبعد ستة شهور

****

- أنت وحش فعلا، ولستَ إنسانا أصلا.

- لم أدّع غير ذلك.

- لهذه الدرجة تبلغ بك القسوة؟

- اسمى الجديد

- أطمعت البنت وخطيبها.

- أنا حر.

- وانتهى كل شئ بسببك، وفشل مشروع الزواج.

- لستُ السبب وحدى.

- أنت وعدت، يا ترى:.. لماذا وعدت.

- إسأل نفسك أولا لماذا جئت.

- أنت لا تحس.

- هذه ميزة على كل حال.

- سوف ينتقم الله منك.

- ذاكر دروسك جيدا.

****

يا سيادة الطبيب، يا سيادة الطبيب، ألا يكفى هذا، هل أستمر؟، ألم تتقزز نفسك بعد؟ ولكنى مريض ومن حقى أن أتكلم ومن حقك أن تتقزز، فلتسمع كيف حطمت بقية الأصنام، قبل أن يتحطم الصنم الأكبر

قالوا لى أن "واحد بيه" على الباب يريد مقابلتى ويقول إنه أقرب الناس إلى.. وضحكت ملء عقلى.. الخ.

- إذاً فأنت "عبد القوى".

- ما أبعد الأيام.

- وأنا الوحش.

- هذه شهرتك ولكنى مازلت أراك أخى "وحيد"

- وحيد مات منذ عمر طويل.

- جئت أعاتبك.

- على العين والرأس.

- ماذا فعلت بممتاز؟

- لى وجهة نظر.

- ما هى؟

- لم يعجبنى خطيب البنت، ولا يمكن أن يقتنع ممتاز برأيي، فأنت تعلم غروره بذكائه، لذلك صنعت ما صنعت حتى يفشل الزواج رحمة بالجميع.

- ولكن ما عيب الولد؟

- ضابط مغرور.

- كان يحبها.

- لماذا تخلى عنها؟

- أحسَّ بالإهانة، جرحتَ كرامته

- ليس فى الحب كرامة.

- ولكنها تحبه.

- غبية مثل أبيها.

- وأنت ما شأنك؟

- كنتُ فى حالى هو الذى لجأ إلى.

- فتهدمها على الجميع.

- ليس من الشرف أن أكتم النصيحة.

- لم تكن مجرد نصيحة.

- من رأى منكم منكرا فليغيره بيده.. وقد فعلت.

- أى منكر؟

- فتاة غبية، ابنة مهندس محترم، تتزوج ضابطاً مغروراً.. ألا يكفى هذا المنكر

- ماذا تعنى؟

- ما عليك... علمت أشياء "سرية" عن الخطيب لا أستطيع البوح بها.

- ولكن ممتاز يشنع عليك فى كل مكان.

- لا ينقصنى التشنيع، ولكنى أديت واجبى.

- ولـكنه لـن يـكف عن الـتشنيع.

- مـثل أبـيـه.

- الله يـرحمه.

- ويـبـلـل الـطوبـة الـتى تحت رأسه... هل تـعرف كـيف؟

- مـاذا تـعنى؟

- لا شئ... تـذكرت الـوصية.

- مـاذا تـعنى؟

- شئ خـاص... مـا عليك.. كـيف حـالـك أنـت؟

- مـستشار بمجلس الـدولـة

- طول عمرك تحب الحق، وأخيراً أصبحت حامـى الـقـانـون.

- آه لـو تـعلم.

- مـاذا؟

- إن حمـايـة الـقـانـون أصعب من خرقـه.

- ولـكن الـتحايل عليه أسهل الأشياء.

- سُمعتك الـتجاريـة ممتازة.

- علـمتنى الحيـاة.

- أولادى صغـار.

- عرفـت ذلـك من "ممتـاز".

- لا أريـد أن أخطئ خطأه وأفـاجـأ بمطـالـبـهم كـبـارا.

- أنـا تحت أمـرك

- عنـدى قـرشين أريـد أن أستغـلـهم، أريـد مشورتـك.

- ولـكن لى بعض الاستفسارات، ربمـا تـبدو غريـبـة، فـهل تجيب عليـهـا أولا؟

- بـكل تـأكيد.. أنـت أخ عزيـز.

- كم حكمـا أصدرتـه يخـالـف ضميرك؟

- نـعم؟ نـعم؟!!

- وكـيف تميز الخيط الأبـيض من الخيط الأسود؟

- أنـت تمزح طبـعاً.

- وهل تـصدق كـل من يحلف فى المحكمة؟

- الـبـيّـــنة على من ادعى والـيمين على من أنـكر.

- وهل النوم على الجانب الأيمن سنه مؤكدة؟

- ما الذى جرى؟ دع هذا المزاح

- فعلا، لنرجع إلى الموضوع.. أنا آسف.

- أريد أن أستغل "تاكسى".

- إذن أنا مستشار المستشار!!!

- ملاحظة فى محلها.

- أنت تأمر.

- هل لديك فكرة أفضل؟

- تفكيرك عين العقل.

- باسم زوجتى.

- أكثر أماناً،... كم معك؟

- يكفى شراء عربة فورد معقولة.

- يقولون إثنين نصر أفضل، ولكن عربة واحدة جيدة هى ثروة متنقلة.

- والتأمين الشامل؟

- لا داعى.. شركات التأمين تتاجر بخوف الناس.

- والسائق المضمون؟

- خلِّ هذا.. علىَّ أنا.

- نِعم الأخ... وما أغبى "ممتاز" فعلا.

****

وبعد ستة شهور

****

- أنت السبب.

- كل شئ قضاء وقدر.

- ولكن السائق سليم.

- من لطف الله.

- هو يعمل عندك صباحاً بالمصنع.

- كان يحاول أن يزيد دخله... وأنت ارتضيت أن يركب التاكسى مساء.

- لو كنت أمّنت عليها كنت أخذت ثمنها.

- قسمة ونصيب.

- أنت "وحش" فعلا.

- لا تسئ الظن.

- ليس عندى ما يثبت سوء نيتك.

- هذا عيب القانون الذى تطبقة.

- تنتقم منا... ألسنا أخويك، كان والدى على حق.

- يرحمه الله.

- كان ينبغى أن أتعظ من "ممتاز".

- ممتاز ذكى، وأنت صاحب حق، لكن الحياه صعبة.

- منك لله

- لى حساب خاص معه.

وهكذا يا سيادة الطبيب حطمت كل من يقترب منى لأشعر بالقوة وكان كل ذلك يزيد إيمانى بأن القرش هو السيد فعلا، رأيت تدهور التلاميذ النجباء فى خضم الحياة، ورأيت حيرتهم وارتباكهم أمام دراهم يقتطعونها من قوتهم ثم لا يعرفون كيف يتصرفون فيها، العلم لا ينفعهم لأنه كان جواز مرور للوظيفة ثم راح كل إلى حال سبيله، والمبادئ لا تصونهم لأنها سريعة التبخر حسب درجة الحرارة، وأفواه الأولاد، ومتطلبات العصر تحنى ظهورهم، وشئ فىّ لا يرحمهم، والذى يضحك أخيرا يضحك كثيرا، ولكنى لم أعرف الضحك أبداً، ربما كشرت عن أنيابى ولكنى لا أضحك، كنت أنتشى بلذة النصر، ولكنى لا أسعد.

قلت له:

- إذن ماذا فعلت بكل هذا الانتصار والتحطيم؟

قال:

- لم يبق أمامى شئ أحطمه، والمكسب لم يعد عندى مشكلة، ولكنى لم أفرط فى قرش واحد، ولم أسمح للناس أن يقتربوا منى أبدا، أنكرونى فأنكرتهم ولكنى كنت حاذقا فى استعمالهم.

قلت:

- والعواطف؟

قال:

- أية عواطف؟ أنا لا أعرف معنى لهذا اللفظ رغم كثرة استعمالى له، فإن كنت تقصد الجنس فقد اشتريت كل الأصناف، وربما كانت حكايتى معه هى التى جاءت بى إليك.

كنت أشتريهن بذكاء خبير، وكانت متعتى الحقيقية أن أستولى على عواطفهن بشبابى الذى كان يستمد قوته من قرشى الذى هو

أنـا، لا تـتصور أنى اشتريـتهن من سوق الـبغاء، إذ أن مملكتى امـتدت لـلبيوت والـنوادى وكل مكـان، كـان يـرضينى تمـامـا أن أشعر أنى مـرغوب فىّ، واستعملت كل الحيل والألاعيب لأثـبت أنى نـاجح خـاصة فى هذا المجال، ونجحت هنا أيـضاً فى أن أحطم قـيمـا كـثيرة، نجحت ونجحت.. ولـكن لم تـنجح امـرأة أبـدا فى أن تـدخل قـلبى، كـنت أستولى عليـهن استيلاء حتى تـنمحى ذواتهن فى، وبـعد ذلـك أمـارس الـلذة الـذاتيـة.

ومـرت الـسنون.

وأخذ الحيـوان فى يـتكاسل، واضطررت أن أكمل هذا الـنقص بقـروشى، فـأنـا وقـرشى واحد، ونـفعت الـلعبة، ولـكن بـدأت المـرارة تـغص حلقـى كل مـرة.

وبـدأ الـتساؤل الخبيث يـثور فى عقـلى: ثم مـاذا؟ وكـنت أطرد الـسؤال قـبل أن يـظهر فى دائـرة يـقظتى، ولـكنى كـنت أحس بـه يـلف فى قـاع جمجمتى يـنـثر الـشك فى كل مـكان، وعلى كل شئ.

ثم مـاذا؟

وأخذت هرمـونـات ومـنشطات ومـنبـهات، ولـكنى كـنت كحمـار يجر عربـة محملة بـصابـون الـوحش، يحـاول أن يـصعد بها من تحت نـفق شبرا، وتـلوح لـه زميـلة تـتبختر فى الـنور من الـناحيـة الأخرى، فـألهب ظهـرى بـالمنشطات، لـكننى لا ألحقـهـا دائـمـا، ثم أبـدا، أعـذرنى يـا سيـادة الـطبيـب لـيس فى الـطب حرج.

****

قـالـت وقـد تـراخت أو صور لى خيـالى أنها تـراخت.

- لا تـبـتئس مـازلـتَ سيد الـرجال.

- هل أنـتِ سعيـدة معـى ؟

- طبـعـا

- وهل أُرضيك؟

- أنـت سيـد الـعـارفين.

- أصبـحت أشك فى نـفسى، واخـتلطت على الأمـور.

- هيـا ولا تُـضِعْ وقـتك واطرد هذه الهـواجس.

- هل أنـت مـتعجلة.

- اخـاف عليـك أن تـنـتهـى قـبل أن تـبدأ.

- لا تـذكـريـنى.

- آسفـه.. ولـكن قـلبى عليـك.

- وأنـت؟

- الـلمسة مـنك تـكفـيـنى... أنـت مفـعـولـك أكـيـد.

وحين اهتزت وتراخت، تصورت أنى أرضيتها.. ولكنى لمحت يدها فى نفس لحظة التراخى تعبث تحت الوسادة تعد رزمة النقود التى أتركها فى خفاء. إذن فهى تتصنع.

لم أنبس

ولم يستيقظ ذلك الحيوان ثانية أبداً رغم محاولاتى المرهقة.

****

ثم جئت إليك.

الدنيا سوداء ولا يوجد معنى لأى شئ، فقد القرش بريقه، وهمد الحيوان بلا رجاء فيه، وتحطمت كل الأصنام وراحت لذة التحدى، وأخذ مصباح الحياة يذبل شيئا شيئا فشيئاً، كنت أنتظر نهاية الجرى المستمر لأتفرغ للمتعة الخالصة وأجد الأمان، ولكن النهاية جاءت قبل أن أشعر بالأمان لحظة، وتذكرت قول عبد القوى "منك لله.."

ولو كان الله أذن فى أمرى وأنا فى عنفوانى لِمتُّ مثال الناجحين المهرة. ولكن أن تموت قوتك الزائفة. قبل أن تموت خلاياك فهذا هو قمة الألم والضياع، لا غد لى... ولا أمل فى... وذكريات الأمس أصبحت مصدرا للعذاب لامجالا للفخر.

****

قلت له:

- ولكنك أحسن.

قال:

- عقاقيرك العظيمة تجعلنى أنام، ومعدتى تتقبل الطعام، ولكن الأمل راح إلى غير رجعة.

قلت:

- الأمل فى ماذا؟

قال:

- الأمل فى.. فى.. نعم فى ماذا؟ القرش وعندى منه الكثير، والحيوان فّى مات فلا نساء، وأنا شخصياً لا أريد له صحوة، فكفى امتهانا وذلا، والناس عمرهم ما كانوا فى حياتى، ولكن.. عندك! هناك ما يشغلنى حتى أموت: التحف والفازات فى منزلى، أنا أعيش فى متحف نادر المثال، وأملى أن يحوى أندر ما فى العالم.

- لماذا؟

-لأصبح فريدا فى مقتنياتى.

- ولكنك مرضت وسط تحفك وفازاتك.

- وتربية نبات الصبار.. هى هواية نادرة تميزنى.

- ولكنك تمارسها من سنوات.

- ماذا تعنى؟

- أين الأمل الحقيقى الذى يمنع المرض، مهنتى تقول أنه ينبغى علىَ ألا أفقد الأمل.

- ولكن الذى ينبغى شئ، والواقع شئ آخر.

- إذا فقدت الأمل.. فماذا يتبقى.

- إذن ماذا؟

- عمالك مازالوا عندك والأطفال يولدون كل يوم.

- وبعد؟

- أنت ذاهب لا محالة.

- أفصح.. لم أعد أستطيع الانتظار.

- يكفيك حق المنفعة، بل وجزء منه أكثر من الكفاية.

- أترك مصنعى للغوغاء؟

- بعد عمر طويل.

- الانتحار أفضل من آرائك.

- مازال فى العمر بقية.

- ماذا تريد.

- تبدأ من سنة الفشل المزعوم.

- يعنى.

- تعمل مؤسسة للذين لا يدخلون الجامعة يتلقون فيها الحب ويتعلمون مهنة للحياة.

- تنصحنى بالبر والتقوى.

- أفضل من المرض.

- المرض أفضل.. وعقاقيرك نجحت، فلنستمر عليها، لعلها تكفى.

- هى مرحلة.. ثم قد لا تفيد.

- تهددنى.

- أقول ما أعلم.

- هذه نكسة بلا جدال.

- هل عندك بديل؟

- دعنى.

- حرام عليك أن تستمر فى الطريق الذى أشقاك.

- ولكنه أسعدنى.

- صحيح؟!!

- أرضانى.

- صحيح؟!!

- أنجحنى

- ثم ماذا؟!!

- ثم جئت إليك

- فهو المرض

- فليكن.

- هل تفكر ثانية.

- أنت خبيث.. تريد أن تقلب أحوالى رأسا على عقب.

- ألم تنقلب بعد؟ ؟!!

- لا تحيى فى الأمل حيث لا أمل.

- الأمل موجود باستمرار.

- انتهى العمر.

- مازال الأولاد يولدون.

- ليس لدىّ أطفال.

- هذا ما تتصوره ، ليس بالضرورة أن ننجب نحن أطفالنا جدا.

- كفى.

****

قال الفتى:

- ما أصعب الألم فى آخر العمر، وما أبعد الأمل، فكيف إذن..؟

قال الحكيم:

- ليس هناك حل آخرإلا التأجيل، ثم إما أن يلحقه الموت أو يعاوده المرض.

قــال الـفـتى:

- ولـكن هل المرض حتمىّ لصاحبنا هذا حتى لـو كـان عنده زوجة وأولاد؟

قــال الحكيم:

- قـد يـكون الـزواج صحة وغنـاء، وقـد يـكون صورة أخرى لـلضيـاع.

قــال الـفـتى:

- أتـنوى أن تهز ذلـك الـربـاط المقـدس أيضا.

قــال الحكيم:

- بـل أحـاول أن أجعلـه مـقـدسا فـعلا.

قــال الـفـتى:

- ولـكن كـيف يـكون صورة لـلضيـاع؟

قــال الحكيم:

- مـثل الـرجل الـذى يـستعمل زوجتـه لـتكمل نـقصه حتى يـضعف، فـتركب المحمل بـقـيه الـعمر، كل بـدوره.

قــال الـفـتى:

- وكـيف كـان ذلـك؟

الإربعـــــــاء 10-08-2011

1440- الركـــــوب بالــــــدور

كتاب جديد (قديم)

عندما يتعرى الإنسان (9 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

الركوب بالدور

قال الفتى:

- وددت لو قلت أقول لك كفى. لا أريد أن أفجع فى الحب وأنا على وشك أن أتزوج، أنا شاب فى مقتبل عمرى، أريد أن أستمتع بالحب حتى وأنا مغمض العينين.

قال الحكيم:

- كيف ذلك بالله عليك؟ الحب هو طاقة التطور، هو أغنية الحياة، فمم تخاف؟

قال الفتى:

- حكمتك التى تهز كل الأشياء جعلتنى أتوجس منك، فما لمست شيئا إلا وتحطَّم.

قال الحكيم:

- لو كان أصيلا ما تحطم، إنما تسقط القشرة البالية التى ستقع يوما حتى بدون أن نقترب منها، أما الجوهر فهو ثابت وأصيل ومتجدد أيضا، فلا تندم على ما يقع من مجرد هزة، فإنما نحن نعجّل بما هو حتمى... .

قال الفتى:

- كلامك مقنع، ولكنى مازلت أتمنى ألا نسكب الماء البارد على قلوب غضة تنبض بالدفء مع كل همسة غرام، لا أريد أن

تدمى الأصابع الرقيقة التى تتلامس فى لهفة حانية، بأشواك الحقيقة، لا أريد أن أعرف.. أنا شاب مثل الشباب فدعنى أفتح عينا وأغمض أخرى.

قال الحكيم:

- أنت الذى سألتَ وألححت ومشيت معظم الطريق، وما أنا إلا مرافقك، المستقبل مستقبلك، والاختيار اختيارك.

قال الفتى:

- ألا يكفى ما قطعنا من شوط، لهثت فيه وراءك وكادت عيناى تغشيان من شدة الضوء.

قال الحكيم:

- المسيرة لا تنتهى، والحقيقة تتكشف باستمرار، وعبادة صنم واحد مثل عبادة ألف صنم.

قال الفتى:

- ليس لى خيار

قال الحكيم:

- الرجوع دائما محتمل، هيا، ولكن كيف تنسى؟

قال الفتى:

- وحتى لو أغمضت عينى، فالمنظر فى خاطرى يملؤ وجدانى ولا يبرح عقلى، هات ما عندك، وليسقط الخوف والتردد.. ولكن رفقا بالحب.

قال الحكيم:

- يا بنى. لقد امتهن هذا اللفظ، مثل كثير من الألفاظ، حتى فقد معناه، ونحن لا نحطمه، وإنما نعيد له معناه الأصيل.

قال الفتى:

- هاتها ، فما دمنا قد بدأنا، دعنا نواصل، وأمرى إلى الله

****

قال الحكيم:

- جاءتنى تشكو عرضا عاديا يعالج عادة بالأسبرين والشاى، جاءتنى تشكو الصداع

قال الفتى:

- الصداع!؟

قال الحكيم:

- يقولون إن الصداع ألم بالرأس، ويضربون ويطرحون ويقسمون، ويربطون الظواهر ببعضها ويستنتجون، وإذا جاء مريض بعد ذلك يصف وصفا لم يسمعوا عنه، قالوا مبالِغ يتخيل، مع أنك لو دققت النظر فى هذا الألم الذى بالدماغ عند كل مريض لوجدت أن كل فرد يختلف عن الآخر، ولوجدت أن أجزاء الرأس التى تتألم تتنوع بتنوع المحتوى، بل إن مسار الألم يختلف، فضلا عن نوعه، وقد وصفوا ذلك كله فيما يتعلق بالتهاب الجيوب الأنفية وارتفاع ضغط العين، ولكنهم لم ينتبهوا بالقدر الكافى لالتهاب الجيوب الفكرية وزيادة ضغط المجتمع، مع أن القصة كلها فى الدماغ، والثورة فى خلايا المخ، وصراع التيارات المتضاربة تسرى كالكهرباء أو هى الكهرباء فى دوائر خاصة: سوف تتحدد غالبا.

قال الفتى:

- تريد أن تضع كل هذه الحكمة فى سجن الخلية العضوية.. فى المخ؟

قال الحكيم:

- أنا لا أضع شيئا ولا أنزع شيئا، وإنما الحياة بدأت فى الخلية، وكل ما ليس فى خلية ليس من الحياة، ولا يمكن أن ننكر على الإنسان بعد مئات الملايين من بداية رحلة الحياة حق خلاياه فى أن تكون مصدر الحياة لمجرد جهلنا بالتفاصيل، وكما تعلم فإن قمة تطور الخلايا هى مخ الإنسان.

قال الفتى:

- كنت أحسب أن وضع الحكمة فى الخلايا جزء من بدعة الميكنة والتكنولوجيا

قال الحكيم:

- بل عليه أن يكون تسخيراً للميكنة والتكنولوجيا لخدمة الحياة.

قال الفتى:

- والحب أيضا... فى الخلايا إياها؟

قال الحكيم:

- هل نسيت أن الحب هو الحياة؟

قال الفتى:

- لم أنسَ، ولكن الكلام النظرى يحدث لى صداعا، فلنرجع إلى صداع المرأة التى جاءتك تشكو الصداع، ربما خف صداعى أنا.

قال الحكيم:

جاءتنى تشكو الصداع، قالت:

- ليس صداعاً مثل الصداع، ولكنه شئ صرخ فى مؤخرة رأسى وجذبنى فى اتجاه قفاى حتى كاد يطرحنى على ظهرى، هكذا خيل إلى ثم أحسست ببرودة تسرى فى نفس المكان من مؤخرة الرأس، ثم سرَت فى جسمى كله، وتغيرت بعد ذلك الأشياء.

- كيف؟

- لست أدرى كيف، ولكن الأمور اختلفت.. هكذا، ولا أستطيع أن أصف لك أكثر من ذلك، المهم خلــِّـصنى من الصداع.. ثم.. ربما تعدلت الأمور المقلوبة، حدث شئ لا أدريه مع ظهور الصداع، ولربما إذا ذهب الصداع ذهب الشئ، وساعتها سوف أشكرك دون أن نرهق الألفاظ بمعان لا تستطيع أن تلم بها، ثم إنى لا أريد أن أرهقك بحى أحداث لن تفهمها، هات مهدئاتك وأقراصك فقد ملأت أمعائى بالأسبرين والنوفالجين.. ولا فائدة.

- الصداع مظهر لما حدث... فماذا حدث؟

- أنا لا أعرف ماذا حدث... ولست على استعداد للكلام فيما حدث لأنه لم يحدث شىء...، عندى صداع فلا تزدنى صداعا بأسئلتك، لقد ترددت مائة مرة قبل أن أحضر إليك، ويبدو أن ما قالوه عنك حقيقة فعلا، يبدو أنك تحاول أن تقلب رأسى بالبحث عن أوهام فى رأسك أنت، أوهام ليس لها أساس إلا عند شيخكم المعقد، حياتى كلها "عال"، لم أعشق والدى ولم أشعر بالغيرة من أمى، وتزوجت عن حب وأقوم بواجباتى على خير وجه، وأولادى متفوقون بالمدارس وكل شئ على ما يرام.

- إذن لماذا جاء الصداع... هكذا فجأة؟ ولم يذهب

- يا سبحان الله! أنا التى أسالك أم أنت تسألنى؟

- أنا لا أسأل... ربما أتساءل

- إما أن تعطينى عقارا من عقاقيرك وإما أن أنصرف

- أعرف بعض التفاصيل حتى أحدد العقار المناسب.

- هكذا، .... نعم..

- هل الصداع موجود بنفس الشدة طول الوقت؟

- كان الألم فى أول الأمر مثل سيخ بارد رشق فى رأسى من الخلف، وتغير الأمر بعد ذلك، فهو شعور مكتوم غريب، كأن شيئاً يمشى فى رأسى، كأنه الهمس، كأنه التنميل كأنه اللسع، كأنه ثقل بالداخل يتحرك فى حيز ضيق، كأن شيئاً يسرى فى غير اتجاه، كأنى لست أنا، كأنى عندى صداعاً، ليس كالصداع

- والنوم؟

- مرة ثانية تستدرجنى... وسأجيب عن النوم، أما الأحلام فهذا سرى الخاص، جئت أعالج بالعقاقير، فالنوم من حقك أما الأحلام فهى خاصة بى، فليكن..، أنا أنام، لا ليس نوما هذا

الـذى يحدث، لـيس مـثل زمـان، أنـا أمـوت، أعنى أنـه نـوم كـالموت، كـأنى لا أنـام، أحس أن الـقـوة فى مـؤخرة رأسى تجذبـنى إلى الـسريـر من الخلف، وحين أنـام أذهب إلى عـالم سحيق لا قـرار لـه، وحين أستيقظ أقـوم وقـد حملت على صدرى الهرم الأكبر، ولـكن هل هذا استيقـاظ؟

- إذن مـاذا؟

- لـست أدرى.. اختـلط الـنوم بـالـيقظة، وكـأن الـنوم مـوت والـيقظة نـوم، أمـا الـيقظة الأخرى، أعنى الحيـاة فـهى... أيـن هى؟ هل أنـا حيـة.. أعوذ بـالله، يـكفـى هذا.. ربمـا بـسبب الـصداع... ربمـا شملنى حتى لم أعد أشعر بـالأشيـاء بـنفس الـدقـة، هذا يـكفـى وأعطنى عقـاقـيرك... أو أنـصرف فـورا.

****

وأخذت الـعقـاقـير الـعظيـمة.

****

- كـيف الحـال؟

- الحمد لله.

- بمعنى؟

- يـعنى لا بـأس.

- أريـد أن أعرف بـالـتفصيل... حتى نحدد الخطوة الـتـالـية

- مـازلـت أخـاف الخطوة الـتـالـيـة... كل شئ تـوقف ولا أريـده أن يـتحرك.

- لا أقصد.. وإنمـا أعنى نـزيـد الـعقـاقـير أو نـنقصهـا.. أو نـغيرهـا مـثلا.

- ومـاذا فـعلت الـعقـاقـير؟

- هذا هو سؤالى.

- الـصداع أحسن.

- وبـقـيـة الأعراض؟

- لـيس لـلأعراض بـقـيـة.

- إذن نـستمـر.

- إذن مـاذا؟ ولـكن هذه هى المشكـلة.. لم أعد أستطيع الاستـمـرار.

- نـستمـر على الـعقـاقـير.

- آه.. على الـعقـاقـير ربمـا.. ولـكن الحيـاة؟

- مالها؟

- كيف تستمر هكذا.

- مادام الصداع أحسن.

- نعم؟ تتحدث مثلما كنت أتحدث أنا فى المرة السابقة.

- أكلمكِ بلغتك.

- وماذا فعلت لغتى.

- أنت تريدين هذا.

- عليك أنت أن ترفضه.

- ما فائدة رفضى أنا.

- تساعدنى على نفسى.

- بالعافية؟

- نعم.

- تثقى بى أولا.

- حصل... أو كاد.

- ثم نعرف ماذا جرى.... وماذا يجرى

- قد أعرف ماذا جرى.. وعليك أنتَ أن تقول لى ماذا يجرى

- ماذا يجرى؟

......

......

- أصبحت حياتى بين النوم والموت، أصحو وكأنى أنام، وأنام وكأنى أموت، اختلط النوم بالموت واختفت الحياة، منذ ذلك اليوم..

- ماذا حدث... ذلك اليوم؟

- لم يحدث الذى حدث ذلك اليوم.. ولكنها أيام وليال وشهور سابقة، أما ذلك اليوم فهو يوم انهيار البناء المتصدع، بدأ التصدع من سنوات: قل ثلاثة أو خمسة، لم تكن الرؤية واضحة ثم انهار كل شئ.

- ... أى شئ؟

- انهار شئ ما كان قائما.. صورة أو تركيبة أو بناء سقط، فجأة.. حدث ذلك إثر حادث عادى.. التواء فى مفصل القدم اضطر زوجى أن يضع رجله فى الجبس ثلاثة أسابيع، ثلاثة أسابيع فقط ولكنها كانت كافية، كان البناء متصدعاً بما فيه الكفاية

- لا أكاد أتتبعك.. عم تتحدثين؟

- عن زوجى

- ماله؟

- وضع قدمه فى الجبس

- إذن ماذا؟

- رأيته من الداخل

- ثم ماذا؟

- فجعت.. فى..

- فى ماذا... لماذا؟

- فى كل ما كان.. بدا ضعيفا حتى لم أعرفه، كان العجز والاستجداء معاً، أثار شفقتى فلم أعرفه، لا ليس هو، ولست أنا، دارت رأسى ولم أصدق، ضباب كثيف، ثم أفكار تجرى وراء بعضها، وعلامات استفهام بلا سؤال، كأن عينا انفجرت من تحت الأرض تحمل ألفاظاً وحروفاً ومشاعر من كل الأنواع... لا أكاد أميزها، يومين كاملين كنت كالمسحورة أو التائهة، كنت أحاول أن أستجمع غبائى كله حتى لا أفهم، كنت أربط رأسى حتى أغطى عينى ربما حجبت عنها الرؤية... ثم... ثم اخترق رأسى ذلك السيخ البارد، وتغير طعم الأشياء، وتحدد الصداع، وجئت لك.

- ولكن كيف بدأت الحكاية

- الظاهر أنه لا بد أن أحكى لك من الأول.. حكايتى أنا لا حكاية الصداع

(1)

- أنتِ أحسن الطالبات لدى

- شكراً يا أستاذ.. هذا بفضلك

- وأحلاهن.

- نعم؟

- كم عمرك؟

- سبعة عشر.. وأسير فى الثامنة عشر

- وأنا تخطيت الثلاثين

- نعم؟ نعم يا أستاذ؟

- لا شئ.. هل.. ؟

- هل ماذا يا أستاذ؟

- هل يمكن أن أقابل والدك؟

- طبعا يا أستاذ.. طبعا
- أنت أحلى البنات
- وأنت أعظم الرجال

(2)

- لا أصدق كل الذى حدث بهذه السرعة
- أنا فى حلم.. لا أريد أن أفيق منه
- سأصنعك على عينى.. سأشكلك كما أريد
- أنا عجينة بين يديك.. إصنعنى كما تشاء
- أنت أجمل ما اقتنيت
- وأنا سعيدة بك
- أنت سبب نجاحى فى الماجستير
- أنا جارية تحت أقدامك
- أنت نور حياتى
- وأنت شمس الوجود كله
- ما أحلى الحب
- اسمك لا يحيط باصبعى فقط ولكنه يلف كيانى كله
- أنت جزء من وجودى
- لقد ذبت فيك تماما
- أصبحنا واحدا
- وسنجعل من بيتنا جنة
- أنت ملكة الحور
- أكاد لا أصدق
- حقيقة كالحلم

(3)

- بيت رائع.. وحب لا ينتهى
- أنا سعيدة
- وأنا أسعد
- يقولون أن زواج الحب لا يدوم
- وحبنا يزيد كل يوم اشتعالا

- لـيس فى الـدنـيا سوانـا
- ولا نـريـد أحدا معنـا
- أنـا أنـت.. وأنـت أنـا
- لا أشعر بـأحد فى الـعالم سواك
- ولا يخطر على بـالى غيرك
- أنـت الأول والآخر
- وأنـت معى إلى الأبـد
- انـتهيت من الـدكـتوراه بـفضلك
- ما أنـا إلا صنع يـديك
- سأعين فى الجامعة عن قـريـب
- أقـل مما تـستحق
- أنـت مـلـكى وحدى
- أنـت كل شئ فى الـوجـود
- لـيس فى الـدنـيا أسعد مـنـا
- أبـدا

(4)

- أنـا خـائـف
- من الحسد؟
- من فـرط الـسعادة
- لا تـدع نـفسك لـلظنـون
- نـكاد لا نختلف
- نحن روح واحدة فى جسديـن
- بـدأت أخاف الأيـام
- أنـا تحت قـدميك
- أنـت تـزدادين جمالا... وأنـا أزداد انـشغالا.
- مجرد وجودك يـكفـينى
- أخشى عليك من الـفـراغ
- أنـت تملأ حيـاتـى
- إلى متى؟

- إلى آخر العمر
- آخر العمر عندى غيره عندك
- ماذا يدور فى رأسك
- فارق السن يزعجنى
- ولكنك أبى وأمى وحياتى وأملى
- إلى متى ؟
- يجعل الله يومى قبل يومك، أنت ترعبنى، ماذا يدور فى رأسك؟
- لا شئ.. هل لى فى قدح قهوة من يديك الجميلتين
- سمعا وطاعة.

(5)

- هل نسيت فاتورة التليفون؟ قطعوا الحرارة اليوم
- أحسن، أنا لم أدفعها عامدا
- لماذا؟
- لست صاحب أعمال.. ولا طبيب
- ولكن التليفون يصلنا بالعالم الخارجى
- نحن لا نحتاج للعالم الخارجى
- كيف؟
- ألا يكفيك حبى
- يكفينى وزيادة
- فلتذهب تلك الآلة المزعجة إلى الجحيم
- أمرك
- مازلت تحبينى ؟
- مادام قلبى ينبض...
- هل الإفطار جاهز
- سمعا وطاعة

(6)

- ....
- سمعا وطاعة

(7)

- ....

- سمعا وطاعة

(8)

هكذا كنا...

هو يأمر وأنا أطيع، هو يفكر... وأنا أناقش فكره الذى هو فكرى، هو يضطرب فلا أنام، هو يقرر وأنا أنفذ، هو كل شئ وأنا لا شئ ولكنى كل شئ به، هو الأول والآخر، هو نبضى وجسمى وكيانى وأملى وحياتى وكل شئ فى هذه الدنيا، هو هو هو، وأنا هو هو.

هذا بعض ما كان

وقد كنت سعيدة بكل ما كان، أعنى كان سعيدا بما كان.. وبما أنه سعيد فأنا سعيدة، وإذا خاف فأنا خائفة، وإذا جاع فأنا جائعة، ليس هناك مشاكل، وكيف يمكن أن توجد، كل شئ حب فى حب وليس فى العالم سوانا.

- كل شئ ماذا؟

- حب وعشق وهيام، خلاياى كلها تتجمع فى كفه يلمسنى، جسدى يتلاشى فيه، وعقلى ووجدانى وكل شئ، ثم...، ثم.

- يتلاشى

-.. ثم ماذا؟

- ثم؟!.. "ويا ليت" ثم لم تأت أبداً، ولكن يبدو أن هناك دائما ثم.. ثم.

****

- الناس كلاب

- أنا لا أعرفهم

- الناس يأكلون بعضهم

- الجامعة مليئة بالمشاكل؟

- الجامعة وغير الجامعة

- ولكنك قادر على كل شئ

- الشباب أصبح وقحاً

- كنتَ شابا وتعرف نزعاتهم

- كنت ماذا؟

- كنت شابا

- والآن؟

- أنت دائما سيد الرجال
- لم أعد شابا؟
- أنت شباب على طول
- ولكنك لم تقولى ذلك فى أول الأمر
- أهوّن عليك
- تجرحينى؟
- أنا خادمتك.. يقطع الله لسانى
- "هذا" ما عملت حسابه
- ما "هذا"؟
- الطلبة فى الشقة المقابلة
- مالهم؟
- سفلة
- فى منتهى الوقاحة
- كيف علمت؟
- أنت تقول وأنا أصدق عليك
- لا بد أنهم أظهروا وقاحتهم معك، ولم تخبرينى
- أنا لا أعرفهم
- إذن كيف تصفيهم بأنهم فى منتهى الوقاحة
- أنت الذى قلت أنهم سفلة.. فلا بد أنهم فى منتهى الوقاحة
- سنقفل الشباك بالمسامير
- خيراً تفعل.. ولكن لماذا؟
- يبعدون وقاحتهم عنا
- فى ستين داهية
- موافقتك هذه تهزنى
- ولكنى طول عمرى أوافقك
- هذا أمر آخر..
- كل كلامك أوامر
- أنا محتار
- لا تشغل بالك

- هاتى المسامير والقادوم

- سمعا وطاعة

****

وحتى هذه اللحظة لم أكن أتصور أن فى الأمر شيئاً، كان قويا واثقا، ولكن.. حين بدأ يلين ويتراجع بدأت أنا أهتز، كان من المفروض أن أرحب بهذا التغيير وأرتاح له، ولكن الذى حدث هو العكس، كنت قد تعودت على التحديد والأوامر والوضوح، وحين أصبحت الأمور أحسن، وحاول أن يشعرنى بنفسى، تهت فى مجاهل لا أعرف أولها من آخرها، تغيرت لهجته، وكان ينبغى أن يبدو ذلك طيبا للغاية، ولكن مع ظهور هذا الشئ الطيب بدأت أسمع صوت التشقق والتصدع.

قال لى فى يوم ما دون مناسبة:

- أحس هذه الأيام أنى احتاجك أكثر

- طول عمرى تحت أمرك

- ولكنى أحتاجك بشكل آخر.. ربما ليس تحت أمرى

- طول عمرى تحت أمرك

- ربما أحتاجك هذه الأيام فوق أمرى

- ماذا؟ العين لا تعلو على الحاجب

- أحس بالوحدة

- ولكنى معك

- أنت لست معى، أنت فىّ

- لا أفهم

- أحس بحاجتى لإنسان بجوارى

- أنا بجوارك

- أنت جزء منى ولست بجوارى

- لا أفهم

- أحس بدبيب الضعف قادماً من بعيد

- أنت لا تضعف أبداً

- أنا إنسان

- لا..؟!

- ماذا؟

- أعنى لست ككل الناس

- كان ينبغى أن أصنعك بشكل آخر

- إصنعنى كما تشاء.. أنا بين يديك

- لم أعد قادرا على صنع شئ.. يداى ترتعشان

ولم أفهم ما الذى جرى له، لم أفهم ماذا يريد، ولا ما الذى ينبغى علىّ عمله، لم أفهم ما الذى حدث، ربما حدث له شئ من أمراضكم، أصبحتهم كالوباء تنتشرون بالماء والهواء، توقظون الناس من غفوتهم، وتطمّعونهم فى حياة أحسن، ثم ماذا، لم أفهم ما الذى جرى له، كان الناس قديما يعيشون مغمضى العينين ويموتون قبل أن يفيقوا من غفوتهم، ربما كان ذلك أفضل، ربما!، كان يستعملنى مثل الحذاء ورباط العنق والمعطف ولم أقل لا، وكان يأخذنى على صدره كالنيشان فى الحفلات والاجتماعات، ولم أقل لا، هو يحتاجنى فى أى وقت فيجدنى معلقة بجوار السرير، ولم أقل لا، لماذا يريد أن يكف عن استعمالى ويقلب حياتى رأساً على عقب، ماهذه اللهجة الغريبة التى بدأت تلون حديثنا، يحترمنى أكثر، ويقدرنى أكثر، أنا لم أتعود على ذلك، ماذا جرى له يا ترى، روحى وعينى وحياتى، ماذا جرى له؟ ولكنى حتى ذلك الحين لم أتصور أن فى الأمر شيئا يستحق الجزع واتهمت فهمى، لم أفهم، فليكن..، يكفى أن يفهم هو، حتى التوت قدمه، واضطر من باب الحيطة أن يضعها فى الجبس ثلاثة أسابيع، فقط، ولكنها كانت كافية.

****

- هكذا الأيام، ألم أقل لك أنى لم أعد أحتمل

- التواء بسيط سرعان ما تقوم منه بالسلامة

- وهذا الجبس، أصبحت عاجزا

- يبعد الله الشر عنك.. إجراء احتياطى

- أنت تستهينين بحالتى

- أنا أهوّن عليك

- كنت انتظرك قوية فى هذه الأحوال

- أنا قوية بك

- ومن غيرى ؟

- أنا لاشئ بدونك

- إذن.. فأنا أطلب المعونة من لا شئ

- حيرتَنى.. ربنا يبقيك لى ألف عام

- ولكنى أتغير

- أنت كما أنت.. طول عمرك سيد الرجال

- أنت لا تعرفين ماذا تفعل الأيام بالرجال

- تزيدهم قوة ورجولة.. أنت مثل أول أيام الزواج

- ليست هذه هى المسألة.. أعنى قوة أخرى

- أى قوة أخرى

- كيف أُفَهِّمك... ليتك كنت قوية

- أنا قوية بك

- أريدك قوية "لى".. لا "بى"

- لا أفهم

- ولن تفهمى.. ويحى..! كان ينبغى أن أعمل حساب كل ذلك، أنا وحيد.. ضعيف، و... وحيد

****

لهجة جديدة لم أتعودها حاولت أن أفهمها، لم أستطع وابتدأ الدوار فى رأسى، وانفتحت عين الذكريات من تحت الأرض، وانطلقت نافورة الأفكار والألفاظ والحروف، وحاولت أن أحول دون أن تشكل تلك الحروف والألفاظ أى معنى، كان أى معنى يخيفنى، يهدد سكينتى، وفى نفس الوقت كنت أحس بصليل قوة غريبة تريد أن تدمر كل شئ، وخفت، عشت أياما وليالى طويلة مرعوبة، وكان يراودنى منظر نسيته طول عمرى وكأنى لم أعشه أبدا، منظر أبى وأمى..؟ لا أريد أن أتذكره.. الآن، لا أريد، لا أريد، أفضل الصداع والمرض على أن أرى تلك الصورة..، أنت الذى اضطررتنى للكلام. وعليك أنت أن تسكتنى، أين أقراصك التى تسد بها الأفواه؟ أليس عندكم أقراص للكلام وأقراص ضد الكلام؟ طلبت منك أن تتركنى فى حالى وإذا بك.. سامحك الله.

قلت لها:

- ولكنك أنت التى عجزت عن أن تستمرى كما كنتِ

- هو الذى أرادنى غير ذلك فلم أستطع ، وهأنت ذا تكمل علىّ، فتحت مخزن الألم

- ماذا كنت أستطيع، أنا صامت معظم الوقت

- كنت تتركنى أذهب فى ستين.. لا أريد. لا أريد

- ولكنه حصل

- منك لله.. يبدو أنى لا بد أن أحكى لك الحلم.

- أى حلم؟

- الحلم الذى حاولت أن أهرب منه بالصداع والأقراص والنوم

- بداية المرض؟

- حلم بشع مفزع.. فلتسمعه إذن ولتشمئز كما تشاء أنت السبب.. وعليك أن تحتمل

- ....

****

رأيتنى فى قاعة الاحتفالات بالهيلتون، وكان المدعوون تكاد تغطس رؤوسهم فى فجوات بالموائد، وكانت أقدامهم مربوطة تحت الموائد، كل الأقدام مربوطة مع كل الأقدام

ثم تغير المنظر...

المكان هو نفس المكان ولكنه أصبح كالسوق، سوق للحمير، وكنت - ولا تؤاخذنى - حمارة جميلة بين الحمير، ليس مثلى حمارة أخرى وجاء المعلم.. سيد المعلمين، وتحسسنى برفق. ثم اختبرنى وفتح فمى ليرى أسنانى وركبنى ودار بى، ثم تحسسنى ثانية.. واشترانى

ثم انتقل المنظر..

حظيرة جميلة فيها كل وسائل الراحة: الدفء والبرسيم والهواء والنظافة، وكان لى سرج من الحرير، ومهماز مغطى بالقطيفة حتى لا يجرح بطنى، ولجام رقيق لا يعض لسانى، فقد كنت هادئة ومطيعة، وعلمنى المعلم كل شئ.. الجرى و"الرهونة" وحتى الرقص على المزمار.. كنت حمارته المفضلة.. للركوب الشخصى فقط.. لا أحمل ترابا ولا سمادا...

ثم تغير المنظر

رأيتنى أقف على رجلىّ الخلفيتين وكلما حاولت أن أسير على أربع لا أستطيع، ثم... ثم انقلب نصفى الأعلى إلى إنسان....

ثم تغير المنظر

رأيت حماراً عجوزاً تقترب منى وتتسمح فى...، ولكنى نصف حمارة ونصف إنسان، وتعجبت من هذه الحمارة المنهكة وهى تتمسح فى كأنها تدعونى للركوب.. ولكنى لا أستطيع وأنا مسخ مشوه لا أنا حمارة ولا أنا إنسان، ولكنى - وهذا هو أكثر ما أرعبنى - نظرت فجأة إلى نفسى فوجدتنى حمارا ولست حمارة

وأخذت أصرخ وأصرخ وأصرخ حتى أيقظنى زوجى وأنا أقول

"لا يمكن.. لا يمكن"

يا ساتر..

لماذا يا دكتور، لماذا؟ اضطررتنى أن أحكى لك كل هذه البشاعة؟، ولكن.. عندك.. لا تطلق لخيالك العنان، لا تحاول ان تتحدث باللغة الداعرة عن تفسير الأحلام، لا تتصور أن لى

رغبة فى أن أصبح ذكرا.. بل أن الذى أزعجنى هو هذا الأمر ذاته، لا تفسرنى بعقدة الخصاء والذى منه، فليس هناك قضيب فى الخيال ولا شذوذ جنسى...

قلت:

- أنا لم أقل شيئاً

- ولكنى أعلم عنك الكثير، أنا مثقفة رغم ما أنا فيه، كنت أقرأ فى مكتبة زوجى، لست أدرى ماذا جرى لنا، أنا أعلم تفسيرات شيخكم الغبية، أو القاصرة على أحسن الفروض

- صبرا.. فالدنيا تغيرت

- هل تاب الله عليكم من حكايات الجنس هذه؟ أليس الجنس عندكم هو الأصل؟

- بل الأصل هو الأصل

- ماذا تعنى ؟

- كيان الإنسان أولا

- ماذا تريد أن تقول؟

- الجنس دافع واحد.. وهو عند الحيوان والإنسان على السواء ولكن سعى الإنسان ليكون له كيان مستقل متفاعل هو الأصل.. هو الحقيقة الأولى.

- كيان؟ مستقل؟

- نعم.. كيان مستقل متفاعل

- وكيف يمكن أن يكون للإنسان كيان مستقل متفاعل؟

- أظنك آمنت أن مجرد الكلام لا يفيد

- نحن نتكلم لأننا لم نعرف كيف نعيش

- فلنعش

- كيف؟

- أنت هنا تحاولين

- باجترار الآلام وتفسير الأحلام؟

- ..بل نحن نعيد البناء

- أى بناء؟ وأنا مازلت لا أكاد أعرف أين أنا؟.. من أنا؟ مازلت متجمدة أمام الحلم وما يذكرنى به الحلم

- وما الذى يذكرك به الحلم

- أحاول أن أنسى

- وهل يمكن؟
- هل تصر؟
- وهل الأمر يحتاج لإصرار؟
- دعنى... لعلنى أنسى.. أو حتى أتناسى
- وهل يمكن؟
- إنها صورة فظيعة
- ومع ذلك
- أمرى إلى الله...ولكنها صورة فظيعة

****

"أبى يضرب أمى وهى تقبل قدميه"

أبى يبيع حليها... أكثر من أقة كاملة بميزان اللحم، وهى تدعو له بالتوفيق فى إتمام الصفقة، الدموع على خديها، ووجهها يضئ بابتسامة بلهاء

أبى يحضر مع أصحابه، وأحيانا - هل تصدقنى - صاحباته - فى المنزل... وأمى فى غاية السعادة.. تخدمهم

ثم يمرض أبى ويفقد أغلب ثروته فى صفقة لم يحسبها جيدا، ويصفى حسابه ويعتمد على إيراد ثابت من بقايا عماراته.

وتنقلب الصورة

بعد فترة انتقال إهتزت فيها أمى تماما واحتارت، لم تجد بدا من أن تركب... جاء عليها الدور،

ركبها أبى طالما كان قويا،

ثم جاء عليها الدور ولكنها لا تعرف كيف تركب،

وترددتْ، وتلكأتْ حتى ظهرت عمتى فى الصورة، بدأت تتدخل رويدا رويدا، وأبى الجبار يطيع فى لين وطراوة، أمى لا ينقصها الذكاء ولكن ينقصها التدريب، لم تفهم فى أول الأمر ماذا يجرى، ثم أثار دخول عمتى المسرح كل إمكانياتها الكامنة.

ذات يوم فاجأت أمى عمتى وهى تضع قدميها فى الركاب تستعد للقفز على المسرح، كانت تتدخل فى إدارة ما تبقى من عقارات وهو يسمع ويطيع، وهجمت أمى بكل غرائز المرأة وحب الحياة، وضعت قدمها بدلا من عمتى وقفزت واعتدلت فى جلستها.. وهزت رجليها، وانصاع الحمار العجوز

****

وعشت بقية عمرى أشاهد امرأة أخرى لا أعرفها، وهى لا تكف عن هز رجليها بداع وبغير داع ، ما أبشع هذا المنظر، ما أبشع كل ذلك ، لماذا؟.. لماذا... لماذا؟

- حلم مفزع

- وحقيقةٌ أفظع

- معك حق

- والآن كلما استيقظت من نومى وقبل أن يكتمل وعيى، أرى أمامى قدمين فيهما خلخال يهتزان بانتظام.. لا.. لا يمكن، لا أستطيع، كفى، لا يمكن أن تكون هذه هى ذكرى أبى وأمى الطيبين، الحلم هو أبى وأمى.. أليس كذلك؟

- وأنت؟

- مالى أنا.. الحلم هو أبى وأمى

- غير أنك كنت فى الحلم.. أنت وليس أمك

- فى الحلم؟ أنا أمى طبعاً فى الحلم فقط، أما فى الحقيقة فشتان بين الصورتين: كان أبى يضرب أمى ولكن زوجى لم يضربنى أبدا، كان أبى يستغل ثروتها ولكن زوجى لم يفعل ذلك أبدا، كان أبى يجرح أدق مشاعرها ولكن زوجى لم يخدش كرامتى أبدا... الفرق واضح

- فى التفاصيل

- ماذا تعنى ؟

- لكل مرحلة شكل

- ماذا تعنى ؟

- هل تقرئين الصحف؟ هل تقرئين فى السياسية؟

- طبعا... أنا مثقفة، وهذا منتهى الحرية، زوجى يسمح لى بالقراءة فى حين أن أمى لم تكن تعرف القراءة أو الكتابة

- هل سمعت عن الاستعمار الجديد

- بكل تأكيد، الصحف ليس وراءها إلا ترديد كلمة الاستعمار حتى ولو كانت هى نفسها نوع من الاستعمار

- ذكاؤك ثروة فى العلاج

- أمى كانت ذكية أيضا

- أنت التى تذكرين أمك

- ألا تقولون إن الذكاء وراثة؟

- ليس فقط الذكاء

- ماذا تعنى ؟

- حدثينى عن الاستعمار الجديد

- كان "زمان" لا بد من جندى وبندقية، والآن تكفى اتفاقية واحتكار

- تماما.. أليس هذا هو الفرق بينك وبين أمك

- كيف؟

- نفس الحال

- حال الركوب

- ماذا تعنى؟

- كان المهماز من الحديد قديما.. والآن هو هو ولكنه مبطن بالقطيفة.. هذا هو كل الفرق

- ما أبشع ذلك

- كان ينبغى للرجل أن يضرب المرأة ويستولى على مالها حتى تتم السيطرة

- والآن؟

- الآن.. ليس عليه إلا أن يستغل كيانها وينميها لحسابه

- إذن فهو ينميها

- لحسابه

- ولكن الرجل الآن اختلف

- يتمنى أن يعيش إنسانا

- وماذا فى ذلك، هل هذه الأمنية هى السبب فى ظهور ضعفه هكذا؟

- هو ضعف البداية، هى دعوة لأن يكون جرا بشكل أعمق.

- كان أبى "زمان" لا يقعده إلا الشديد القوى، وحين يبرك يقوم

- والرجل يبرك الآن بمحض إرادته.. طمعا فى الأخذ .. طمعا فى استرجاع إنسانيته التى ضاعت تحت وهم قوة لا معنى لها

- ولكن الأوان قد آن؟ لا بد من توقيت صحيح

- هذه هى المأساة

- التى ظهرت فى الحلم

- أنت خبيث

- حكم الصنعة

- ألا يكفينى أنى حكيت لك الحلم.. وعليك أنت تفسيره

- هذا الحلم لا يحتاج إلى تفسير، ولكن ما الذى أفزعك فيه

- ربما أفزعنى ذلك المسخ المشوه، الذى لا يستطع الركوب، أفزعنى أن جنسى تحول، وأنا لا أحب تغيير جنسى على آخر الزمن، أنا أحبنى امرأة كما خلقت.

- ربما

- الذى أفزعنى أن تتكرر مأساة أمى.. مع أنها بدت لى بعيدة

- كيف؟

- أن نعيش حيوانات فهذه سعادة العمى والضلال، أما أن نعيش أنصاف حيوانات وأنصاف بشر فهذا ألم الضياع وقسوته

- ولكن هناك احتمال آخر

- أى احتمال آخر؟.. المرض والهرب أليس كذلك؟ هذا الصداع والنوم الموت؟

- نحاول أن نكمل حياتنا بشرا

- عشم إبليس فى الجنة

- الشمس تشرق كل يوم

- لا تخدعنى.. كفانى مابى.. أنا لم أعد أعرف من هو الانسان

- الانسان هو الكائن البشرى الذى يمارس حياته مع إنسان آخر ولا يكتفى باستعماله.

- إسمع... أنا لا أفهم هذه الأشياء، يعيش معه؟ يستعمله؟ ماذا تريد أن تقول؟

- كنتِ أنت وزوجك واحداً لا اثنين

- هذا هو الحب

- هكذا يسمونه؟

- إذن ماذا تسمونه أنتم؟

- صبرك بالله... نبدأ من الأول

- نبدأ

- ضاع كيانك فى كيانه

- حصل

- ذبت فيه

- تماما

- إذن... لم يكن هناك آخر

- لا أفـهـم

- كـان يحتويك، فـيملأ كـيانـه بك

- ومـاذا فى ذلـك؟

- لا شئ.. ولـكنها حياة بـلا آخــَـر.. فـلمْ تـستمر

- مـاذا تـعنى ؟

- إذا كـنتما واحداً.. فـأيـن الآخر؟

- وكـيف نـكون اثـنين؟

- لـو كـان هـو كـامل.. أو كـنت كـاملـة لمـا انـدمجـتما حتى الـفنـاء فـيكما هكذا

- إذن لَم أحبنى ؟

- هو؟... هو استولى عليكِ فذبت فـيه

- كل هذا الهيام والـغرام لا تـسميه حبا

- هذه هى الـنتيجة

- دعـايـتكم هـى الـتى أفسدت عقـول الـنـاس، لـو لم يـعـامـلنى أحسن لـسار الحال على مـا يـرام

- ربما كـان رفع الـسـتار تـأخر عشر سنوات من الآن

- كـان أفـضل

- ثم تحدث المـأساة نـفسهـا فى ظروف أسوأ.

- أعوذ بـالله... ولـكنى أنـا.. أنـا أيـضا أحببته بـكل حـواسى وكـيانى

- أنـتِ؟.. أنت ضِعت فـيه، سكنتِ داخله

- إذن مـاذا؟

- أم تـكن تـلك هـى الحيـاة الـتى سعيتما إلـيـهـا؟

- فـمـا الحيـاة الـتى كـان يـنـبغى أن نـعيشها؟

- لا يـرضى الـرجل إلا مـشاركـة إنـسـان آخر.. يـعطيـه ويـأخذ منـه.. والمـرأة كـذلـك

- هذا مـا أراده زوجـى.. أو تمنـاه

- بـعد مـاذا؟

- حقـيقـة بـعد مـاذا.. بـعدمـا اهـتز من قـشة.. من الـتواء قـدم

- مجرد عجزه بـضعة أيـام أظهر حقـيـقـة ضعفه

- ولكن ما ذنبه.. وما ذنبى

- نحن لا نحاكم أحدا..

- هل أنا أضعف من أمى...، أمى استطاعت أن تركب

- حين خافت أن يضيع منها.. خافت من عمّتك أن تستولى عليه

- لماذا لم أستطع أنا؟

- لأنك تريدين أن تكونى إنسانة

- وأمى ؟

- لم تتح لها الفرصة

- أنا مسخ مشوه، نصف حمار ونصف إنسانة... ماذا أفعل؟ ما أبشع كل هذا

- ليس أمامك خيار

- ولكنه حين ركبنى كان إنسانا

- كان يلبس جلد إنسان، ويحاول أن يكونه

- وكيف أضمن ألا أكون مثله.. ألا أستعمله بدورى

- سوف تشعرين بكيانك.. فلا يلزمك أن تستعملى أحدا... لن تستطيعى..

- يخيل إلى أن الوقت قد فات.. لماذا لم أولد إنسانة من الأول

- أنت رأيت والديك.. فماذا تتوقعين؟

- .....؟

- ...

- فعلا.. وهو؟ زوجى؟

- كان خائفاً

- سيذوب فىّ كما ذبت فيه

- لا يستطيع

- لماذا؟

- لأنك لن تحتاجى من يذوب فيك

- كدت أتوه فى ألفاظك

- رغم أنك تشعرين بها تماما.. أقرأ هذا فى عينيك

- ياليت.... متى.. متى أستطيع؟

- حين تعطين بلا حساب ولا خوف، حين تأمنين الالتهام تمارسين الحياة

- متى؟

- حين تحبين بحق

- الحب؟ أليس كل ما حدث بسبب الحب

- فرق بين الحب.. وبين العشق والأنانية، دعينا نحاول أن نروض الحيوان الكامن تحت جلودنا ليخدمنا لا لنخدمه

- وما هو الحب الذى تعنيه؟

- هو البناء، وهو الأخذ والعطاء، هو العاطفة التى تغنى الاثنين معاً، حين يكون قربك من إنسان حافزا أن تحبى نفسك، أن تشعرى بإنسانيتك ويجد هو فى قربه منك ذاته وكيانه، ثم تنطلقا معا إلى رحاب الناس جميعا حينئذ يحق لنا أن نقول: هذا هو الحب

- ومالهم الناس بنا؟

- لا يوجد حب بلا ناس

- ألا يكفى اثنين

- تبدأ البداية باثنين، فإذا أحبا بعضهما فعلا أصبحا ملايين، وسط الناس وبالناس وللناس

- ولكن هذا صعب جدا

- الصعب هو التشوية، وتعقيد الحياة

- لست أدرى.. أشعر أنى لن أستطيع

- جربى وقد تضطرى، فتنجحين

- أضطر؟

- المضطر يركب الصعب

- أركب الصعب؟ وأنا لم أستطع أن أركب السهل!

****

قال الفتى:

- ولكن الزواج هكذا من قديم: سيطرة الرجل كاملة... ثم سيطرة الرجل ظاهرة.. ثم سيطرة المرأة خفية.. ثم قد تصبح صريحة

قال الحكيم:

- ولكننا نسعى الآن إلى حياة أفضل بلا سيطرة.

قال الفتى:

- ولكنها صعبة

قال الحكيم:

- ولكنها تستأهل

قال الفتى:

- وكيف نميز الحب من الذوبان والالتهام؟

قال الحكيم:

- المقياس الذى لا يخيب هو مدى انتشار الحب على الآخرين.. على الناس

قال الفتى:

- أنت تصعب الأمور، كيف نميز بين الإنسان والحيوان.. بين الإنسان والشئ؟

قال الحكيم:

- الإنسان هو الذى يجعلك تحب نفسك فى وجوده، ثم تحبه، ثم تحب كل الناس

قال الفتى:

- كل الناس؟ ألا يكفى الأولاد؟ لو كان عند هذه السيدة أولاد فهل تختلف الصورة؟

قال الحكيم:

- إذا سخروا الأولاد لإكمال النقص وتغطية الضعف فلا فائدة، الأولاد سوف تطحنهم أنانية أهلهم وتلتهمهم سيطرتهم فيصيرون اللاشىء نفسه. ثم لا يفيدونهم شيئاً.

قال الفتى:

- وكيف يلتهم الأهل الأبناء.. ثم لا يغنونهم من أنفسهم شيئاً

قال الحكيم:

- هل تذكر أول حكاية.. حكاية "الضياع" .. الإبن الذى ضاع حين ثار على الألفاظ والمعتقدات التى حشرها الأهل فى رأسه.. فلتكن آخر حكاية.. حكاية الأهل الذين ضاعوا حين اكتشفوا خدعة امتلاكهم أبناءهم وماهم بمالكيهم

الإربعـــاء 24-08-2011

1454-أكبـــادنـــا

كتاب جديد (قديم)

عندما يتعرى الإنسان (10 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

أكبـادنا

قال الحكيم:

دخلا علي... هما هما، الأب، والأم، كانت الأيام قد طحنتهما طحنا، لم أكد أتذكرهما، سنوات مضت منذ انقطع ابنهما عنى منذ عاد إلى الحياة شاعراً محارباً، ترقص المعانى فى أفعاله قبل أن ينطق بالكلمات، يصنع المستقبل ولا ينتظر التعليمات، هما هما... ماذا فعلت بهما الأيام؟

قال الأب:

- لعلك تذكرنا

- طبعا

- ما كنا لنجئ لولا.. لولا.. لولا زوجتى، والشديد القوى

- لا عليك، فأغلب حالاتى يحوّلها إلى "الشديد القوى"، لا أحد سواه

- تمزح حضرتك؟

- ليس تماما، .. لم أركما من زمان

- زوجتى ليست على ما يرام

- لا بأس عليها

- وأنا كذلك

- ما الذى حدث؟

- أنت تعرف الذى حدث.. أفسدتَ كل شىء وعليك إصلاحه

- أنا تحت أمرِكم

- بعد ماذا؟ لا نعرف كيف نعيش، التليفزيون والإذاعة والصحافة وأنت... كل ذلك من علامات الساعة، تلوحون للناس بالأمل ونجنى نحن الشقاء، كانت حياتنا مثل الساعة، لا تؤخر ولا تقدم، تِكْ .. نصحو...، تِكْ.. ننام، تِكْ.. نأكل، تِكْ.. نقرأ، تك.. نقبض، تِكْ.. نصرف... إلى آخره إلى آخره

- وما آخره؟

- كل ما يتصوره عقلك... ماذا تريد أن تقول؟

- تِكْ.. نموت

- وماذا فى ذلك.. تِكْ نموت!.. تِكْ نموت، هذه هى آخرتها

- ولكن لا بد أن نعيش حتى نموت

- هذا هو الكلام الفارغ الذى أفسد عقول الشباب، والأدهى والأمرّ أنه كاد يفسد عقولنا نحن أيضاً

- يبعد الله الشر عنكم، وعن عقولكم.

- وكيف يبعد الله عنا الشر وهو بيننا يرعى؟ كيف يبعد الله الشر والأولاد "يفكرون"؟ كيف... وهم يتعلمون أشياء غير ما تعلمنا؟ كيف.. وهم يرون أخاهم قد فقد عقله؟.. بفضلكم.

- بفضلنا؟

- أنتم الذين ترفعون الغطاء عن الأعين ثم... ثم... هذه هى النتيجة، الولد جن وتركنا، وضاع مستقبله.

- ربما ولد من جديد.. وانطلق يبنى.

- ماذا؟ ضاع مستقبله والحمد لله. ربما كان الآن أستاذاً بالجامعة على أقل تقدير، كنت أهيئة للوزارة، كان نابغة ليس كمثله أحد، منك لله.

- ولكنه الآن يعيش، يكتب ويعمل ويحب الناس.

- يحب الناس؟ من أين أصرف هذه العملة؟.. ونحن؟ منك لله.. ضاع الولد، كاتب مجهول.. يمكث فى القاهرة يوما وفى الجبهة عشرة، يعرض نفسه للهلاك دون إذن منى(!) لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم... إنا لله وإنا إليه راجعون.

قالت الأم:

- أكثر الله خيرك... لا تتضايق من زوجى فقد خاب أمله فى الجميع، أنا لا أنسى جميلك ما حييت، كاد الولد يضيع ولم تتخلّ عنه أبدا، صحيح أنه لم يحقق ما كنا نرجو، ولكن صحته بالدنيا.

- بل هى الدنيا... لا عليك، هل أستطيع مساعدتكما؟

- تستطيع.

- أنا تحت أمركما.

- زوجى مضطرب تماما، لا ينام ولا يصحو، دائم السخط والقلق، لا يستقر فى مكان، ولا نكاد نمكث فى زيارة خمس دقائق حتى يقوم كالمفزوع، وأحيانا يجرجرنى وراءه فى الشوارع بالساعات حتى بدأ الناس يتقولون عليه، وهو لا يأكل بانتظام، والأدهى والأمر أنه لم يعد يصلى، وصل سخطه ويأسه إلى أبعد الحدود.

- وأنت؟

- دعنى فى حالى، لم يأت الدور على بعد، أنا أقوم على خدمته وأسمع المصحف المرتل بقية الليل والنهار.. ضاع كل شئ... لا ولد ولا زوج ولا مستقبل، ننتظر الموت فى كل لحظة. ولكنه أصبح أغلى من كل ما انتظرناه، لم ننتظر شيئا وتحقق، حتى الموت، نمارس الوحدة والانتظار بلا رؤية.. ولا صبر.. ولا غد،... كل أمانينا ذهبت هباء.. فلماذا لا تتحقق آخر أمنية لنا - الموت..!! بينى وبينك أنا أؤمن أن هذا هو الحل الأوحد، ولكنه أمنية عزيزة... مثل كل الأمانى العزيزة... حين نريدها لا تحدث أبداً.

- لماذا كل هذه القتامة.. لقد أديتم واجبكم على أحسن وجه عرفتموه.. ربيتم أولادكم على قدر ما استطتعم.. وهم يكملون طريقهم وحدهم.

قال الأب:

- وحدهم؟... آه... هذا هو بيت القصيد.. وحدهم.. كيف يكملون الطريق وحدهم، وأنا الذى بدأت الطريق؟.. أنا الذى وضعت بذرتهم داخل أمهم، وهى حملتهم وهنا على وهن، وأنا الذى صرفت وربيت وعلمت، ثم يكملون الطريق وحدهم، إذن ماذا كنا نصنع؟ ضحينا بكل شىء، بأنفسنا، بحياتنا، لم نعش لحظة إلا لهم، لم نعش لأنفسنا إطلاقا، وفى النهاية يكملونه وحدهم... وماذا أصنع أنا بدونهم؟ ألعب الطاولة أو الورق

على رصيف قهوة مهجورة؟ أنا لا أتقن شيئاً من هذا، أذهب للسباحة على الشواطئ بين العرايا والفاجرات؟ أحج؟ حججنا خمس مرات حتى منعوا الحج المكرر، ماذا نصنع نحن؟ لم يكن فى حياتنا غيرهم.. وأصبحنا فى سن لا تسمح لنا بالإنجاب. هل نتبنى أحد الأطفال فى آخر العمر نربيه بالطريقة التى تنصحونا بها..ثم نخبركم بالنتيجة؟. آه من كل هذا آه! لماذا لا تقوم القيامة؟

قالت الأم:

- أنت لا تعلم ماذا صنعنا لهم... ربما أفادك أن تعلم:

(1)

- بارك الله فيهم سوف أجعلهم أحسن الناس... أحسن الناس.

- يبقيك الله لى ولهم.

- ليس مثلهم أحد فى الدنيا.

- يبعد الله عنهم الضيق.

- سأقطع من لحمى لأربيهم.

- كل شئ بهم ولهم.

-- ليس لنا وجود بغيرهم.

- إلا إبننا الصغير.. جوهرة ليس لها مثيل.

- كلهم أحسن من بعض.

- ربنا يحميهم.. هم أحسن الجميع.

- أحسن من كل الناس.

(2)

- الولد حرارته 39.

- يا نهار إسود.

- الطبيب قال انفلونزا بسيطة.

- أملى وحياتى.. ماذا أصنع بدونه.. روحى.. قلبى.. عقلى.. مستقبلى..

- المسألة بسيطة.

- ابنى حبيبى.. نحضر طبيبا آخر.. لا بد أن تهبط الحرارة الآن

- الطبيب نزل لتوه.

- أنا مالى.. هذا ابنى وليس ابنه.

- ننتظر حتى الغد.

- أولادى.. ليس لى فى الدنيا سواهم.. ماذا أنا بدونهم؟

(3)

- خط الولد مثل سلاسل الذهب.

- إبنى..!

- شهادتهم تفرح القلب الحزين.

- أملى.

- ربنا يبعد عنهم العين.

- ليس كمثلهم أحد

- هم كالكتاب الجيد ذو الورق المصقول

- تفتح الواحد منهم فيكرّ العلوم "كالمكنة"

- ماشاء الله

- عماتهم وأخوالهم يحقدون عليهم

- دائمو المقارنة بينهم وبين أولادهم

- ربنا يكفيهم الشر

- لن نزورهم بعد اليوم

- الحسد يأكل قلوبهم.. ألا يكفيهم أنهم أغنى مالا

- أولادنا هم ثروتنا.. ليس لنا شئ سواهم

****

وأنت - يا سيدى- تعلم بقية القصة، ربما سمعتها من ابننا الذى زارك فى الأول، أو من أمثالنا، أو من أمثاله، ولكن لابد أن تعرف وجهة نظرنا، عليك أن تسمعها قبل أن تحكم علينا

- ولكنى لا أحكم عليكم، أنا أعذركم، كان الله فى العون، لو كان فى حياتكم شئ آخر لما تدهور الحال هكذا.

- لا شىء آخر، ولا شىء أوّل، أنت تتحدث براحتك بعد خراب مالطة

- لا تتعجلوا.. ربما هى لم تخرب تماما، وإلا ما حضرتم

- ياليتنا لم نحضر.. ولكن ما العمل؟.. أصبحتم مقررين علينا مثل صفحة الوفيات فى الصحف.. متى تقرأ أسماؤنا فيها، ياليت!!

- ولكن كل ما حدث كان جزءً من محاولتكم

- تعزية لا معنى لها

- أنا معكم.. ولكن..

- كله من هذه "اللكن" إما أنك معنا أو علينا

- الحياة لم ترحمكم.. لو أنكم أطمأنتم، لو أنكم شعرتم بالناس كأفراد منكم، لو أنكم أمنتم، لما انكفأتم على أولادكم هكذا، ولما حدث ما حدث، فالذى حدث لم يكن باختياركم تماما بل نتيجة ظروفكم

- يبدوا أنك لن تفهمنا أبداً.. إن الذى حدث قد حدث بالرغم مما عملناه لا بسببه، لقد أحببناهم أكثر من أنفسنا، بل إننا لم تكن لنا حياة أصلا إلا بهم

****

هذه هى بقية الحكاية

(4)

- ألم يئن الأوان؟

- بماذا يا بنى ؟

- أكمل نصف دينى

- دينك كامل والحمد لله.. أنت أول من تؤدى الفروض

- أتزوّج

- مازالت صغيرا

- عندى سبعة وعشرون عاما وأخشى أن أقع فيما يقع فيه الشباب

- لا تكبر نفسك

- أنا موظف منذ خمس سنوات

- ثم ماذا؟

- ليس عندى مليم

- ماذا؟

- مرتبى أعطيه لكم أول الشهر، وحالتكم المالية مستورة والحمد لله

- ولكنك تصرف أكثر منه

- أعلم ذلك

- إذا ماذا؟

- ماذا لو احتفظت بمرتبى ورفعت نصيبى فى مصاريف المنزل؟

- هل قالوا لك اننا فتحنا فندقا

-هذا أوفر لكم

- ومن قال لك أننا نريد أن نوفر

- أريد أن أشعر بكيانى، مازلت آخذ مصروفا بعد خمس سنوات من التوظف!

- مرتبك لا يكفيك ملابس فقط

- أنا حر.. أنا على استعداد أن أجوع

- مجنون.. والله العظيم.. يغوى الفقر

....

كنا نحبهم أكثر مما يحبون أنفسهم، نقبض منهم خمسة ونعطيهم عشرة... ولا فائدة

- أنا مصمم وانتهى الأمر

- سوف تلحق بك لعنتى

- لا أستطيع أن أستمر هكذا

- فسدت أفكارك من أصحاب السوء

- هى زميلتى فى العمل

- ضحكت على عقلك.. أنت لا تعرف شيئا

- أنا أعرف كل شىء عنها

- أهلها من السوقة

- ونحن؟

- ......

- أنت تستاهل بنت الملوك

- هذا كلام قديم والناس تقاربوا من بعضهم البعض بوسائل أخرى

- هل تعتبر أنك بحفظك عدة كتب فى الكيمياء والأحياء والزراعة.. أو بوظيفتك فى مركز الأبحاث قد عرفت الحياة؟

- أنت الذى حرّمت علينا قراءة الكتب

- كنت أخاف على عقلك من الفساد

- ثم تعيرنى بضعف ثقافتى

- البيت كان مليئا بكتب الدين والفقه، تقرأ فيها كما تشاء

- أنا أعرف الله خير المعرفة

- معرفته تكفى عما سواه

- ولكنها لا تمنع من القراءة

- كنت تريد أن تقرأ فى الحب والكلام الفارغ

- خلاياى تنبض بالجنس منذ خمس عشرة سنة ولا أعرف له مخرجا

-... صفاقة

- أريد أن أجد متنفسا مشروعا... أمارس فيه إنسانيتى

- تمارس ماذا؟... هل الجنس هو إنسانيتك

- هو جزء من إنسانيتى، أريد أن أستقل.. أشعر بكيانى

- طفل يلعب بالألفاظ

- عندى سبعة وعشرون عاما

****

وذهب إلى كندا... ولم يعد ، يقال أنه يتقدم تقدما علميا ملحوظا.. وأنا؟ أنا مالى.. يكتب لى كل عدة شهور، تزوج من أجنبية.. وأولاده لا يعرفوننا... منكم لله.. أفسدتم عقولهم

يرسل صورهم أحيانا.. صورهم تفرح.. ولكن أى فرح وبيننا بحور ومحيطات، ذهب الفرح إلى غير رجعة، ولن يعود.

الولد مات بالنسبة لى.. ولا قوة إلا بالله.. أحيانا أفخر به فى المجالس وقلبى يتقطع من الداخل، أفخر بما لا أملك.. كله منكم

والبنت أيضا.. لم يعد لها فى حياتنا أثر، قد تزورنا أحيانا.. وياليتها لا تفعل، لا أملك من أمرها حلا ولا ربطا منذ تزوجت.. هل تريد أن تعرف أكثر؟

(5)

- زميلى يريد مقابلتك

- لماذا يا بنتى ؟

- لا أعرف

- ألم تسأليه؟

- خجلت

- إذن ... الأمر كما أظن

- أنت سيد العارفين

- أنا آخر من يعلم

- أنا لم أفعل شيئا

- لم نتمتع بخيرك

- أنا ابنتكم دائما

- خسارة تربيتى فيك

- أنا رهن إشارتك

- لعن الله يوم أن تركتك تكملين تعليمك

- ماذا...؟

- كنت تبقين بالمنزل تخدمين إخوتك أفضل

- غير معقول فى هذا الزمن

- كل شيء معقول أصبح غير معقول فى هذا الزمن

- الأمر أمرك

- لم يعد لى أمر ولا نهى، تطبخون الطبخة والأمر أمرى، حدثينى عنه

- هو أقدم منى بخمس سنوات.. على وشك أن يأخذ الدرجة الثالثة

- هكذا؟

- نعم

- أفكر.. على شرط

- أى شرط؟

- ألا تحبينه

- ألا ماذا؟

- ألا تحبينه.. لو أحببته فسيمسح بك الأرض، هكذا الرجال وأنا أعرفهم.. سيلعب بك الكرة.. ولن نأخذ منه حقاً ولا باطلا

****

كنا نعرف مصلحتهم أكثر من أنفسهم، كنا نخاف على مستقبلهم أن يضيع، وعلى أفكارهم أن تُشوه، وحتى على عواطفهم أن يساء استعمالها، وحين تأكدت أنها لا تحبه وافقت على الزواج، ولكنها للأسف أحبته بعد الزواج، أكل

عقلها ونسيتـْـنا..

كانت العلاقة طيبة فى الأول.. ولكنها لم تسمع النصح أبدا، كان لا بد أن تأخذ معهما خادمة من طرفنا نحن حتى لا تخرج أسرارنا لأهله. ولم تسمع

كانت أمها تدير لها شئون منزلها.. ثم لا يعجبها خدمتنا لها

كنت أنظـِّـم لهم ميزانيتهم بمالى من خدمة طويلة فى الحياة، يقبلون الفكرة على الورق، ويفعلون ما شاؤوا بعد ذلك

لم أعد شيئا بالنسبة لها.

لماذا أنجبتُها إذا؟..

هل كنت أعلـِّـمـها، وأسمنها، وأكبرها، حتى يأتى صاحب النصيب يلهفها منى جاهزة على السكين...؟

ماتت هى الأخرى.. تزورنا كلما تذكرت من باب الشفقة وأنا لا أقبل الشفقة.. ياليتها لا تعود تزورنا

****

وبقية الأولاد.. مثل سائر الأولاد

****

الوحيد الذى يشعر بنا.. وأشعر أنه يشعرنا بنا هو الصغير الذى تعرفه أنت، ذلك الصغير الذى جاءك من سنين يبحث عن معانى الألفاظ، نحن لا نناقشة فى شيء، ولكنه لا ينسانا أبدا.. يعطينا شيئا عميقا غريبا من الاهتمام والحنان.. ولكنى للأسف لا أشعر أنه يخصنا بهذا الشعور، إذن ما الفائدة؟ أحس أنه يعطى نفس الشئ لآخرين وآخرين، إذن ماذا اختص به أبويه، أحس أنه مجرد إنسان.. يحبنا مثلما يحب الناس.. وهو لا يكف عن حب الناس.. فماذا نحن فى حياته

- أنتم ناس

- نحن والداه..؟ مجرد ناس؟ نحن ربيناه بعرق جبيننا.. نحن حرمنا أنفسنا من كل شيء فى سبيلهم.. ثم يحبنا مثل كل الناس؟ ماذا فعل له الناس

- حبه للناس أنقذه من الضياع.. من الجنون

- تعنى... وحبنا له أورده الجنون

- أنا لا أعنى شيئا.. ولكنكم معذورون.. تربيتم بلا ناس بلا أمان لم يعطكم أحد حتى تعطوا، كنتم ملكا لهم وأردتم أن يكونوا ملكا لكم، عملتم كل ماعرفتم، أردتم أن يكون

أولادكم أحسن الناس وهذا طبيعى، ولكنه هو، أراد أن يكون الناس أحسن

- أحسن منا؟

- لا..، أحسن مما هم عليه الآن

- ولكن طول عمرنا نعطف على المساكين

- الشفقة جميلة.. والزكاة واجبة، ولكن الناس تحتاج للحب.. للناس، أن يعملوا.. أن يحبوا، ثم يعملون فى أمان فتنطلق عواطفهم ويصبح البشر بشرا بحق

- ماذ تقول؟

- آسف أعنى أن الحياة تصبح أرحب إذا شملت كل الناس

- يا سلام! تريد أن تهدم الأسرة.. ويعيش الناس فى شيوع

- أنا لا أريد شيئا.. إن الأسرة هى الوحدة الإنسانية الأولى فيها تترعرع العواطف الكريمة، فيها يجد الإنسان نفسه مع آخر، على أن يكون آخر، فيها ينضج الأطفال فى أمان، الإنسان حيوان طفولته طويلة، وهو يحتاج إلى أب وأم وبيت ملئ بالحنان، لينطلق فيما بعد، أما إذا كانت الأسرة هى غاية فى حد ذاتها، إذا أصبحت بديلا عن العالم، إذا انتهت اهتماماتها عند عتبة الشقة، أصبحت مقبرة للإنسان ونكسة لتطوره

قال الأب:

- لا أفهم!

قالت الأم:

- ولا أنا!

- قلت لهم:

- لقد عملتم ما عليكم، وأولادكم بخير، سيحققون أمانيكم ولكن بطريقة أخرى،

ربما يزرع ابنكم الذى فى كندا البحر،

ربما تكتشف ابنتكم الطبيبة علاجا للسرطان،

ربما يجد ابنكم الأصغر - صديقى- لغة جديدة نفهم بها الانسان فهما أفضل،

سوف يكملون الطريق كلٌّ بطريقته..

وكله بفضلكم

أنتم الذين أنجبتموهم فى هذه الدنيا.. وصاحبتموهم على الطريق حتى تفرقت الطرق، وإذا كنتم لم تفهموا.. فإنهم قد

فهموا.. لن ينسوا فضلكم.. وسيربون أولادهم أفضل.. إذا أكملوا الطريق الصحيح.

قالت الأم:

- ماعلينا، أولادهم سيعلمونهم معنى الأبناء، وربما انتقموا لنا منهم

- على كل حال، إذا فشلوا هم أيضا فى إطلاق سراحهم بدورهم دفعوا الثمن

- ولكن الآن... حالة زوجى يا دكتور.. هل نسيت لماذا جئنا إليك؟

قلت:

- يأخذ هذا الدواء ويعود إلى الصلاة، ولا ينسى أن الله يحب المؤمنين الصابرين، وأنه يسمح لنا بالرضا عنه، إذ يرضى عنا

قالت:

- أنت تقول هذا!!!

قلت:

- نعم .

الإربعـــــــاء 31-08-2011

1461-(أو) قبـــــل البدايــــــة قبـــــل النهايــــــة...

كتاب جديد (قديم)

عندما يتعرى الإنسان (11 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

(أو) قبل البداية

قبل النهاية...

قبل البداية

قال الفتى:

- ولكنى وجدت بعد هذه المسيرة الطويلة أن هذه الحكايات جميعا تريد أن تقول شيئا واحدا:

يولد الإنسان على الفطرة، ثم يسعى فى الحياة، يحاول، وهو لا يسأل "لماذا" ولا.. ثم "ماذا" وإذا سأل تلقى إجابات لا تغنى، بل ربما تزيد غموض الطريق، فيكف عن السؤال والتساؤل، ثم عن المحاولة، وينسى أو يتناسى، ويستمر هكذا فترة تطول أو تقصر ثم يصحو فجأة، وتبدأ المأساة، وتصبح حكاية، أو هو يستمر فى سباته فى ليل بلا نهاية... ويمضى بلا حكاية.

قال الحكيم:

- هو ذاك، أصبحت حكيما يا فتى، لكن إياك أن تسرع، صحيح أن مسيرة الحياة - فى أغلب الأحوال- واحدة مهما اختلفت

الصور، حين نبحث عن خدعة أو عدة خدع متتالية تشغلنا حتى نموت، وكأننا بذلك نتعجل الموت خوفاً من اكتشاف الحقيقة قبل أن ينتهى الأجل، كأننا نريد أن نموت قبل أن نموت، لكن الصحيح أيضا هو تعلمناه معا من هذه الرحلة سويا

قال الفتى:

- لكن قل لى : كيف نموت قبل أن نموت؟ هل هذا قرار نحن الذين نصدره؟

قال الحكيم:

- أنت تعرف أنى استعمل الألفاظ استعمالا خاصا، فالإرادة هنا خفية، والإنسان إذا لم يستطع أن يعيش.. فليس أمامه إلا أن يموت بشكل ما.

قال الفتى:

- يموت؟

قال الحكيم:

- هناك من يشنق نفسه بحبل.. ومن يشنق نفسه برباط عنق

- هناك من يغرق فى النيل.. ومن يغرق فى بحر الحقد والحسد

- هناك من يموت بالتسمم الغذائى ببكتريا السلمونيلا.. ومن يموت بالإفراط الغذائى والجنسى

هناك من يلتهم الأقراص المنومة حتى الموت..

وهناك من يلتهم التحف ويغوص فى طبقات السجاد حتى الموت..

وكلهم يسعون للهلاك بجد وتصميم.

قال الفتى:

- ولكن أغلبهم راضون

قال الحكيم: ...

- من أدراك؟

قال الفتى:

- الاستمرار

قال الحكيم:

- بصراحة، أنت تنبهنى على أن مجرد الاستمرار قد يكون فضيلة، الانتحار هو إنهاء الحياة إراديا بطريقة علنية، وهو يقضى على الحياة والإنسان معا، ولكن الحياة إياها موت سرى مثل النزيف الداخلى.

قال الفتى:

- أفليس هناك فرق بين الانتحار وهذه الحياة التى كشفتها بكل هذه التعرية؟

قال الحكيم:

بل أنا ضد الانتحار الفعلى أكثر لأن مجرد البقاء على هذه الأرض بأى صورة هو مكسب للحياة، من يدرى؟ أليس هذا هو ما أسميته "الاستمرار؟"!

قال الفتى:

- أى مكسب إذا كان الفرد حيا ميتا؟

قال الحكيم:

- هل ترجع فى كلامك وأنا أتعلّم منك، دعنى أعترف لك بدورى، فقد مرت على فترات كنت أتساءل فيها عن هؤلاء الأحياء الموتى "لماذا يعيشون"؟ وخاصة إذا أصروا على ألا يشوهوا حياتهم فحسب، بل أن يعوقوا المسيرة بوجه عام، ولكنى بعد فترة أصبحت أحترم مجرد وجودهم، لعل أحد ذريتهم يثور ويكمل الطريق كما رأيت.

قال الفتى:

- إذن فالكل يساهم بشكل ما

قال الحكيم:

- نعم نحن نحتاج للكم كما نحتاج للكيف

قال الفتى:

- كيف؟

قال الحكيم:

- لابد للحياة أن تستمر، وحتى تستمر لا بد أن تضاء البيوت بالليل، وأن تطبع الكتب، وأن تغطى جلودنا بالأقمشة الصوفية فى البرد، وأن نأكل وأن تصحّ أجسادنا، فلا شك أن الانسان الآلة يقوم بدور لا غنى عنه وهو يهيىء الفرصة للانسان الانسان أن يجد ذاته الجديدة ويصنع غده.

قال الفتى:

- فهى تفرقة أو عنصرية

قال الحكيم:

- أبدا. فالفرصة ستكون واحدة أمام الجميع بالعدل، وعلى كل فرد بعد ذلك أن يختار طريقه، فالذى يرضى "بالميكنة" ليتجنب آلام الولادة من جديد يصبح آلة عظيمة

تخدم مجرد البقاء، والذى يقبل الألم ويمارس الحب والفضيلة، يسلك سبيل التطور ويعيش السعادة الحقيقية.

قال الفتى:

- ولكن الذين تسميهم الإنسان الآلة ينعمون بأهدافهم ويفرحون بها لذاتها... فلماذا نوقظهم

قال الحكيم:

- أن يجد هذا الانسان شيئا يشغله حتى يأتى أجله، فهذه نعمة جزيلة، حتى قيل أن هذه الأهداف اللامعة التى عرتها تجارب المرض هكذا، وبرغم زيفها، قد تكون أعظم من الأقراص المهدئة.

قال الفتى:

- فلماذا نوقظهم ونهاجم أهدافهم وننتقص من شأنها، وأنت لا تتردد فى استعمال الكيمياء للتهدئة، فى حين تعترف أن هذه المهدئات الزائفة هى الافضل.

قال الحكيم:

- إننا نستعمل المهدئات لتنظيم جرعة الطاقة المفاجئة، أو للحيلولة دون سحبنا إلى الوراء بنفس الطاقة إذا توجهت إلى النكوص، وعلى ذلك، فينبغى أن يكون استعمال المهدئات بجرعات متغيرة حسب الغرض من استعمالها فى كل مرحلة، أما المهدئات الطبيعية الزائفة فى نفس الوقت، فأن الشخص العادى يضبط جرعتها أيضا بتلقائية فريدة، فهى تساعده على أن يهرب من رؤية الحقيقة بجرعات متزايدة أكثر من قدرته على استيعابها، وكلما زاد توتره وقلقه التهم تحفه من التحف، أو تكالب على منصب أفخم، أو أطلق شره على غيره، حتى يهدأ، ولكن - كما تعلم - فإن الإفراط فى كل ذلك ينتج عنه إدمان الزيف، وبناء جدار من التبلد الواحد تلو الآخر، وهذا هو الموت الذى عنيته فى بداية الكلام.

قال الفتى:

- أهكذا قرب النهاية تزينه لى وكأنه موت لذيذ وله فوائد أيضا.. فلماذا كان كل هذا المشوار، ولماذا نوقظهم منه أصلا ؟

قال الحكيم:

- إذا استسلمنا جميعا لهذه اللذه.. ورضينا بهذه المرحلة كنهاية.. فإن الانسان يكون قد ارتضى لجنسه التوقف عند ما نعشيه من شقاء وجشع وضياع فى دنيا الحقد والتنافس، وهذا ضد كل الطبيعة كما خلقها الله.. وضد الأمل.. وضد الغد وضد كل تاريخ التطور.

قال الفتى:

- ولكنك تقول إن التطور حتمى لا محالة.

قال الحكيم:

- رغم أن التطور حتمى إلا أن التدهور محتمل لفترات قد تطول، وكلما اتسعت دائرة اليقظة، دنت فرصة الوصول إلى حياة أفضل، ومن ثم فرصة خلق نوع من البشر أحسن.

قال الفتى:

- نوع من البشر أحسن؟

قال الحكيم:

- ولم لا؟

قال الفتى:

- فلنترك الناس فى سباتهم، ونساعد من يستيقظ بمحض الصدفة

قال الحكيم:

- الصدفة؟! ربما، لكننا حتى لو تركنا الأحياء الموتى فى حالهم، فهم لن يتركوا الباقين فى حالهم، إن التهام التحف والتفاخر بالمظهر والتملك المستعر يتم على حساب آخرين من الذين يمكن أن يكونوا هم أقرب إلى مشروع الانسان الجديد، فلماذا نضحى بهم فى سبيل هؤلاء الجشعين الذين يغطون فى نومهم بعد أكلة هنية من لحم الآخرين، ألا ترى مضاعفات هذا التكالب الوحشى من ضحايا تداس بالأقدام وتموت من الجوع وتهلك بالحروب، وياليت هذا الوحش الآدمى الآلة المدمرة يكسب هو شخصيا مما يفعل شيئا، إن واقع الحال يقول إنه ينحط بذلك إلى مرتبة أدنى من الحيوانية رغم الشعور باللذة والارتواء.. فلماذا لا نوقظه مهما تألم - ليرحم نفسه ونرحم الآخرين منه.

قال الفتى:

- نحن الذين نوقظه، هل وظيفة الطب أن يحيى هؤلاء الموتى، فيأتون إليك ممزقين مشتتين، ويا ترى؟

قال الحكيم:

- لا طبعا، الطب يحوّل مسار من استيقظ وعجز عن أن يكمل وحده، أما الإبداع، والفن، والتشكيل، فهى الوسائل الطبيعية لإحياء الموتى، والتلويح فالحفز إلى استكمال مسيرة التطور

قال الفتى:

- كيف بالله عليك

قال الحكيم:

- ما هذا؟ بعد كل ما قلنا يا رجل، هذا هو صراع

التدهور والتطور، بمسئوليتك ومسئوليتى، أنت يابنى هو كل الناس، والناس هم أنت، والمعرفة الحقيقية هى رؤية كل الأشياء فى نسق واحد متصل، وما ينطبق على الفلسفة يصلح للطب، وما يسرى فى الطب ينطبق على ما وراء الطبيعة مهما اختلفت اللغة وتنوعت الأساليب، هذه هى مسيرة الحياه

قال الفتى:

- وهل لا بد للانسان أن ينكسر حتى يتطور؟

قال الحكيم:

- فى يقينى أن تاريخ التطور الطويل يقول أن النوع إذ ينتقل إلى نوع أرقى يتنازل عن صفات قديمة ويكتسب صفات جديدة، وأثناء هذه العملية التى تتم عبر ملايين من السنين، تستمر تلك المجموعة التى قاومت التطور ورفضت الانتقال إلى أعلى كما هى، ولا تنس أن القردة مازالت على الأرض، وأن هذا الصنف الحالى منها ليس هو جدنا مباشرة وإن كنا غالبا نلتقى معه فى جد بعيد، أما المجموعة الأخرى فهى تتحدى الظروف القديمة، ثم تخلق ظروفا جديدة أفضل ثم تتكيف فى صورتها الجديدة مع الأفضل، ثم يصبح الجديد قديما وتتكرر القصة، وأثناء هذه المحاولات يبلغ الألم مبلغا يعرض المحاولة للاجهاض، الذى أحد صوره المآل السلبى لخبرة المرض، بل إنه قد يعرض الجنس كله للهلاك.

قال الفتى:

- على ذلك فإن انكسار الانسان فى هذه المحاولة خطير ومخيف.

قال الحكيم:

- يبدو أن الانسان هو الكائن الوحيد - فيما نعرف - الذى يتطور وهو يعرف أنه يفعل ذلك، بل إنى أكاد أقول أنه الكائن الوحيد الذى يتطور بإرادته الواعية، ولو جزئيا، وليس فقط بقانون الحياة الطبيعة، إلا أن تكون إرادته الواعية هى بعض قانون الحياة الطبيعية.. وأظنها كذلك.

قال الفتى:

- ولكن ألا يوجد ما يساعده على نفسه فى هذه المعركة

قال الحكيم:

- أن تتسع دائرة اليقظة، فلا يترك الانسان الثائر وحيدا

قال الفتى:

- إذن... فلتتسع دائرة اليقظة.. ولتعلن الحقيقة.. وليعش الناس الألم كله.. ليلدوا أنفسهم من جديد، وليستمر من يستطيع.. وليتضاعف عدد الشباب والأطفال من كل الأعمار،

ولـيمض الـكهول من كل الأعمار أيضا مغمضى الـعينين ولـيغطوا فى نـومهم حتى يموتـوا.. ولـيكن ما يـكون

قـال الحيكم:

- مـا هذا؟ مـا هذا؟ واحدة واحدة، إيـاك والـتعميم أو الاستعجال، الـوقت من أهم مـا يـنبغى أن نحرص على أن يـأخذ حقـه، إيـاك أن تحرم أحد من الـفرصة بحكم فـوقـى هكذا

قـال الـفتى:

- ولـكن لا بـد من وضوح الـبديـل.. لـقـد لـوّحت لى بخيـوط الـفجر فى كل مـرة، ثم تـركـتنى أنـتظر طلـوع الـشمس فى كل مـرة

قـال الحكيم:

- ولـكن الـشمس تـطلع دائمـا بـعد نـور الـفجر

قـال الـفتى:

- فـحدثـنى عن ذلـك... ولـيملأ الـنور والـدفء الحيـاة

قـال الحكيم:

- فـاسمع بـنى هذه الأغنـية لـلحيـاة

الإربعــــــاء 07-09-2011

1468- أغنيـــــــة للحيـــــــاة

كتاب جديد (قديم)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

أغنية للحياة

هى مدرسة تعمل فى رياض الأطفال، جاءتنى بعد غيبة طويلة، رغم أن صورتها كانت تخايلنى فى كل لحظة، فتاة فى أوج شبابها ترقص بعينيها إذ ينبعث منهما بريق يجذب ويطمئن، وتلمع قسماتها بنور هادىء مخترق.

فرحت برؤيتها فرحة هائلة ظهرت آثارها على قفزتى من مقعدى وطريقتى فى السلام

****

قلت لها:

- أين أنت؟

قالت:

- فى كل مكان

- عشر سنوات أم عشرون؟

- ولكنى كنت دائما معك

- أحيانا كنت أشك أنك اختفيت إلى الأبد
- علمتـَــنى ألا نيأس
- كانت المقاومة رهيبة والظلام حالك
- ولكنى دائما هناك - هنا- هنالك...،

****

سألتها:

- ما أخبارك؟

قالت:

- كل خير
- كل هذه السنوات! لم تغيرك الأيام
- أنا لا أكبر بمرور الزمن
- إذن... "حقيقة" ما تصورت
- أنا الحقيقة مجسمة
- ولكنك أقرب إلى الخيال
- بل قدمى على الأرض
- لم تنس تاريخك
- وأتطلع للمستقبل

****

- ما تصنعين هذه الأيام؟
- أعمل وأحب
- ما أروع ذلك!... وزوجك؟
- معى على الطريق
- والأولاد؟ كانوا أربعة على ما أذكر
- أصبحوا ملايين
- أهى ألغاز؟
- بل الحقيقة..!! هل نسيت؟

****

- وماذا عن جاركم الشاب.. الذى كاد يغرق فى بحر الألفاظ
- وجد لها معان جديدة..، وانطلق يكتب الشعر بالمدفع

- وزوج خالـتك "المحترم"؟

- أحيل إلى المعاش.. وذهب إلى قريته يعلـِّم الفلاحين القراءة والكتابة

- الدنيا تغيرت؟

- هذا هو قانونها

- وأولاد عمك؟

- خرجوا من المعتقل

- وخالك - صاحب المصنع؟

- افتتح معهدا لراسبى الثانوية العامة، يتعلمون فيه مهنة جديدة

- مهنة جديدة؟

- صناعة حديثة

- ماذا يصنعون؟

- يصنعون ألواحاً ضخمة تحتفظ بالدفء الحيوى، يبنون منها بيوتا كاملة فى ساعات، فيها تتماوج نبضات الناس فى دفع مضطرد، ويتخلق الحنان البديع

- الدفء نعم، ولكن كيف يتخلق الحنان؟

- يعيدون الثقة للرجال فتتحرر النساء، فيطمئن الرجال، وتتعلم البنات الأمومة، فيكبر الأطفال بشراً بحق

- .....

- .....

- حدث..! أخيرا..!

- كان لا بد أن يحدث

****

- ومشاكلك مع "أبلة" الناظرة؟

- ماتت فى عنفوانها.. كانت تريد أن تعمل شيئا

- يرحمها الله

- .. والله؟

- يملأ وجدانى

- مازلت مؤمنة

- حين يتحرر الإنسان، ينبض كيانه مع الوجود كله، ويخفق وجدانه مع أصله، وتتردد فى أرجاء الكون أنغام الصحة العذبة كدحا إليه

- إيمانك راسخ
- ويزيد كل يوم

****

- وأخبارك مع العِلم؟
- أقرأ كل شئ حى
- وهل هناك بين الكتب موتى
- الصفحات مليئة بالتوابيت والموميات
- فكيف حال الأحياء؟
- سخروا الكيمياء لخدمة التطور
- كانت اقراصاً تقمع الإنطلاق وتعيد الثائر إلى حظيرة المجموع بالضربة القاضية
- أصبحت تنظم الطاقة فقط، ثم يولد الإنسان من جديد
- ولادة جديدة! كيف والخلايا ثابتة بالوراثة؟
- يعاد تشكيلها وتنظيمها لتنطلق معاً تؤكد ما هو إنسان ينمو أبدا
- بالكيمياء أيضا؟
- بالكيمياء والحب والطبيعة
- لا أكاد أصدق
- هل سمعت آخر الأخبار؟
- خيرا؟
- زادت الحواس عددا
- الحواس طول عمرها خمسة
- ألم تعلم أنها زادت على وجه التأكيد
- أهو ارتفاع فى "البورصة"
- صدقنى... العلم الحقيقى الحديث يقول أن الحواس زادت عددا، وأن كل التأخر والاضطرابات اللذين كانا... لم يكونا إلا نتيجة لنقص الحواس
- وسيطرة العقل الحسابى؟... والألفاظ؟
- أصبحت مجرد وسائل للحواس الجديدة
- أكاد لا أفهم... ولكن وجهكِ ينطق بالصدق
- المسألة فى غاية الوضوح.. والبساطة

- أصبحتِ مطلعة أكثر منى.. وما أنت إلا مدرسة فى روضة أطفال

- نور المعرفة يشرق على الجميع

- وصراع العلم مع الإيمان؟

- كان صراعا صوريا، لم تعد ثمة وصاية لأيهما على الآخر

- وما السبب فيما كان من حشر هذا فى ذاك؟

- رجال الطائفتين

- كلهم أفاضل

- كانوا سجناء الحواس الخمسة، والمهزوز منهم حشر هذا فى ذاك

- أصبحتِ عالمة ومؤمنة

- ليس هناك فرق

- والطقوس التى أرهقتك وحيرتك

- التزام واجب، ومفيد

****

- ومشاكل الميراث.. هل مازالت المحكمة تؤجل القضية؟

- عندى ما يكفينى

- ماذا تعنين؟

- عندى ما يكفينى

- أكاد لا أصدق عينى

- عائدى من عملى يكفينى وزيادة

- أكاد لا أصدق

- هى الحقيقة

- أهى الجنة؟

- ربما.. ولكن لا بد للوصول إليها أن تمشى على الصراط

- أهى الصحة؟

- سمها ما تشاء

- ولكن السنين تمضى

- الأطفال يولدون كل يوم

- ألا تخشين الشيخوخة؟

- قلت لك أنا لا أكبر بالزمن، هل نسيت؟

- والموت.

- ولا أموت.

- اسمعى.. إلا هذا.. كل حى سيموت

- قد يتوقف القلب عن الخفقان وتتوقف الخلايا عن التمثيل الغذائى، ولكن ما أنا فيه يقول أنى لا يمكن أن أموت.

- وكيف جاءك كل هذا اليقين؟

- لأن الموت هو ولادة فى نفس الوقت

- من أين لك كل هذه الثقة؟

- من الماضى نحكم على المستقبل

- كل إنسان يتغير

- أنا أيضا أتغير، أزداد ثقة وإنتاجا وحبا

- أهو الخلود؟

- لا.. الخلود الساكن وجه آخر للموت الخامد

- وماذا عن الغد؟

- دائما أرحب وأغنى

- مهما تكاثف الظلام!

- مهما طال الأمد

- أملك لا ينتهى، فيم تأملين الآن؟

- أن يشعر كل الناس بما أنا فيه أن يصدقونى، أن يعيشوا معنا: زوجى وأولادى الذين لا حصر لهم؟

- ربما لك وضع خاص.. ربما أنت هكذا بسبب طيبتك

- الطيبة وحدها لا تكفى..

- إذن ما الذى يكفى ؟

- القوة مع الطيبة.. الضعف يشوه كل خير ويعوق الانطلاق

- أكاد لا أصدق

- ولكنك أنت الذى صنعتنى هكذا

- أنا؟ فاقت التلميذة أستاذها، قسوة الزيف كادت تنسينى

- لا تصدق، ليس أنت أنت، الزيف فى كل مكان.. ولكن الحق والخير أيضا فى كل مكان

- ألا تخافين؟

- أنا أتقن الجودو.. وأتمرن عليه مرتين فى الأسبوع

- المسألة صعبة

- أنا لا أيأس

- أبداً؟

- أبداً

- وهل تجدين من يسمع لك؟

- أكثر ممن عندك.. مئات وألوف وملايين يتزايدون باستمرار

- الناس بخير رغم كل هذا؟

- طبعا

- فرط التفاؤل يخيفنى

- التفاؤل لا يمنع الحذر، وهو مسئولية لا تسمح إلا بتحقيق أهدافها، وإلا فهو ألعن من المخدرات

- هل أنت متأكدة أن هذا واقع فعلا.. أم أنها لحظات وتنتهى؟

- ماذا جرى لك؟ أنا هكذا منذ كنت

- ولكن أين تركتنِى كل هذا الزمن

- كُنت معك فى كل مكان..

- كنت ألمحك فى الطريق وأنا أسير أحيانا، ولكنك كنت تختفين بسرعة مذهلة قبل أن ألحقك

- بل إن زحمة الطريق كانت تشكك فى وجودى

- العمارات شاهقة والمواصلات صعبة، وحوادث المرور فى زيادة، والعربات تسحق الانسان فى كل الشوارع والحارات، ووجه الطبيعة يختفى فى سحابات الدخان والغبار

- ولكن الزهور ما زالت تتفتح فى كل مكان

- حقا؟!

- والطيور تغنى

- حقا؟!

- والإنسان كذلك

- الانسان يغنى؟!

- فى كل مكان.. وغناؤه يتردد فى أرجاء الكون
- وسط حطام الحوادث وبين أشلاء الموتى؟
- فى كل مكان
- لمن يغنى الانسان!
- للحياة

وذهبْت

ولم تذهبْ.

ملحـــــــــق ردود بريـــــــد الجمعـــــــــــة

يوم إبداعى الشخصى: كتاب جديد (قديم)

"عندما يتعرى الإنسان" (1 من 12)

أ. نادية حامد

أرى كتابات حضرتك سابقة الزمن والأحداث بكثير على سبيل المثال " كل جيل حين يرفض ما هو كائن قبل أن يجد بديلا يصلح" ومقارنته بما هو جارى من يوم 25 يناير وحتى وقتنا هذا.

د. يحيى:

أنا نفسى دهشت من هذا الكتاب الذى لم أحبه أبدا إلا هذه الأيام وأنا أعيد نشره

ياه، لقد كتبته سنة 1969/1968 برغم تاريخ نشره سنة 1972

تابعينا يا نادية ربنا يخليكى.

د. مدحت منصور

مساء الخير

مقدمة الجزء الأول جميلة قوي و يبدو أني سأتابع الكتاب بشغف و ربنا معانا.

أشكر حضرتك جدا جدا.

د. يحيى:

العفو

البركة فيكم.

*****

يوم إبداعى الشخصى: كتاب جديد (قديم)

"عندما يتعرى الإنسان" (1 من 12)

مع اقتراب انتهاء السنة الرابعة لصدور هذه اليومية، يبدو أن النشرة سوف توظف أكثر فأكثر لإرغامى لتحديث ما سبق كتابته، فقد اكتشفت أنه هو هو، أو لعلى أنا الذى هو هو.

8 آخرين يعجبهم هذا.

د. يحيى:

أفرح بهذا التشجيع للصدق والتلقائية.

كتاب جديد (قديم)"عندما يتعرى الإنسان" (4 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

الفصل الثالث: فى القفص

د. مروان الجندى

المقتطف: طبيب يترك مهنة الطب ليكون إنسانا.. هل هذه وظيفة؟

حين يفتقر الناس لإنسان يفهم.. من خلال مشاركتهم مأساتهم.. لا لمجرد أنه يحفظ الكتب، تصبح – للأسف– صفة الإنسان مهنة.

ما أعب كل هذا.. ومن هو الإنسان؟

هو الشخص الذى يستطيع أن يمنح الحب الدائم الدافىء.. ويستقبل المشاعر بصدق وأمانة حتى يذوب الجليد الذى نعيش فيه، برغم كل شىء.

التعليق: أين يمكن أن نجد هذا الإنسان؟

ربما يكون هناك عدة أشخاص يجتمعون معا فى شخص واحد للوصول إلى الكمال وهذا يعنى ضرورة وجودهم جميعا حولى وهذا صعب قالقضبان التى تحمينى تمنعنى من الاقتراب من هؤلاء جميعا بدرجة كبيرة فأبتعد، فأشعر بالاحتياج فاقترب ثم أبتعد مرة أخرى وهكذا...

د. يحيى:

أعتقد يا مروان أن هذا هو الحل

وهذا هو محور فكرة العلاج الجمعى

وهذا هو وصلنى من أننا شعوبا وقبائل نتعارف

وهذه هى العلاقة الحقيقية:

نتكامل، بأن نتقارب لنتابعد، لنتقارب لنتابعد، ثم نتباعد لنتقارب على شرط ألا تكون المسافة ثابتة.

د. ميلاد خليفة

مقتطفات:

- إذن فقد قرر أن يكتسب احترام الناس أولا، ليحترم نفسه كذلك، وكأنه أراد الاثنين معا.
- وربما هذه هى المأساة أن يعيش الناس مثل الناس.
- ضاع عمرى دون أن أشعر، وهأنذا سريع النجاح واليقظة معا، ربما استيقظت لو أنى فشلت فى أول الطريق... وعرفت معنى حقيقيا لكيانى.
- ولكن هيهات، بينى وبين نفسى يقف الناس حائلا بينى وبين الألم؟!!! إن الألم هو علامة وجودى.. أن ما بقى لى هو الألم، ولكنه ألم من نوع خاص.. إنه مأساة الحياة، إنه ثمن الخداع.
- ولكنى حاولت أن أجد أحدا فوجدت حياتى ليس بها أحد، وجدت الناس أشياء استعملها وتستعملنى.
- ولكن الآخرين هم الذين ضيعونى، لأنى حسبت حسابهم أكثر مما حسبت حساب نفسى
- أنت بغيرك وغيرك بك.
- إنما يكون الإنسان إنسانا إذا مارس إنسانيته مع إنسان آخر.
- حين يزداد عدد "الناس الناس" ويقل عدد "الناس الأشياء" سوف تزيد الفرص للجميع.
- لكى يكون الإنسان إنسانا لابد أن يكون وحدة قائمة مستقلة، ولكنها تأخذ وتعطى بلا خوف ولا قهر، حتى يحس بحرية الاختيار النابع من كونه هو ذاته.

التعليق: ما وصل لا يمكن كتابته حقيقة، هو من أروع ما أقرأ، الكلام بيعملى دماغ أرجو أن تكتمل.

د. يحيى:

شكرا

تعليقك يا ميلاد أعطى قيمة لما كتبت سالفا، بعد أن عجبت من علاقتى الفاترة به، وقد فهمت منه ومن تعليقات البريد اليوم لماذا أحب الناس هذا العمل أكثر منى.

كتاب جديد (قديم)"عندما يتعرى الإنسان" (2 من 12)

الفصل الثانى: كرسى عجل

د.مدحت منصور

اللقطة الأولى

عيل عنده أربع سنين، راكب على الكرسى الصغير فى الحنطور وعلى الكرسى الكبير أمه زيزى ومعاها اتنين ستات محترمين راجعين من شغلهم

دار الحديث كالتالى:

الخ ....

الخ ....

د. يحيى:

عذرا يا مدحت

للمرة الثانية (وربما أكثر) أحجب إبداعك المطول وأعدك فى أن ينزل فى الموقع فى ملف مازال فارغا هو ملف "ضيوف الموقع"،

فعذرا للحجب،

وعذرا للتأخير فى الوفاء بالوعد.

د. ايمن الحداد

دائما ما اتوقع نفسى ذلك الحكيم فى المستقبل ، واشد ما اخشاه ان يصبح التوقع حقيقة، ولا ادرى الطريق ، ولم اصل الى اجابة ترويني .. هل حلم الاختلاف عن حياة الاباء والاجداد ، وهم لن نفلح فى تحقيقه ، وفى النهاية سنعيش مثلما يعيش الجميع.. اهى عيشة والسلام ..وهل من حقى ان احلم بعيشة بمافهيم مختلفة عن الاخرين بغض النظر عن الاخرة وبغض النظر عن قولهم (لبيك ان العيش عيش الاخرة) .. اشكالية ولكنها تحدد مفاهيم حياتنا

ويأتى السؤال الاهم : هل هذا الاحساس طبيعى ينبغى ان يشعر به الجميع ام انه نشاز داخل الحياة.

د. يحيى:

طبعا من حقك أن تحلم كما تشاء، لكن لا الحلم يكفى، ولا الاختلاف هو هدف فى حد ذاته.

كثيرا يا أيمن ما أشفق على هؤلاء الأوصياء على عقولنا من عذاب يوم شديد،

إنهم يحتقرون ما خلقنا الله به احتقارا شديدا، وسوف يحاسبهم الله حسابا عسيرا لأن عقولنا هى من صنعه فهى ملكنا وملكه، وأيش أدْخلهم هم فى الموضوع.

عندما يتعرى الإنسان - الفصل الثالث 4-12 (فى القفص)

د.مدحت منصور

المقتطف: "ولابد لتحقيق ذلك أن يتخلص من حب ذليل ومن حب مسيطر"

التعليق: مش عارف ليه كلمة ذليل عائدة على الحب و كأنى أحسست إن الذل رايح جاى واحد بيتذل وواحد مذلول لكونه يذل ولا يستطيع أن يغير ذلك فهو فى النهاية مذلول أيضا و حب مسيطر فالعلاقة هى المسيطرة واحد تحت السيطرة و المسيطر أيضا تحت سيطرة العلاقة لكونه لا يستطيع نمطا آخر.

د. يحيى:

لا تعليق على نص مقتطف بعيدٍ عن سياقه

د.مدحت منصور

المقتطف: "وأن يحافظ على حب قوى مستمر يعطى بلا خوف ويأخذ بلا حذر"

التعليق: كأن العلاقة هنا رايح جاى أيضا لو أعطيت بخوف فلن يصل العطاء و لو أخذت بحذر فلن يصلك الأخذ و العكس بالعكس, ولكن أشعر هنا أن الأمر صعب تعطى بلا خوف فتجد الطرف الآخر يأخذ بحذر ثم يتملكك أنت الخوف فحين يعطيك الطرف الآخر أكيد ستكون خائفا و من ثم محاذرا فلن يصلك ما تأخذ و أعتقد أن الأمر يحتاج وقت حتى يتخلى كل طرف عن كلا من الحذر و الخوف.

د. يحيى:

ومع ذلك، وربما لهذه المباشرة لم أحب هذا العمل كثيرا كما أحبه الناس.

د.مدحت منصور

هذا العمل يتجلى فيه الإبداع مليا و أنا أقرأه أشعر بكاتبه يتفكك إلى ثلاثة أجزاء هم الحكيم و الغلام و صاحب الأزمة لذا أتفكك أنا معه و أتوحد مع كل منهم و بسهولة ثم أتجمع مرة أخرى و قد ترك العمل ما ترك و أنصح (يمكن تقول و انت فى موقع نصح يا ابن الكلب انت؟) أنصح بأن يكتب فى الروشتة لكل مريض وصل إلى مرحلة التعافي

د. يحيى:

طبعا وصلنى مغزى نصيحتك لكنك تعلم أنه حتى لو تعافى المريض فهو لا يحتاج إلى هذه المباشرة بالنصح

هو سيلتقط ما يريد ليكمل بما يستطيع.

د.مدحت منصور

المقتطف : "ولابد لتحقيق ذلك أن يتخلص من حب ذليل ومن حب مسيطر "فجأة رأيت أن الحب الذليل أيضا هو حب طرف أضعف لطرف أقوى و الحب المسيطر هو حب طرف أقوى لطرف أضعف و لكن ليس فى كل الأحوال يعنى فى حالة ما يكون الطرف الأقوى يمارس القهر و فى حالة أن يقبل الطرف الأضعف بالذل

د. يحيى:

لك ما رأيته

وهو ليس بعيدا

*****

كتاب جديد (قديم) عندما يتعرى الإنسان (3 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

اعتذار: مرة أخرى لنفس الظروف الشخصية (العلمية!! أيضا) لم أستطع مواصلة كتاب "الأساس فى الطب النفسى" كما ذكرت أمس.

Osama Mkled و Fati_Mohamedi و Lobna_Afifi

و13 آخرين يعجبهم هذا.

د. يحيى:

شكرا للسماح

Nagla Mohamed

دكتور يحيى ...ندعوك لكتابة دعوة يومية او لنقول حكمة يومية حتى يستفيد الناس بعلمكم ولا نثقل عليك بالردود على رسائلنا الكثيرة..تحياتى

د. يحيى:

لا ياعم

ألا يكفى ما يظهر كل سبت

بل كل يوم

ربنا يخليك

*****

كتاب جديد (قديم): عندما يتعرى الإنسان (4 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

الفصل الثالث: فى القفص

Zainab_Elfakharany

حين يفتقر الناس لانسان يفهم مأساتهم يصبح للاسف صفة الانسان مهنه

احلى وصف فعلا للمهنه بارك الله فيك يا دكتور

د. يحيى:

ياليتنا نكون عند مسئولية هذه المهنة الصعبة

Azhar Hussin

التقاليد أسوأ سجن فعلا

د. يحيى:

أعتقد أن هناك ما هو أسوأ وأسوأ

كل سجن هو أسوأ من سجن آخر ما دمنا داخله.

أ.هالة القمر متولى

وصلنى ان هو سجن نفسه فى الماضى ونتائجه ونسى الحاضر ومسؤليته عنه حتى انه توقف مكانه ورفض ان يبحث عن بدائل لما افتقده بان يحاول ان يعطيه ثم يحصل عليه من الناس

د. يحيى:

أوافقك بدرجة ما

وهنا تتجلى فائدة مبدأ "أنا – أنت" "هنا والآن"،

الذى هو أساس العلاج الجمعى.

Amel El Maraghy

ياااااااااه على تعبير ان الانسان يشعر بالبروده عندما يقترب الدفء منه

د. يحيى:

عندك حق، شكرا

*****

كتاب جديد (قديم): عندما يتعرى الإنسان (4 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

الفصل الثالث: فى القفص

د. ميلاد خليفة

التعليق: بداية أود أن أعتذر عن تأخرى ولكن ذلك كان مقصودا لأننى خفت أن أقرأ هذا الكتاب الجديد (القديم) دون أن يأخذ حقه من التركيز والتأمل المطلوب أثناء قراءته.. وكما علقت الأسبوع الماضى بأن ما وصل لا يمكن كتابته واسع لى مرة أخرى أن أذكر بعض المقتطفات التى وجدت لها صدى عميقا بداخلى، لذا فإنى أكتبها لعلى أظل متذكرها وأذكر منها:

-إذا كانت الأهداف المطلقة لا تلزمنا بضرورة تحقيقها فى صورتها المثالية فورا.. يكون السير تجاهها هو هو تحقيقها ولو لم نصل إليها.. لا يهم الوصول بقدر ما يهم السير فى الطريق مجتهدين طول الوقت.

إن كل إنسان يعيش داخل قفص وجد نفسه فيه.. وراء قضبان يعتقد أنها تحميه.. وهى فى الحقيقة تمتعه وتفيده وتعوقه.

هل تعلم يا سيدى أنى كنت أتمتع بالسخط لأنه كان يشعرنى بكيانى "المسخوط عليه" .. ولكن ذلك الاهمال.. هو الموت البارد ذاته.

-إن الذى يشعرك بالبرودة أكثر هو أن يقترب منك الدفء ولكن لا يصل إليك

- العطاء لا يكون عطاء إلا إذا خرج من نفس إنسان لآخر تلقائي، برضى، باختيار، يحب، نعم يحب.. هذا هو الموضوع "العطاء.... والأخذ.. بحب"

- أن أعيش مشاعرك وأنت معى.. أن أنبض مع ألفاظك.. أن أصدقك- هذا هو الطريق إلى فهم مأساتك.

- ولكن هذه هى مهنتى الأصلية أن أكون إنسانا بالقرب من إنسان يحتاجنى.

- ومن هو الإنسان؟ هو الشخص الذى يستطيع أن يمنح الحب الدائم الدافىء.. ويستقبل المشاعر بصدق وأمانة حتى يذوب الجليد الذى تعيش منه، برغم كل شىء

-إن أحدا لن يعطيك ذاتك.... إنك أنت الذى ستخلقها من جديد....

د. يحيى:

شكرا يا ميلاد

كتاب جديد (قديم): عندما يتعرى الإنسان (5 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

الشعلة والحريق

Bonheur Mohamed

الله يبارك فيك يادكتور يحيي روعة، بس مش اى حد حايفهمها

د. يحيى:

لا أظن، فهى كتابة باكرة مباشرة بسيطة

Heba Salah

ربنا يكرمك يا دكتور ..الكلام حلووووو قووووي...

د. يحيى:

الله يحفظك

Asmaa Ahmed

ربنا يبارك لك يادكتور

د. يحيى:

ويبارك لك

*****

كتاب جديد (قديم): عندما يتعرى الإنسان (5 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

الشعلة والحريق

د. ميلاد خليفة

مازلت أستمتع بنشرات هذا الكتاب، إن ما أقرأه هو بمثابة عملية تقشير لأشياء كثيرة بداخلى، وتجديد للذهن، وحركة للحياة الراكده بداخلى ولست أملك من الألفاظ ما يستطع أن يعبر عما يصل بداخلى، بل اسمح لى أن أفعل مثلما فعلت سابقا بذكر بعض المقتطفات التى أعجبتنى دون تعليق منى والحق أننى كنت أريد أن أجعل المقال كله هو المقتطف لروعته

مقتطفات

– الموت ينتهى إلى رماد نقى جاف – أما الجنون فهو موت عفن كريه

- والفطرة هى الجمال والسهولة والحرية والحق والقوة والحب فى آن.

- اذن- فأنت لا تعرف معنى كلمة "مسئول" لو عرفتها ما وصفت نفسك بها.

- احتفظت بالإيمان وكفرت بالكهنوت - حافظت على صلة الانسان بأصل الوجود ورفضت أوامر القيادات الفارغة الجوفاء

- كيف يصبح الدين النابض بالحب والتسامح هو هو طاقة الحقد والقسوة والترقب؟ لماذا يفعل الناس بأنفسهم وبمعتقداتهم هكذا؟

- ألا نيئسك فى حياتك وآمالك حين نفشل ونستسلم؟

ان ما حافظ على ايمانى هذا هو قدرة الانسان الخارقه أن يجمع شتات نفسه رغم كل شئ وبعد كل شئ.

- المرض يصبح نعمة حين تخرج منه أصلب عودا، واقدر على الاستمرار

- بل بمجرد أن ترفض الهزيمة والاستسلام فإنك تكون قد أديت دورك لتسلم الشعلة لمن بعدك ليخطو هو أيضا نحو الغد، وهكذا

- الكيمياء تهدئ الألم وتحافظ على قوة الجمره وان خفت بريقه مؤقتا، ثم تستمر

- والانسان يلجأ إلى السيطره والقوة وإلى العلم وإلى كل ما يغريه بالتفوق ولكنه لا يصل إلى جوهر الاشياء إلا بالصدق والسعى والكدح إلى الحق.

د. يحيى:

أشكرك يا ميلاد

لم أكن أعرف أن كل هذا يمكن أن يأتى فى نص روائى، أو يبدو ذلك

أعتقد أن هذا يضعف جرعة الإبداع فيه، لكنه قد يزيد جرعة الفائدة

وفى كلٍّ خير.

كتاب جديد (قديم) عندما يتعرى الإنسان 2 من 12

the meon

قال الفتى:

- فما هى طبيعتها واحتمالات توجهها؟؟؟؟؟؟

د. يحيى:

أكمل قراءة الكتاب من فضلك .

كتاب جديد (قديم):عندما يتعرى الإنسان (7 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

العـــلامة

هدى احمد محمد

اذا كان العلم كابجديه من ابجديات الانجاز البشري لم يحقق الرضا النفسي فهل الحب بمعناه الواسع و الرضا هو السبيل لراحة النفس البشريه

د. يحيى:

الحب كلمة ملتبسة خصوصا هذه الأيام،

"الرضا" أطيب وأقرب

برجاء مراجعة بعض ما جاء عن الحب فى سائر النشرات.

Mohammad Ghareeb

أنا أبدو قاسيا لكثرة ما قاسيت طول عمرى لأنى أقول الحق عارياً، والحق قاس وصارم،

كلام رائع جدا ومعبر فعلا من ينطق بالحق يعتبرونه قاسيا.

د. يحيى:

شكرا

أرجو أن يصلك انت شخصيا: تعليقك

كتاب جديد (قديم):عندما يتعرى الإنسان (7 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

"العـــلاَمة"

د. إيمان سمير

المقتطف: أصبح العلم غاية فى ذاته، وليس سبيلا للمعرفة، والألعن حين أصبح وسيلة لغير المعرفة، مثل المنح والترقيات.

التعليق: نعم، هذه هى مصيبة بلدنا.

د. يحيى:

ليس فقط، هذه مصيبة العالم كله، خاصة إذا أضفنا إليها أن العلم أصبح – فى كثير من الأحيان– خادما للمال المتوحش.

د. إيمان سمير

المقتطف: هل هم جاؤوا إليك تقديرا لهذا المخزن الممتلىء بالمعلومات أم طلبا لما تحمل فى جوانبك من معرفة ومشاعر..؟

التعليق: أعجبتنى كلمة "مشاعر" فى هذه الجملة، نعم فالناس لا تأتى لمن يمتلك المعلومات أو حتى المعرفة فقط بل لمن يعرف ويشعر، فنحن بشر ولسنا أجهزة.

د. يحيى:

مع التحذير أن نفهم المشاعر بمعنى العواطف المنفصلة أو الانفعالات الدافعية فقط،

المشاعر هى برامج مساهمة فى المعرفة الكلية أيضا.

د. إيمان سمير

المقتطف: واستبدلت بالناس الصور المقروءة، واستبدلت بالكلمات النابضة وبالحياة الدافئة، الكلمات المرصوصة على الورق، وحين ازدادت حاجتى للناس فى سن المراهقة حاولت أن أبعث فى ألفاظ الكتب الحياة، حاولت أن أجد الناس الأصدقاء بين الصفحات، كانوا ناسا رموزا لكنهم ناسى، أحسن من لاشى والسلام، كنت قد فقدت الثقة بالناس الحقيقيين، كيف آمن لهم وقد يتركونى مرة ثانية دودة ضائعة فى صحراء جرداء جديدة لا أعرفها، أما ناس الكتاب فأنا الذى أمد يدى إليهم وقتما أريد، وأنا الذى أعيدهم إلى صفحاته حين أنشغل عنهم بعد أن يؤدوا الواجب، أنا سيد الموقف

التعليق: تذكرت نفسى، هذه أنا لفترة طويلة من حياتى، أحاول أن أتعلم الآن أن أخاطر ولا أخاف من القرب حتى لو حدث ترك، فلا حياة حقيقية دون اقتراب حتى لو حدث معه ألم.

أحاول أن أتعلم ألا أكون "سيدة الموقف" أحاول أن أتعلم المشاركة بحلوها ومُرها.

د. يحيى:

هذه شجاعة تحتاج لمثابرة

لكنها نتيجتها تساوى الجهد المبذول فيها، والمثابرة عليه.

د. إيمان سمير

المقتطف: صار الامتحان بالنسبة مسألة حياة أو موت فعلا لا مجازا، لأن معنى الإخفاق هو الضياع، الاختفاء، الفناء.. ماذا يتبقى منى إذا فشل الكتاب.. وأنا كلى كتاب، لست إلا كتابا، كنت أدخل الامتحان لا لأفرغ ما فى رأسى من معلومات ولكن لأتأكد من وجودى.. لأنه لا وجود لى بدون شهادة، وحصلت على الشهادة تلو الشهادة حتى البكالوريوس. إلى هذا الحد.. كانت حياتى مفهومة

ومعقولة – على الأقل من الظاهر – استعضت بالكتاب عن الحب، و بالنجاح عن الحياة الاجتماعية، وبالشهادة عن الوجود الإنسانى، وبدا لى كل ذلك طبيعيا من فرط ما مارسته كل هذه السنين، لم أكن أدرك أننى لم أبدأ حياتى أبدا.

التعليق: للمرة الثانية، تذكرت نفسى، ولكننى حمداً لله، بدأت حياتى، وأحاول أن أجد التوازن.

د. يحيى:

أظن لهذا السبب – (تذكرت نفسى)– لقى هذا الكتاب قبولا عند الناس أكبر من ترحيبى شخصيا به، كما ذكرت فى مقدمة الطبعة الثانية، والثالثة، وحتى على غلاف هذه الطبعة.

العمل الذى يعرّف القارئ على نفسه، أو يذكره بنفسه يستأهل ما يلقاه من ترحيب حتى لو خَفُتَ الإبداع فيه.

كتاب جديد (قديم) عندما يتعرى الإنسان (6 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

أبلة الناظرة

د. ميلاد خليفة

المقتطف: حينما يغلق الإنسان على نفسه بجدران سميكة فلا يسمح للآخرين بالدخول أو لنفسه بالخروج إليهم... وقتما يحيا الإنسان .. دون وعى منه – لأهداف ليست أهدافه، فما السبيل؟!

التعليق: قد يكون إنسان آخر تعلم أن يستقبل الحب ويرسله للآخرين أيضا وقد يكون هذا الإنسان هو السبيل لذلك الإنسان للخروج من زيفه.

د. يحيى:

قد يكون

وقد لا يكون

كتاب جديد (قديم): عندما يتعرى الإنسان (8 من 12) – كبيرهم

Anonymous

قال الحكيم:

– مثل الرجل الذى يستعمل زوجته لتكمل نقصه حتى يضعف، فتركب المحمل بقيه العمر، كل بدوره.

هذا المقتطف رائع بحق، سهم في هدف أو كما يقول إخواننا الأمريكان Bull's Eye

د. يحيى:

يعنى!!

د أحمد أبوالوفا

تعرضت خلال الأسبوع الماضي لأحداث كان بمقدورها أن تفقدني الأمل، ولكني أعاني منذ فترة ليست بالقصيرة من صعوبة كبيرة في فقدان الأمل، الأمل رغم حيويته مؤلم، مرهق، ورغم ذلك أمارسه بشده و أدعو الله ألا أفقد ذلك الألم أبدا

د. يحيى:

"ألم الآمل" أشرف ألف مرة من "رفاهية اليأس".

Dr Ashraf

هذه صورة–رؤيه– مؤلمه حقا حينما يكون بديل الألم ألما آخر ربما أقسى وقد وهن العظم واشتعل الرأس شيبا

د. يحيى:

حتى لو وهن العظم، واشتعل الرأس شيبا فالذهن قد يزداد توقدا.

كتاب جديد (قديم) "عندما يتعرى الإنسان" (2 من 12)

الفصل الأول: الضياع

د. إيمان سمير

المقتطف: هذه القدرة الطبيعية على الخلق بمجرد الاحتواء،

التعليق: أعجبتنى هذه الجملة بمعناها الحرفى عندما قرأتها، ولكننى فكرت فيها أكثر وتسألت: بعيداً عن معناها الحرفى، الا تنطبق هذه الجملة على علاقتنا بالآخر؟ هناك خلق، ظهور لطبيعة جديدة، خروج الإنسان الحقيقى الداخلى البسيط إلى النور عندما يجد من يحتويه ويرعاه ويقبله ويتفهمه.

د. يحيى:

ياه

هذا مفهوم لم يخطر على بالى أثناء كتابة هذا النص

إذن: علينا أن نتذكر روعة وضرورة برنامج الدخول والخروج In-and-out program

د. إيمان سمير

المقتطف: ولكنهم يقنعون أنفسهم- ويتبادلون الإقناع مع الآخرين- أنهم يضحون فى سبيل الصغار.. فى حين أنهم يحتوونهم احتواء ليضمنوا لأنفسهم أمانا أو استمرارا.

المقتطف: لقد كان يريد أن يتخلص من الألفاظ فقط، فلماذا ذهبت المعانى

المقتطف: هو الفراغ بديلا عن الحشو الفارغ، وهو الرفض الكامل بديلا عن القبول الكامل

التعليق: ليس لدى تعليقاً، ولكن هذه الجمل أعجبتنى وجعلتنى أفكر ....

شكراً أستاذى.

د. يحيى:

الجمل التى تجعلنا نفكر، أفضل كثيرا من الجمل التى تبلغنا أفكارا جاهزة

****

كتاب جديد (قديم) "عندما يتعرى الإنسان" (3 من 12)

الفصل الثانى: كرسى عجل

د. إيمان سمير

المقتطف: كل هذه الأشياء التى اشترى بها الاحترام لم تدخل نفسه، هذا الكرسى والمكتب والشهادة والوظيفة، كل هؤلاء الناس وهذه الأشياء ملتصقة به وليست فى داخله.

التعليق: حقيقى قوى .. بس ليه الناس بتكتشف ده وتفكر فيه متأخر؟ إستسهال؟ لأن الحصول على الحاجات المادية (الخارجية) أسهل من أن ندع الأشخاص، وربما بعض الأشياء، تدخل جوانا بجد؟

د. يحيى:

أسهل!؟

ربما

لكنه "أخيب" (من الخيبة)

د. إيمان سمير

المقتطف: وربما هذه هى المأساة. أن يعيش الناس مثل الناس، وبالضبط، فلا تصبح الجماعة مجموعة أفراد ولكن نسخا مكررة من كائن خرافىّ ماسخ..

التعليق: اتفق تماما، فأنا أرانا، البشر، كالجسد هناك أعضاء كثيرة، ولكل عضو وظيفة يؤديها حتى يصبح الجسد صحيحاً متكاملا ولكننا تميل أن نكون العضو الجميل الظاهر أو نقلد عضواً آخر بدلا من أن نحاول أن نكتشف من نحن وما هو دورنا فى الحياة، وهو الأمر الأصعب.

د. يحيى:

اكتشافنا "من نحن" ليس غاية المراد،

أو لا ينبغى أن يكون كذلك،

"نحن نتخلق بنا" باستمرار فنعيد اكتشاف المرحلة إلى التى تليها، وهكذا

فلا تهمدى يا إيمان

كتاب جديد (قديم) عندما يتعرى الإنسان (4 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى" الفصل الثالث: فى القفص

د. إيمان سمير

المقتطف: هو كذلك، إذا أردت الكمال، ولكنه ليس كذلك إذ كانت الأهداف المطلقة لا تلزمنا بضرورة تحقيقها فى صورتها المثالية فورا، ولكنها تنير طريقا إليها، وبالتالى يكون السير تجاهها هو هو تحقيقها ولو لم نصل إليها،

التعليق: هل سنصل أبداً، لا أظن، لأنه كما قلت من المستحيل الوصول إلى الكمال، ولكن المهم أن نسير فى الطريق الصحيح، الطريق المنير، الطريق الذى نفرح فيه بنجاحنا لبعض الوقت، ونتعلم فيه من فشلنا فى أوقات أخرى فإن وصلنا لو كان هناك شئ اسمه "وصلنا"، ستفقد الحياة معناها، فلماذا نستكمل السير إن كنا قد وصلنا؟

د. يحيى:

هذا صحيح

ولماذا الوصول أصلا؟

إلا كمحطات نلتقط فيها الأنفاس

د. إيمان سمير

المقتطف: ولكن لابد أن تعيش مأساتى حتى تشعر أن هذا هو الموضوع.

- أو أن أعيش مشاعرك وأنت معى...

التعليق: هذا هو المطلوب، أن أعيش مشاعر الآخر وهى معى، فلن يمكننى أبداً أن أعيش مأسى كل من أقابلهم. كان ضميرى يؤنبنى وأشعر بالضيق لأننى لن أتمكن من مساعدتهم لأننى لا أعيش مأسيهم، ولكن وجدت الحل: أتعلم أن أعيش مشاعرهم وهم معى.. شكراً.

د. يحيى:

يعنى

د. إيمان سمير

المقتطف: طبيب يترك مهنة الطب ليكون إنسانا

التعليق: هذه هى الجملة التى كنت أبحث عنها منذ أن قررت أن أضع تخصصى الأساسى فى مجال الطب جانبا (Clinical Pathology) وأمارس هذه المهنة (أكون إنسانة)... شكراً.

د. يحيى:

ربنا ينفع بك فى كل موقع.

د. إيمان سمير

المقتطف: هو الشخص الذى يستطيع أن يمنح الحب الدائم الدافيء... ويستقبل المشاعر بصدق وأمانة حتى يذوب الجليد الذى نعيش

التعليق: كنت أظن أن على أن أمنح فقط، لم أكن أعرف كيف استقبل، فالمنح سهل لأنه لا يتوقع شيئا ولا يخيب الظن ولا يحبط، ولكن الاستقبال أصعب لأنه قد يحبط ويؤلم. ولكننى أكتشفت أننى لن استطع أن أمنح حبا حقيقيا دون أن أتعلم كيف استقبل مشاعر حقيقية بحلوها ومرها.. شكراً.

د. يحيى:

هذا صحيح

صعوبة الأخذ لا يكتشفها إلا ذو بصيرة حادة، وهى مسألة علينا أن نتعامل معها بجدية ومسئولية ربما نخفف من وضع اللوم على الآخرين وأنهم لا يعطوننا، فى حين أن مسامنا نحن هى المغلقة

د. إيمان سمير

المقتطف: الناس جميعا رغم قسوتهم الظاهرة "مساكين" لا يدركون ما يفعلون ببعضهم البعض،

التعليق: نعم الناس مساكين جداً، بس لو نتعلم نحط نفسنا مكان بعض ونعذر بعض....

د. يحيى:

هذه خطوة مهمة وجيدة،

ومع ذلك ففيها خداع كثير، وتحتاج لشغل ومراجعة

كتاب جديد (قديم) عندما يتعرى الإنسان (11 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

(أو) قبل البداية

قبل النهاية...

هدى احمد محمد

هل المقصود باتساع دائرة اليقظة هو الاستبصاربحقيقة الاشياء ،وهل يتأتى ذلك من الشعور بالالم في رحلة البحث عن الحقيقة ،ولكن في هذه الرحلة قد يطول نور الفجر حتي تسطع الشمس لتدفئ جنبات الكون، واذا لابد هنا من الامل ،و بناءا علي ذلك تكون الحياة هي المعاناة او لنسميها الكدح وليسعي كلا منا حسب اجتهادة حينما يمتلك الارادة الواعية التي هي من هبات الخالق في اعتقادي.

د. يحيى:

هو كذلك

هيا نحملها

الأمانة

فيصبح كل يوم عيد إذا تجنب كل منا – برغم حملها- أن يكون ظلوما جهولا

وهذا ممكن

كل سنة وأنت طيبة، حاملة للأمانة بالعدل والمسئولية، ونحن معك

كتاب جديد (قديم): عندما يتعرى الإنسان (10 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى"

أكبـــادنا

د. أسامة فيكتور

المقتطف: "على لسان الأب"

"أنا الذى وضعت بذرتهم داخل أمهم، وهى حملتهم وهنا على وهن، وأنا الذى صرفت وربيت وعلمت"

التعليق: أعتقد أن هذا بيت القصيد فى صناعة الفصام حتى لو لم يعلن بالكلام فهو يصل للأبناء فى رسالة مفادها أنتم أشياء نمتلكها فلا بد أن تكونوا كما نشاء.

د. يحيى:

هذا صحيح

ألم تلاحظ هذه الظاهرة فى معظم الحالات التى نتدارسها معا فى المرور؟

ربنا يستر

كتاب جديد (قديم) عندما يتعرى الإنسان (11 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى" (أو) قبل البداية.. قبل النهاية...

nashwa

انا مقتنعه بالكلام ده بس المشوار طويل قوي وبطئ ومؤلم جدا لدرجة اني احيانا بخاف افقد الامل من طول المشوار

د. يحيى:

إياك إياك!

من يفقد الأمل يتنازل عن حقه فى الحياة

من يفقد الأمل يفقد الله.

كتاب جديد (قديم): عندما يتعرى الإنسان (10 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى" أكبـــادنا

nashwa

بجد اشكرك علي هذا الكلام الرائع فهو عبر عما داخلنا نحن الابناء تجاه الاباء فنحن لا ننسي فضلهم ولكننا نريد ان نشعر باستقلاليتنا فما يفعلوه لا نستقبله علي انه خوفا علينا بل كحبل يخنق حريتنا

د. يحيى:

العفو

أنا الذى أشكرك.

nashwa

أليس ما تقصده هو أن ما يفعله الاباء هو وسيلة دفاعية ليخرجوا مابداخلهم من خلال ابنائهم

د. يحيى:

ليس تماما

أنا لا أهتم كثيرا بحكاية "إخراج ما بالداخل" بقدر ما يهمنى: ماذا نفعل بما يصلنا مما بالداخل وما بالخارج، فينا وفى غيرنا، هنا والآن.

كتاب جديد (قديم) عندما يتعرى الإنسان (11 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى" (أو) قبل البداية.. قبل النهاية...

Sama Sh

شكرا يادكتور، كل سنة وحضرتك طيب

د. يحيى:

وانت بالصحة والسلامة.

Islam Zidan

دوما ننتظر منك كل ما هو مفيد لنا فشكرا لسيادتك وكل سنه وانت طيب

د. يحيى:

وانت طيب.

Anti-corruption Citizen

الى الدكتور /يحيي الرخاوي: أنت أستاذ كبير وصاحب مدرسة في الطب النفسي، و كل حكاياتك مصاغة بحرفنة ولها هدف مطلوب توصيله للقارئ. لقد حصلت على جزء من ثلاثية المشي على الصراط، و هو مدرسة العراة، و أجتهد في الحصول على الباقي. و من اللافت للنظر قولك أن الثلاثية يمكن قراءتها كعمل متكامل أو كأجزاء منفصلة، و هذا في حدود علمي أول عمل أدبي يمكن قراءته بهذه الصورة كل سنة و أنت طيب يا عبقري الطب النفسي وعبقري الأدب (دكتور مهندس).

د. يحيى:

أولاً: شكرا، ثم يمكنك الحصول على الأجزاء الثلاثة

من المستشفى (دار المقطم للصحة النفسية)، أو من الناشر:

الجزء الأول: الواقعة، الناشر: دار ميريت، سنة 2008

الجزء الثانى: مدرسة العراة، الناشر: الحضارة للنشر، سنة 2008

الجزء الثالث: ملحمة الرحيل والعود، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 2007

د. احمد الباسوسي

فكرة الابعاد على مستوى التصنيف جذابة دائما / التطور مقابل التدهور . والموتى الاحياء مقابل الاحياء المبدعين . لكن تظل النفس الانسانية متحدية لكل تصنيف او تنظيم ، فهؤلاء الموتى الاحياء قد يساهم بعضهم في تطور أو اضافة قيمة ابداعية ذات مغزى لملايين البشر سواء ادرك ذلك ام لم يدرك بفعل موته المعنوي أو الجسدي لاحقا . كما ان العامل الروحي الايماني متعلق بشدة بالتطور والابداع ، وقد يكون مشتركا احيانا بين المتطورين والموتى . او بين الموتى الاحياء والاحياء المبدعين . واخيرا طرح مبدع ليس بمستغرب من فيلسوف هذا الزمان والمبدع الكبير الدكتور يحيى وتحياتي

د. يحيى:

عندك حق من حيث المبدأ

وتعليقك شديد العمق ويحتاج لرد مطول فاسمح أن أكتفى بشكرك الآن، إلى عودة.

Anti-corruption Citizen

لولا المرض ما عرفنا الطب ، بل و كثير من الأمراض النفسية كانت أساسا لأعمال أدبية كبرى. و لولا الظلام ما عرفنا النور ، و لولا الشر ما عرفنا الخير ، و لولا الأسود ما عرفنا الأبيض. نعم أنا معك في أن النفس الانسانية عصية على أي تصنيف لأنها سر من أسرار الله. مع تقديري و اعجابي بما كتبه د/ أحمد الباسوسي.

د. يحيى:

شكراً.

كتاب جديد (قديم) عندما يتعرى الإنسان (12 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى" أغنية للحياة

أ. هالة

ما أجمل هذه الاغنية حقا ابداع ، (يعيدون الثقة للرجال فتتحرر النساء، فيطمئن الرجال، وتتعلم البنات الأمومة، فيكبر الأطفال بشراً بحق...)

- هل من عندهم أطفال يبدا الطريق؟

د. يحيى:

دعوة كريمة

كتاب جديد (قديم) عندما يتعرى الإنسان (12 من 12)

"دروس للناس: فى الطب النفسى" أغنية للحياة

Nona Sad Heart

أكثر من رائعه

د. يحيى:

شكرا

Sherien Elmahdy

ما أجملها أغنية للحياة – تحياتي لأستاذي الفاضل

د. يحيى:

ومع ذلك فهى ليست الأقرب إلىّ الآن (كتبتها سنة 1969)، فأنا أحذر الآن أكثر فأكثر من النغمة المثالية الطاغية عليها.

إصـدارات شبكـة العلـوم النفسيـة العربيـة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلـف

الإنســــان والتطــــور
اصـــــــدار حســـــــب المحــــــاور
5
WINTER
2012

أ.د. يحيـــــــــى الرخـــــــــاوي

- أستاذ الطب النفسي: كلية الطب، جامعة القاهرة
- كبير مستشاري دار المقطم للصحة النفسية
- رئيس مجلس إدارة جمعية الطب النفسي التطوري والعمل الجماعي

الأبحـــاث النفسيـــــــة

- عديــد الأبحـاث وأوراق بالإنجليزيـة و عديـد الفـروض والنظريـات والمداخلات بالعربية إضافة إلى عديد أبحـاث الـدكتوراه والماجسـتير التي قام بها واشرف عليهاو مشـاركته عديــــد النـدوات والمـؤتمرات العلمية والعالمية

المـؤلفــــــــــــات

- حيرة طبيب نفسي – المشي على الصراط (ج1 الواقعة. ج2 مدرسة العراة) – مقدمة في العلاج النفسـي الجمعـي – دراسـة في علـم السـيكوباثولوجى (شـرح : سـر اللعبـة) العمـل المحـوري الـذي يمثـل تنظيـره للأمـراض النفسـية والسـيكوباثولوجيا –أغـوار الـنفس – حكمـة المجـانين – النظريـة التطوريـة الإيقاعية وأساسيات من علم النفس (تشمل الخطوط العامة للنظريـة النفسـية البيولوجية للمؤلف) –قراءات في نجيب محفوظ –مثل.. ومـوال –مراجعـات في لغات المعرفة –مواقف النفري بين التفسير والاستلهام– ترحالات يحيى الرخاوي (ثلاثة أجزاء) –مبادئ الأمراض النفسية –علـم الـنفس في الممارسـة الطبيـة – علم النفس تحت المجهر –) ألف باء. الطب النفسي –حياتنا و الطب النفسـي – حيرة طبيب نفسي –عنـدما يتعرى الإنسـان –دليـل الطالـب الـذكي في علـم النفس والطب النفسي: 3 مجلدات – أفكار وأسمار حول القصر العينـي – البيـت الزجاجي والثعبان. (شعر) – اللغة العربية والعلوم النفسية الحديثة –المفـاهيم الأساسـية للطـب النفسـي– الطـب النفسـي للممـارس – قـراءات في نجيـب محفوظ –مثل.. وموال قراءة في النفس الإنسانية – رباعيات ورباعيات – هيا بنـا نلعب يا جدي سويا مثل أمس –تبادل الأقنعة –أصداء الأصداء

الانتمــــاء إلى الجمعيــــات النفسيــــــة

- عضو الجمعية المصرية للصحة النفسية
- عضو مؤسس للكلية الملكية للأطباء النفسيين
- رئيس التحرير المشارك المجلة المصرية للطب النفسي.
- رئيس تحرير مجلة الإنسان والتطور –مستشار النشر بالهيئة العامة للكتاب
- مسئول التحرير المشارك للمجلة العربية للطب النفسي

إصــدارات شبكــة العلــوم النفسيــة العربيــة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلــف